جورج بوليتزير

المادية والمثالية في الفلسفة

ترجمه وعلق عليه
اسماعيل المهدوي

الى زوجتي..

مقدمة المترجم

روى المؤرخ الاغريقي بلوطرخ ، أن الاسكندر المقدوني لم يكد يخرج الى الفتح حتى نمي الى علمه أن أستاذه أرسطو نشر عدة كتب في الفلسفة . فثار لذلك ثورة شديدة وكتب اليه يقول :

((من الاسكندر الى ارسطو . لقد ارتكبت خطأ بنشرك الأجزاء الباطنة من العلم . والا فكيف يبقى اختلافنا عن الناس اذا جعلت المعرفة العليا التي اكتسبناها منك مشاعة في العالم أجمع ؟))

فرد ارسطو على الاسكندر بعبارته المعروفة :

لقد نشرناها ولم ننشرها ... ولن يصل الى فهمها الا من درس علينا مثلك . (١)

بهذه الكلمات ، كشف أرسطو منذ الفي عام الطابع الطبقي الفلسفة . واستمرت كلماته تلاحق الناس طوال العصور التي انقسموا فيها الى عامة وخاصة ، حتى أصبح من بديهيات الفلسفة انها لا تصلح للعامة أو ((البلهاء)) - على ماكان يسميهم متصوفة الاسلام !

ولكن فلسفات من نوع آخر كانت تنبثق في صفوف الجماهير منذ أبعد عصور التقدم . وكانت الجماهير تحس بأن هذه الفلسفات ظهرت من اجلها هي . لماذا ؟ لأن هذا النوع من الفلسفة كان يبدا دائما من الواقع ، وينتهي الى الواقع أيضا . هكذا فعلت فلسفة ديمقريطس وأبيقور في اليونان القديمة . وهكذا نادت فلسفة البسطاء في عصور الفراعنة : ((ليس ثمة شيء يصرفنا الى رواية الأقاصيص عن العالم الآخر ... فلنشغل أنفسنا بشئون الدنيا .)) (٢) بل هكذا أعلن النبي محمد فلسفة حضارة جديدة

---

(١) بلوطرخ : «السير» ، الترجمة الانجليزية لجون ووليم لانجورن، ص ١٥٨ . لندن ١٨٨٦ .

(٢) ورقة البردى المسماة « أغرودة عازف القيثارة . » ، من روجيه جارودى في كتابه « الحرية » ، ص ٢٧ . باريس ١٩٥٥ .

عندما قال : ((أنتم أعلم بأمور دنياكم))٠

الا أنه اذا كانت فلسفة الخاصة قد تعالت على واقع الجماهير ، فليس معنى ذلك أنها كانت تجرد الجماهير من الفلسفة٠ فالفلسفة كما قلنا فى كتاب سابق ، وظيفة حتمية فى عملية وعى الانسان للطبيعة والمجتمع ٠ فانعزال الناس عن الفلسفة لم يكن يعنى أكثر من انصرافهم عن الاهتمام بالفلسفة ٠ وبهذا كان يسهل وقوعهم فى براثن الفلسفات المضللة التى تمتصها عقولهم فى أى عمل فكرى أو فنى ، بل حتى فى الأحاديث الجارية ، فى الوقت الذى يحسبون أنفسهم منصرفين عن الفلسفة ٠

من ذلك مثلا أن فلسفة الخاصة درجت على أن تلقن الناس أو توحى اليهم بان المثالية هى الفلسفة ((الراقيــة)) أما المادية فهى الفلسفة ((الساقطة)) ٠ لماذا ؟ لان المثالية فلسفة ((المثل الأعلى)) أو ((الفكـرة)) ، أما المادية فمعناها ، كما قال انجلز ساخرا ، ((الشراهة والسكر والملذات الحسية والحياة المترفة والشهوة والبخل والطمع والجرى وراء الربح والمضاربة فى البورصة ، أى باختصار ، كل الرذائل الدنيئة التى ينغمس فيها المثالى سرا)) !

والحقيقة أنه ليس ثمة علاقة بين المادة ، وهى فى الفلسفة وجود الواقع خارج شعور الانسان ومستقلا عنه ، وبين السكر والعربدة وما الى ذلك من أمور تعتبرها المادية هروبا من الواقع ! فالمادية لها أخلاقها العلمية المتينة ولها مثلها العليا ٠ وهل هناك اسمى من المثل العليا التى مات من اجلها كودويل الانجليزى وهو يناضل مع الشعب الاسبانى ضد فاشية فرانكو ؟ وهل هناك أسمى من المثل العليا التى دفعت بالضابط الفرنسى ((مايو)) الى صفوف ثوار الجزائر ليستشهد مع شهدائهم دفاعا عن حق الشعب الجزائرى فى التحرر ؟ فاذا كانت المادية تبدأ بالواقع المادى، فذلك لانها تؤمن بتغيير هذا الواقع من أجل تحقيق مثل عليا انسانية بحق ٠ وفى هذا يقول ماركس :

((ما دامت الظروف هى التى تصنع الانسان ، فيجب أن نصنع ظروفا انسانية)) ٠

المادية تبدأ اذن من الواقع ، لأنها تؤمن بقدرة الانسان على تغييره وتحويله الى واقع افضل ، أى الى ((واقع مثالى)) بالمعنى

العلمى للكاهنة . وبهذا تتخطى التناقض بين الواقع والمثـل الأعلى . أما المثالية ، فتبدأ بعالم مثالى بعيـد عن الواقع ، وتنتهى الى أن تغيب فيه .. وليذهب هذا الواقـع اللعين الى الشـيطان ! وهنا يتضح ((المضمون)) الحقيقى للمثالية ، بوصفها فلسفة الهروب من الواقـع . وهذه هى السمة المميزة لكل الفلسـفات المثالية .. فالصـوفية مثالية ، لأنهـا تهرب من الواقـع الى عالم غيبى . والوجودية مثالية ، لأنها تهرب من الحقيقـة الى ((سرداب الشعور الـذى يخيم عليـه ظلام اللامعقـول)) . والوضـعية مثاليـة ، لأنها تصرف الناس عن الايمان بحتمية الواقـع المادى وقوانينه ، قائلة لهم فى تواضـع جم : ليس الواقع ماديا يتغير وفق قوانين حتمية ، بل هو مجموع الخبرات الحسية التى يحصل عليهـا الانسان ، والتى لا تتيح له أن يحكم يقينا عما اذا كانت الشمس ستشرق غدا أم لا ! ومعنى ذلك أن نقطة البدء فى الوضـعية هى الاحساسات ، أى الذات أو الفكرة ، وليس الواقع الخارجى .

فالمثالية اذن عدوة الواقع . وهى لهذا عدوة المثل العليا أيضا . ولنسمع فى ذلك قول المثالى المتطرف نيتشه :

((اننى أحلم بقيـام جماعة من الرجال تامين مطلقين ، أشـداء لا يتهاونون ولا يتساهلون ، يطلقون على أنفسهم اسم الهدامين .. لا يحفلون بالحياة ولا بالطمانينة والسلام ، وانما يجدون النعيم فى الانتصار والقوة والتحطيم ، ويشعرون بسرور عميق وهم يعذبون الآخرين ...)) ! (١)

وهنا تبدو اللاأخلاقية ثمرة طبيعية لأشـد المثاليات اغراقا ، وليست قط وليدة فلسفة مادية . فالانصراف عن الواقع يعنى فى الحقيقة انكار الامكانيات المادية الهائلة للترقى الأخلاقى ، أى يعنى بعبارة أخرى خنق المثل العليا . وفى هذا تسقط المثاليـة لاأخلاقيتها على المادية ! ولكنها بالبداهة لا تفعل ذلك اعتباطا .

نعم . فتشـويه المادية لم يحدث عفوا وعن طريق سـوء الفهم البرىء ، بل حدث كعملية واعية منظمة تفرضها الطبقات الحاكمة طوال العصور ، وتتفنن فى فرضها بشتى وسائل الاغراء والقهر . وفى الماضى سارت محاكم التفتيش ومطاردة ((الزنادقة)) جنبـا الى جنب مع تقريب المفكرين الرسميين واغداق المال عليهم . وهكذا

---

(١) من الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه « نيتشه » ، ص ١٥٧ ، ١٦٦ . الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٤ .

تحـــدد الطريق اذذاك أمام الفكـــر البشرى : فاذا كنت تخشى على رقبتك أو تطمع فى حظوة الحكام ، فلتثبت ولاءك لهم بالهجوم على المادية والماديين ، ولتجعل من كلمة ((مادية)) كلمة مخيفة مزرية . فليس هناك من سبيل لعزل الجماهير عن فلسفتها الحقيقية الا طريق التزييف والتشويه . فأخوف ما تخاف الطبقات الحاكمة أن يصل الى البسطاء نور الواقع .

وان هذا ليحـــدد طبيعة الصراع بين فلسفة العامة وفلســـفة الخاصة ، أى بين المادية والمثالية . فالمادية تتجه الى كشف الواقع وتعرية الأوضاع الجائرة من التبريرات المثالية ، وبهذا تطلق حركة الجماهير ضد أعدائها . أما المثالية فتتجه الى تبديد ثقة الناس فى الواقع وتحطيم ايمانهم بالقدرة على تغييره ، ومن ثم تدفعهم الى التواكل والاستسلام . ولهـــذا كان الصراع بين المادية والمثاليـــة صراعا بين اتجاه العامة الى التحرر واتجاه الخاصـــة الى القهر . وليس أدل على ذلك من قول شيشرون الرومانى قبل ميلاد المسيح : ((الايمان بالآلهة أمر لا بد منه للعبيد)) .

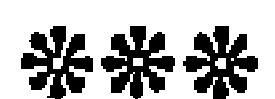
فهل يدهشنا اذن أن يعلن أيزنهـــاور ، ازاء ثورتنا العربيـــة ، خوفه على ((روحانيـــات)) الشرق من زحف ((المـــادية)) ؟ كلا . فايزنهاور لم يقـــل أكثر مما قال شيشرون ثم محـــاكم التفتيش فى العصـــور الوسطى . وكما كانت محاكم التفتيش فى الماضى تعبر عن خوف أمـــراء الاقطاع من أن يفهـــم الناس واقعهـــم فيطوحوا بحـــكم الاقطاع ، كذلك عبر ايزنهاور اليوم عن خوف الاســـتعمار الأمريكى من أن تفهم شـــعوب الشرق واقعهـــا المادى ، فتحـــول هذا الواقع الى مصـــانع ضخمة وقـــوى عارمة وانتاج ثقيـــل .. بل عبر ايضا عن خوف الاستعمار من أن يفهم الشـــعب الأمريكى نفســـه واقعه المادى ، فيطوح بالنظام الاستعمارى ويحول مايملك من طاقات ذرية وكهربائية هائلة الى خدمة السلام والرخاء . ولهذا يباشر المكارثيون فى أمريكا مهمة أجدادهم جلادى العصور الوسطى .

وكما تتفنن الطبقات الرجعية فى قهر القـــوى الشعبيـــة ، يتفنن المفكرون الرجعيون فى تشـــويه المادية ، واختراع الوان جديدة من المثاليـــة . من ذلك مثلا أن المفكرين الرجعيين المعاصرين دأبوا على مهاجمة المادية الحديثة ، ألا وهى الماركسية ، مستندين فى هجومهم الى نقائص خطيرة وقعت فيها ماديات قاصرة ، تدينها الماركسية أشد من ادانتهم لها . فهم مثلا يعيبون على المادية الحديثة انها

تعتبر الانسان ((آلة)) دقيقة لا أكثر ولا أقل ! وهنا في الحقيقة خطأ الماديين من تلامذة ديكارت في القرن الثامن عشر ، وهم الماديون الذين تصوروا قبل ظهور علم البيولوجيا انه يمكن تصميم جهاز أوتوماتيكي دقيق يؤدي دور الكائن العضوي ! وكم من الصفحات كتبها ماركس وانجلز ليفندا هذه الأسطورة الميكانيكية غير العلمية، وليثبتا أن الحياة ظاهرة بيولوجية تختلف نوعيا عن الظواهر الميكانيكية ، وأن ظاهرة الشعور البشري بعد ذلك أرقى من الظواهر البيولوجية وتختلف عنها نوعيا .

وعندما التقطت المادية المتخلفة في القرن التاسع عشر هذا الاتجاه الميكانيكي ، سلطت عليها الماركسية نقدا حادا ، وسماها انجلز المادية الرخيصة أو المبتذلة Materialisme vulgaire ، ووصف أصحابها (ومنهم بوخنر) بأنهم ((سماسرة يبتذلون المادية ليتاجروا بها)) .

هكذا تتخطى المادية الحديثة المادية القديمة بنفس تخطيها المثالية . وفي هذا يتحدد طابعها الجدلي العلمي . أما المثالية المعاصرة ، فتحاول بدورها أن تتخطى المثالية القديمة لتصل الى تخطي المادية الحديثة . وهذا ما يعترف به البرجماتي الأمريكي جون ديوي في كتابه ((اعادة بناء الفلسفة)) . (١) ولكنها كما رأينا تتخطى المادية القديمة فحسب ، ثم لا تملك ازاء المادية الحديثة الا أن تشوهها في اسفاف وخسة . لماذا ؟ لأن المثالية لن تصل الى تشويه الواقع ما لم تصل الى تشويه فلسفة الواقع . وهي لعجزها لا تستطيع أن تفعل ذلك الا في غيبة من عدوها . وهذا ما يدفعها الى عزل المادية الحديثة عن الجامعات ودور النشر . ولكن ... هيهات !



بقي أن نقول كلمة عن هذا الكتاب .

ان الكتاب يعالج مشاكل فلسفية واقعية ومفهومة ، ولكنها عميقة . فلا بد للقارىء اذن أن يتعمقه ليصل الى فهمه . ولقد

---

(١) ص ٦٠ ، طبعة منتور ١٩٥١ .

حاولنا ان نضع هذه الترجمة فى أيسر شكل . ولكننا لم نطمع أبدا فى أن نحول الكتاب بطريقة سحرية الى قصة شيقة !

ثم اننا لم نقصــد بمعظم الملاحظات فى نهــاية الكتاب أن نفسر نصوصه ، لأننا راعينا ذلك فى طريقة الترجمة . وكل ما قصدناه أن نضيف تفاصيل جديدة الى النقاط التى رأيناها فى حاجة الى ذلك .

اسماعيل المهدوى
١٨ اغسطس ١٩٥٧

الباب الأول

دراسة المادّيّة الفلسفيّة الماركسيّة

الفصل الأول

ماهو المفهوم المادى للعالم؟

نحن نعرف أن الجدل هو النظر الى الأشياء والتصورات فى تسلسلها وعلاقاتها المتبادلة وفعلها المتبادل ، وفى التحــول الذى ينتج عن ذلك ، وفى نشأتها وتطورها وانهيارها .

ولكن الجدل يصبح غير ذى معنى اذا فصلناه عن العالم الواقعى ، أى عن الطبيعة والمجتمع . فالجدل يوجد فى الواقع نفســه ، وليست الروح هى التى تأتى به . فاذا كان الفكر البشرى جدليا فذلك لأن الواقع جدلى قبل أن يكون الفكر كذلك [1] ، أى أن الجدل جدل العالم الواقعى . ولهذا السبب كان مفهوم العالم ماديا فى النظرية الماركسية اللينينية ، لأن منهجها جدلى . ومفهوم

---

(١) اذا كان التدليل « الجدلى » لايعكس التناقضات القائمة فى الاشــياء نفســها ، كان مجرد « تلاعب » أو مغالطة . ويلاحــظ أن أعداء الماركســية يحاولون ان يخلطوا بين «جدلى» و «سفسطائى» .

العالم هذا هو موضوع دراستنا الآن . أما الجدل فقد درسناه في كتاب آخر .

١ ـ معنيان لكلمة « مادية »

يجب أولا أن نحذر من التباس خطير . فالفلسفة الماركسية فلسفة مادية . وقد جر هذا على الماركسية منذ ظهورها هجمات وتشهيرات لا حصر لها من خصومها الطبقيين . وكانت نفس هذه الهجمات ونفس هذه التشهيرات توجه أيضا منذ العصور القديمة الى المادية بصفة عامة . وهي تتـكون أساسا من تزييف خبيث لمعنى كلمة «مادية» ، يتلخص في أن خصوم المادية كانوا يخفون معناها الفلسفي الدقيق ، ويلصقون بها معنى « خلقيا » من شأنه أن يسلبها ثقة الناس .

بهذه الطريقة كانت « المادية » تأخذ معنى « اللا أخلاقية » ، أي الرغبة العارمة في الملذات ، والأفق الضيق الذي ينحصر في الحاجات المادية فحسب . فالتشهير ليس جديدا . وقد سبق من قبل أن استخدمت الكنيسة أسلوب التشهير هذا ضد مدرسة أبيقور الفلسفية (١) . وكان أبيقور يؤكد حق الانسان في السعادة، وضرورة اشباع الحاجات الأساسية في الطبيعة البشرية من أجل تحقيق هذه السعادة . فقام الفكر الكنسي ومن بعده

ملحوظة : الارقام الكبيرة تشير الى ملاحظات المترجم في نهاية الكتاب .

الفكر الجامعى بتشويه الفلسفة الأبيقورية عن وعى خلال عدة قرون . ومنذ اذذاك ، أطلقوا على الماديين اسم « الشهوانيين من أتباع أبيقور » .

ولكن الحقيقة أننا اذا أردنا أن نقصر كلمة مادية على هذا المعنى ، فالأدق أن نطلقها على البرجوازية نفسها ، أى على طبقة المستغلين — وليس على الطبقة العاملة الثورية وأبطالها ، من أمثال جبرييل پيرى وجورج پوليتزير وپيير تمپو وبيلوپانيس .(٢)

وقد رد انجلز هذا التشهير الساقط على مختلقيه فقال :

« الواقع انهم — ولو بطريقة لا شعورية — يوافقون هنا موافقة لاتغتفر على التحيز الأعمى ضد كلمة مادية ، وهو التحيز الذى يرجع أصله الى تشهير القساوسة القديم . فالمتعصب الأعمى يفهم المادية بمعنى الشراهة والسكر والملذات الحسية والحياة المترفة والشهوة والبخل والطمع والجرى وراء الربح والمضاربة فى البورصة ، أى باختصار ، كل الرذائل الدنيئة التى ينغمس فيها هو نفسه سرا . » (١)

أما المعنى الصحيح — أى المعنى الدقيق — لكلمة مادية ، فهو المعنى الفلسفى . والمادية بهذا المعنى مفهوم للعالم ، أى طريقة معينة فى فهم ظواهر الطبيعة وفى تفسيرها على أساس مبادىء محددة ، وبالتالى فى فهم وتفسير مظاهر الحياة

---

(١) انجلز : «لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة التقليدية الالمانية» ، ص ٢٣ .

الاجتماعية . و « مفهوم العالم » هذا قائم فى كل الظروف ، ويعمل كأساس لمختلف العلوم . فهو يؤلف اذن التفسير العام الذى يؤدى دور الأساس المتين لكافة أنواع الانتاج العلمى ، أى يؤلف باختصار ما يطلق عليه « النظرية » . (١)

فلنحدد بصفة عامة أساس النظرية المادية ، فهذا هو موضوع الفصل .

٢ ـ المادة والروح

يجب أولا أن نحدد بدقة معنى « مادة » التى تشتق منهـا كلمة « مادية » .

ان العالم الذى يحيط بنا (أى الطبيعة والمجتمع) يقدم لنا عددا لانهاية له من الظواهر المتنوعة تنوعا لانهائيـا ، والتى يمكن أن تتنوع على وجوه متضاربة . الا أن هنـاك من بين كافة الصفات التى نستطيع أن نميز بها مختلف الظواهر ، صفة واحدة أهم من كل ماعداها ، ويمكن ادراكها دون دراسات علمية سابقة .

فالحقيقة أن كل انسان يعرف أن هناك فى الواقع أشياء يمكن أن نراها وأن نلمسها وأن نقيسها ، وهى التى نسميها « مادة » . ثم هناك من ناحية أخرى أشـياء لا نستطيع أن نراها أو أن نلمسها أو أن نقيسـها ، ولكنها أشياء ليست أقل من الأولى

---

(١) أنظر معنى الفلسفة والعلم فى الجزء الأول من « المبـادىء الأساسية للفلسـفة » (ترجمة اسماعيل المهدوى) .

وجودا ، مثل أفكارنا وعواطفنا ورغباتنا وذكرياتنـا .. الخ . ونحن نسمى هذه الأشياء « فكرية » لنعبر بذلك عن كونهـا غير مادية . وهكذا ينقسم لدينا كل ماهو موجود الى مجالين: مادي، وفكرى (أو مثالى) (٣). فاذا أردنا أن نعبر عن ذلك بطريقة أكثر جدلية ، قلنـا أيضا ان الواقع يقـدم وجها ماديا ووجها مثاليا . فكل انسان منا يفهم الفرق بين الفكرة التى توجد فى ذهن صانع التماثيل عن التمثال الذى يزمع صناعته ، وبين التمثال نفسه بعد استكماله . كذلك يفهم كل انسان منا أنه يستحيل على شخص آخر أن يحصل على فكرة التمثال ما دام لم يره بعينيه . الا أن الأفكار يمكن نقلها عن طريق اللغة : ومن ثم يستطيع هذا الشخص أن يحصل على فكرة التمثال اذا شرح له صاحب التماثيل أنه يريد أن يصنع مثلا تمثالا نصفيا لهنري مارتان . وهكذا يمكن أن يقال ان هناك عالما فكريا يضاعف العالم المادى بشكل ما ويصوره لنا ، ولكننا نسميه « تصوراتنا » .

والأمر لايختلف عن ذلك فى مجال الحياة الاجتماعية . فلا يجوز فى هذا المجال أن نخلط الوجه المادى بالوجه الفكرى . من ذلك مثلا أن أسلوب الانتاج الاشتراكى والملكية الاشتراكية لوسائل الانتاج هما فى الاتحاد السوفييتى واقع لاخلاف فيه . الا أن الفكرة التى يكونها لنفسه عنهما عامل يخدعه زعماء الحزب الاشتراكى الفرنسى ليست قط مماثلة لفكرة المكافح الماركسى الذى يعرف مبدأ هذا الواقع . فهاهنا أيضا يوجد الواقع من ناحية ، و « التصورات » التى تتصورها عنه من ناحية أخرى .

ومن البديهى أن هذا التمييز الأساسى لم يفت أحـدا من الفلاسفة القدامى الذين حاولوا ، فى مرحلة معينة من تطـور المجتمعات ، أن يضـعوا جدولا متسـقا للوجود ، بالرغم من أنهم فعلوا ذلك قبل ظهور العلوم الحقيقية بزمن طويل ، وكانوا يعتمدون على قواهم الفكرية فحسب •

هذا هو السبب اذن فى أنهم اضطروا الى أن يضعوا بجانب المـادة مبـدأ آخر هـو الروح • وكانت هـذه الكلمة تفيد بصفة عامة كل مجال الأشياء غير المادية ، أى تفيد بجانب ظواهر فكرنا ، ماينتجه تخيلنا من كائنات خيالية ، كتلك الكائنـات التى ترتع فى أحلامنا . ومن هنا نشأ الاعتقاد فى الأرواح ، ثم الاعتقاد فى وجود عالم للأرواح ، وهكذا •

من هذا ندرك أن التمييز بين المـادة والروح تمييز ذو أهمية بالغة • فيجب أن نعرف كيف نتوصل اليه وراء كافة الصـور التى يتخذها • فنحن نجده مثلا فى التمييز الذى يتصوره البعض بين الروح والجسم ، ونجـده أحيانا فى عبـارة « الوجود » و « الفكر » ، بدلا من « المادة » و « الروح » ، وفى أحيان أخرى يقال «الطبيعة» فىمقابل «الشعور» ، وهكذا(٤).. ولكن الفرق بين الاثنين يكون هو نفسه على الدوام •

٣ ـ المسألة الأساسية فى الفلسفة

لايستطيع التقدم الحديث للعلوم أن يتخطى ما سبق من تحليل . بل اننا نجد على العكس من ذلك أن التمييز بين الوجه المادى والوجهالمثالى للواقع أمر ضرورى فى التكوين الفلسفى لكل عالم • فالعالم يجب أن يميز بين المادة وبين الفكرة التى يصوغها لنفسه عن المادة ، شأنه شأن المكافح الذى يجب أن يعرف كيف يميز بين رغباته وبين مايكون ممكنا فى الواقع •

الا أن الفلاسفة أنفسهم لم يلاحظوا بوضوح لأول وهلة ، أن هذين المبدأين الأساسيين هما أعم معنيين فى الفلسفة . ولم يع الفلاسفة هذا الأمر الا شيئا فشيئا وخلال تطور المعارف البشرية • وانه لفضل من أفضال الفيلسوف الفرنسى العظيم ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠)أن يتم فصلهذين المعنيين الفلسفيين (المادة والروح) بشكل محدد • ورغمذلك، فهناك حتىفى أيامنا هذه أكثر من فيلسوف من المدرسة البرجوازية لا يصل الى ادراك تميزهما الأساسي بكل خطورته وبساطته ، ومن ثم لايدرك النتائج المترتبة عليه ، وبذلك يكون متخلفا عنالمكافح العمالى الذي تصنعه المدرسة الماركسية •

ويلاحظ أن مواجهة المسألة الأساسية فى الفلسفة تصبح أمرا حتميا .اذا أدركنا بشكل محدد أن العالم فى مجموعه يمكن تفسيره فى نهاية الأمر بمبدأين اثنين واثنين فقط . ومن هذا

يمكن اذن أن يقال ان غالبية « فلاسفة » المدرسة البرجوازية لم يصلوا الى مواجهة المسألة الأساسية للفلسفة بطريقة واضحة . فهم يرفضون حتى أن يضعوها فى اعتبارهم ، بل ويحظرون على الآخرين أن يوجهوا اليهم هذا السؤال بشكل واضح .

ورغم ذلك ، فيجب أن نقرر أن كل تاريخ الفلسفة ليس سوى جدال طويل حول هذه المسألة الأساسية . وهذا الجدال قد تتنوع أشكال صياغته ، الا أنه يعود دائما الى الشكل التالى :

اذا كان هناك حقا فى نهاية الأمر مبدآن اثنان واثنان فقط لتفسير العالم ،فأى المبدأين يفسر الآخر ؟ وأيهما الأساسى أكثر من الآخر ؟ وأيهما الأول وأيهما التابع ؟ وأيهما الأبدى واللانهائى ، أى الذى يحدث الآخر ؟

هكذا يوضع السؤال الأساسى فى الفلسفة . ومثل هذا السؤال يستحيل أن يقبل بطريقة أو بأخرى سوى اجابتين اثنتين:

اما أن المادة (الوجود أو الطبيعة) هى الأبدية واللانهائية والأولى ، والروح (الفكر أو الشعور) هى المتفرعة عنها .

أو أن الروح (الفكر أو الشعور) هى الأبدية واللانهائية والأولى ، والمادة (الوجود أو الطبيعة) هى المتفرعة عنها .

والاجابة الأولى هى التى تؤلف أساس المادية الفلسفية .

أما الاجابة الثانية ، فتوجد بصورة أو بأخرى فى كل النظريات القائمة على المثالية الفلسفية .

وهذان الموقفان فى الفلسفة يتعارضان تعارضا مطلقا . وهما وحدهما الموقفان المتسقان . (٥)

٤ ـ معنيان لكلمة « مثالية »

قبل أن نتوغل فى البحث ، يجب علينا أن نحذر الشرك الذى ينصبه لنا أعداء المادية ، الذين يستبدلون بطريقة واعية المعنى الفلسفى لكلمة « مثالية » بالمعنى « الخلقى » .

فالمثال بالمعنى الخلقى هو الغرض السامى الرفيع الكريم ، فى مقابل الأغراض الأنانية الضيقة والدناءات وما الى ذلك . فكلمة « مثالى » تستعمل خطأ فى بعض الأحيان لتدل على الانسان الذى يهب نفسه لقضية ما ، أى ذلك الذى يضحى بنفسه من أجل فكرة يمكن أو لا يمكن تحقيقها . ومن هنا يريد أعداء المادية أن يغرروا بالبسطاء من الناس ، فيوهموهم بأنهم ، على أساس تفسيرهم للعالم بوجود الروح (الفكرة) قبل المادة ، هم وحدهم القادرون فى التطبيق على أن يهبوا أنفسهم من أجل الفكرة ، وهم وحدهم القادرون على أن يتخذوا مثالا ! وهذا مثل جميل من أمثلة السفسطة !

ولكن الحقيقة غير ذلك . ففضلا عن أن المثالية الفلسفية أبعد من أن تكون وحدها القادرة على الهام المستشهدين من أجل مبادئهم ، نجد أنها تستخدم فى العادة لتغطية أشد الأعمال اجراما . ومن هذا أن المارشال الخائن « بيتان » كان يزعم أن انتصار البروليتاريا الثورية انتصار « لروح المتعة » على « روح التضحية » . وهذا

هو التشهير الذى تردد أيضا على أفواه سفاحى أورادور النازيين ، عندما كانوا يدعون أنهم يحاربون « البربرية البلشفية » من أجل المثل العليا !

أما الماديون ، فهم كما قلنا لاينكرون قط وجود الأفكار • وسوف نرى فيما بعد كيف يعترفون لها بدور حاسم • وفى التطبيق ، نجد من الواضح أن هناك مثلا أعلى للطبقة العاملة . بل ان البروليتاريين الثوريين يتخذون أجمل مثل أعلى يمكن أن يتخذه الناس ، ألا وهو الكفاح من أجل تحرر وازدهار كل الناس • وهذا المثل الأعلى الذى يعتبر أسمى المثل العليا وأصعبها تحقيقا ، هو كذلك مجرد تماما من الاثرة ، لأنه لايقوم على أمل فى « الخلاص » الشخصى فى عالم آخر •

وليس معنى ذلك قط أن هؤلاء الثوريين « مثاليون »أو « مسيحيون يتجاهلون أنفسهم » ، كما يقول هؤلاء الذين يريدون لهم بشدة أن يكونوا مثاليين ، حتى لا يمتد أفقهم الى ما وراء الواقع الرأسمالى المقيت • كذلك لايعنى هذا أن الأمر حلم يتحدثون عنه دائما دون أن يفعلوا شيئا قط من أجل تحقيقه • ثم انه أيضا لايعنى أبدا أن المسألة مسألة تعلل يبررون به نشاطهم ، كما يتعلل ترومان وأيزنهاور بالله وبالمدنية المسيحية لتبرير مذابح الاستعمار فى كوريا • فالثوريون لهم مثل أعلى يريدون تحقيقه ، ويريدون تحقيقه على أساس مفهوم مادى للعالم ، يحميه من الطوباوية بقدر ما يحميه من النفاق •

ولقد كشف انجلز عورة البرجوازية بشكل حاسم ، وأظهر أن كلماتها الكبيرة عن المثل الأعلى ليست سوى ورقة التوت

التى تحاول أن تستر بها ما تفرضه على الكادحين من استغلال ، فقال : .

« ... المتزمت الأعمى يعنى بالمثاليـة الايمان بالفضيـلة وبالانسانية ، وبصفة عامة الايمان بعالم أحسن يختـال بذكره أمام الآخرين ، ولكنه فى نفسـه لا يعتقد فيـه الا فى فترات الضيق أو التأزم التى تمر به حتما اثر مايرتكبه عادة من افراط فى «الماديات» ، ثم حين ينطلق مرددا بين الناس كلمته المأثورة : ما هو الانسان ؟ انه نصف حيوان ونصفه ملاك ! »

٥ ـ المادية والمثالية يتعارضان فى التطبيق تعارضهما فى النظرية

الآن نستطيع أن نعود الى الاجابتين السابقتين عن السؤال الأساسى للفلسفة .

فالواضح أن كل اجابة منهما تستبعد الأخرى بشكل مطلق. ومن ثم يجب أن تكون احداهما فقط هى الصحيحة . فلماذا لم يصل الناس من أول وهلة الى معرفة الجواب الصحيح ؟ هذا ما سوف نعرفه فيما بعد ، عندما نتحدث عن مصادر المثالية .

وحسبنا أن ندرك هنا أنه مادامت المثـالية والمادية يتنافيان بشكل مطلق ، ومادامت احدى الاجابتين فقط هى الصحيحة حتما ، فالمثالية والمادية يؤلفان تناقضا . ومعنى ذلك أنهما وحدة

واحدة ، وأنهما يرتبطان ببعضهما ارتباط ضدين لاينفصلان : فكل تقدم لاحداهما تأخر للأخرى . وهكذا يكون كل تقدم للمادية ضربة موجهة للمثالية ، وعلى عكس ذلك يكون كل اهمال في المادية تقديما للمثالية . فوحدة الضدين هذه تعنى أن الصراع بين المثالية والمادية حتمى ، وأنه لايمكن أن يوجد تركيب منهما ، أى لايمكن أن يوجد أى توفيق بين المثالية والمادية . (١)

وهذا أمر هام ، لأن بعض الفلاسفة المثاليين يعملون على تزييف الماركسية ، بأن يزعموا أن المادية الجدلية « تركيب » من المادية والمثالية ، أو محاولة لتخطى التعارض بينهما . والحقيقة أن مثل هذا « التركيب » لايكون الا قناعا تختفى وراءه سلعة مثالية .

صحيح أن ماركس كتب يقول ان المادية الجدلية أهالت التراب على التعارض القديم بين المادية والمثالية . ولكنه كان يعنى بذلك أن المادية الجدلية جعلت من الممكن بعد آلاف السنين انهاء النقاش الفلسفى لصالح المادية ، وهذا بالذات لأن الماركسية هى المادية المكتملة التطور ، ولأنها تلحق بالمثالية هزيمة ساحقة .

فالتناقض لايمكن اذن أن يحل الا بالصراع ضد المثالية ،

---

(١) انظر الجزء الأول من «المبادىء الاساسية للفلسفة» ، الدرس الخامس ، ٣ ، ٤ والدرس السابع ، والخلاصة .

لا « بالتوفيق » ولا « بالتركيب » . وهذا ما رأيناه فى دراستنا للجـدل . (١)

ثم ان هذا الصراع النظرى ذو أهمية بالغة «فى التطبيق» . فالواقع أن المفهومين المتعـارضين للعالم يفرضان فى التطبيـق موقفين متعارضين .

فعندما يظهر مثلا نذير بوقوع صـاعقة ، يعمـل الناس على تجنبها بطريقتين : اما باستخدام جهـاز مانعة الصواعق ، أو باشعال شمعة والتضرع الى السماء . ويعتمد الأسلوب الأول على فـكرة أن الصـاعقة ظاهرة مادية لها علل مادية محددة ، ويمكن تجنب آثارها بالوسائل التى تزودنا بها المعرفة العلمية والفنية . أما الأسلوب الثانى فيقوم على فكرة أن الصاعقة هى أولا وقبل كل شيء اشارة الى الغضب الالهى والقدرة الالهية، ولهـا علة خارقة للطبيعة ، ومن ثم يجب أن نستعمل معهـا الضراعة ، بوسائل سحرية وخارقة كالشمعة والصلاة ، أى بفعل روح الانسان على روح الله . ومعنى ذلك اذن أن طريقة تصور علل الظواهر تؤدى حتما الى وسـائل عملية مختلفة ــ هى فى الحالة الأولى مادية وفى الحالة الثانية مثالية ــ ومن ثم تؤدى الى نتائج عملية مختلفة !

والتعارض النظرى له كذلك نتائج عملية أخرى : فليس من العسير أن نرى أنه كلما اتسع استخدام مانعة الصواعق كلمـا قل اشعال الشمع وكلما ازداد امتناع الناس عن الضراعة . ومن

(١) الجزء الأول من « المبادىء الأساسية للفلسفة » .

هنا تنظر الكنيسة نظرة سيئة الى تقدم العلم وتخلف الايمان الأعمى ، لأنها ترى أن هذا التطور ينتقص من نفوذها .

واذا انتقلنا الى ظواهر الحياة الاجتماعية ، وجدنا أن التعارض بين المثالية والمادية لايقل عن ذلك أهمية . وقد رسم لنا الأديب الفرنسي رابيليه فى رواية «حرب بيكروشول» لوحة فنية رائعة تصف موقفين متعارضين من هذا النوع : اذ عندما هاجم المعتدى «بيكروشول» الدير الذى عزم على نهبه ، أغلق أغلبية الرهبان باب المعبد على أنفسهم وفوضوا أمرهم الى الله، الا واحد فقط هو الأخ « چان ديزا تنومير » ، الذى تسلح بهراوة وأخذ يسدد بها ضربات ناجحة سحقت جنود « بيكروشول » المرتزقة ، بعد أن عاثوا فسادا فى بساتين الكروم . وبذلك أثبت چان أن دفع العدوان أجدى من الصلاة .

ولقد رأينا المسيحيين خلال المقاومة الوطنية ضد المعتدى النازى يشاركون فى مختلف أشكال الكفاح ضد المحتل . وان هذه لواقعة عامة من وقائع أخرى تثبت أن أصحاب الفلسفات المثالية غالبا ما يسلكون فى الحياة العادية كماديين !

فى هذا تتضح الأخطار العملية للمثالية . فالواقع أن مثالية رهبان رابيليه كانت ستؤدى فى التطبيق الى افساح المجال تماما للمعتدى . وهذا مافعلته مثالية المسالمين الذين رفضوا العمل الحاسم ضد الحرب ، وآثروا أن يصدقوا « حسن نوايا» الاستعماريين بصفة عامة وهتلر بصفة خاصة . فقد أدت هذه المثالية خدمات عملية للنازى ، واستند اليها عام ١٩٣٩ الشعار

المهين الذى كان يقول : « العبودية خير من الموت » •

ونحن نرى اليوم كذلك مفهوما مثاليا يقول ان الحرب قدر مقضى به ، ومن ثم يجب أن نخضع لقضائها ، لأنها عقاب من السماء على أخطاء البشرية • ولا زال هذا المفهوم يبعد العديد من المسيحيين عن الكفاح من أجل السلام •

فالمثالية تؤدى بهذه الطريقة الى مواقف عملية تخدم مجرمى الحرب والطبقات المستغلة بصفة عامة (اذ أن الحكمة المثالية القديمة تقول : « يجب ألا تقاوم الشرير ») • ومن هنـا نفهم بدون مشقة كيف اتخذت الطبقات المستغلة على مدى التاريخ كافة الوسـائل النافعة لتشـجيع وتطوير وتدعيم المثـالية بين الجماهير . ونحن لا ننسى يوم ذهب حفار القبور بول رينو (٦) الى كنيسة نوتردام فى مايو عام ١٩٤٠ وسـط ضـجة كبيرة يستنزل على فرنسا حماية الله ! فالطبقات المستغلة فى تصميمها على أن تحتفظ بأى ثمن بالأوضاع التى تفيـدها ، تجـد من مصلحتها أن تعلم الناس أن هذه الأوضاع تحقق «ارادة عليا» ، أو أنها تمثل « العقل الكلى » ، أو ما الى ذلك ، أى تجد من مصلحتها أن تنشر المثالية التى تبث نزعة التواكل فى نفـوس الجماهير •

فمن المهم جدا اذن من الناحية العملية أن نعرف على الدوام ما هى المفهومات المثالية ، وبالتالى أن ندرس المادية الفلسفية .

٦ ـ المادية الفلسفية الماركسية تتميز بثلاث سمات أساسية

المادية الفلسفية كمفهوم للعالم ، قد سبقت الماركسية تاريخيا. والواقع أن المادية كما سنرى تتكون من النظر الى العالم كما هو ، بدون اضافة شيء غريب اليه . وهذه الطريقة فى النظر الى العالم قد فرضتها الطبيعة على الانسان منذ زمن طويل ، على أساس أن اشباع حاجاته يستلزم سيطرته على الطبيعة بوسائل فنية فعالة . وهكذا كانت الطبقات الصاعدة التقدمية على مدى التاريخ تشجع الفكر المادى . وسبب ذلك أن مستقبلها يكون مرتبطا بتقدم الأساليب الفنية والعلم من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنها فى كفاحها ضد النظام القديم للأشياء تحارب الفكرة التى تقول انه يحقق الارادة الالهية . ومن ثم ترى هذه الطبقات أنه مادام الانسان يغير بعمله المادة ، أى الطبيعة ، فانه قادر أيضا على أن يصلح بفعله مصيره هو .

ونحن لانستطيع أن ندرس هنا تاريخ المادية . ولكن يكفى أن نشير الى أن العصور الكبيرة التى مرت بها الفلسفة المادية هى أساسا عصر اليونان القديمة ، وفيه طبقة التجار التى كانت اذذاك أكثر الطبقات تطورا ، ثم القرن الثامن عشر فى فرنسا ، وفيه البرجوازية الثورية الفرنسية ، وأخيرا العصر الحاضر الذى يبدأ

من منتصف القرن الثامن عشر ، وفيه قوة البروليتاريا الثورية ، خصوصا فى البلاد التى حصلت فيها هذه الطبقة على السلطة، أى فى الاتحاد السوفييتى والديمقراطيات الشعبية .

وسوف ندرس بالتفصيل المادية الفلسفية الماركسية التى تمثل مادية المرحلة الأخيرة ، أى المادية فى أتم صورها . وفى الفصول الأخرى (١) ، سنرى كيف استطاعت الفلسفة المادية أن تتخذ صورتها التامة فى المؤلفات العبقرية التى كتبها مؤسساها ماركس وانجلز ، وبالذات حوالى منتصف القرن التاسع عشر .

وسوف نرى كذلك أن المادية السابقة على الماركسية لم تكن جدلية بشكل منسق ومرتب ، وبالتالى لم تكن تستطيع أن تعكس الواقع فى كل جزئياته ، ومن ثم أيضا لم تكن تستطيع أن تقيم مفهوما مكتملا للعالم .

فمن المهم اذن أن نميز تمييزا أساسيا بين المادية الفلسفية الماركسية وكل المذاهب المادية السابقة . ولهذا سندرس فى الفصول التالية السمات الأساسية للمادية الماركسية .

وهذه السمات ثلاث، وتتعارض تماما مع الأشكال الرئيسية للمثالية الفلسفية . والسمات الثلاث هى :

---

(١) انظر الفصل الثانى (النقطة الثالثة) ، والفصل الثالث من الباب الثانى .

١ ــ العالم بطبيعته مادى .
٢ ــ المادة هى الوجود الأول ، والشعور وجود ثان تابع .
٣ ــ العالم وقوانينه يمكن معرفتها تماما .

وسوف ندرس كل نقطة من هذه النقاط . وفى هذه الدراسة ، سنربط دراسة المادية بالكفاح ضد المثالية ، وسنحدد النتائج المترتبة على المادية فى مجال الحياة الاجتماعية .

الفصل الثانى

السمة الأولى للمادية الماركسية
العالم مادى

١ ـ الاتجاه المثالى

تقوم أقدم أشكال المثالية على تفسير ظواهر الطبيعة بفعل قوى غير مادية ، بمعنى أنها تفترض أن هناك « أرواحا » هى التى تشيع الحياة فى الطبيعة .

ويبدو أنه ليس من الصعب جدا أن نحارب هذا الشكل من المثالية . فالواقع أن تقدم الانتاج والوسائل الفنية والعلم قد رسم الطريق لاستبعاد مثل هذه التفسيرات تدريجيا . فالشعوب المتقدمة جدا قد جردت الطبيعة منذ زمن طويل من شياطين النار والماء والهواء ، ومن القوى الخفية التى لا يملك زمامها سوى السحر وحده ، كما أن قصص الجان والعفاريت قد أصبحت اليوم حكايات للأطفال الصغار .

معنى ذلك اذن أن الناس تخلت عن الفيتشية (٧) ، أى تخلت بصفة عامةعن المفهوم الذى يدعى أن هناك «أرواحا» أو «نفوسا» تحل فى كل مكان ، والذى يسمى لهذا السبب مذهب الطبيعة الحية .

وفى المجال الأعلى من ذلك (مجال العلم) لم نعد نقول ان « الطبيعة ترهب الفراغ » عند ما نريد مثلا أن نفسر مستوى ارتفاع الزئبق فى أنبوبة البارومتر ، ولم نعد نقول ان الأفيون ينوم لأن له « قوة منومة » ! ثم ان الأطفال وحدهم هم الذين يغضبون من الأشياء التى تجرحهم كما لو كانت هذه الاشياء ذات ارادة شريرة ، شأنهم شأن هؤلاء الذين يثورون ضد « الحظ السيء » أو يستخدمون « بروكة » لجلب الحظ !

وقد استبعد نيوتن من الفضاءات السماوية ذلك الملاك الحارس الذى كان الناس يعتقدون أن العناية الالهية تهب كل فلك من الأفلاك واحدا منه ليوجهها فى مدارها . وألغى الفلاسفة الديكارتيون من ناحيتهم فكرة أن للحيوانات « نفسا » . كما أن ديدرو سخر من هذا الموضوع فتساءل قائلا : اذا استمرت حركات عضلية فى عضو مقطوع من حيوان ، فهل يجب لكى نفسر هذه الحركة أن نتصور وجود « قطعة نفس » بقيت فى هذا الجزء من الجسم المبتور ؟

الا انه اذا كانت الفكرة التى تتصور أن كل ظاهرة طبيعية تتطلب فعل روح جزئية قد أصبحت اليوم فكرة غريبة علينا ، فان الفكرة التى ترى العالم فى مجموعه محتاجا لكى يوجد الى روح عليا كلية ، مازالت فكرة باقية .

وقد تقلب هذا المفهوم الفلسفي على أكثر من صورة . فالواقع المادي لم يكن لدى أفلاطون الا انعكاسا لعالم مثالي هو عالم المثل الذى كان يسوده العقل المحض ، والذى لم يكن يحتاج فى وجوده الى عالم مادي . أما لدى الرواقية فى اليونان القديمة فلم يكن العالم الا كائنا حيا هائلا ، تشيع فيه الحياة نار الهية باطنة . وعند هيجل لم تكن الطبيعة وتطور المجتمعات البشرية الا الغلاف الخارجي أو الوجه المرئي أو التجسد ، للفكر المطلق الكلي الذى يوجد بذاته .

من هنا نرى اذن أن العالم فى كل هذه الفلسفات ليس ماديا الا فى الظاهر ، أما فى التحليل الأخير فحقيقته العميقة شيء آخر ، اذ يجب أن نبحث عن سببه العميق فى وجود الروح . وهذه الروح مستقلة عن وعينا البشرى الجزئى : لذلك توضع هذه الفلسفات فى مجموعة المثالية الموضوعية . (٨)

ويمكن أن نلاحظ أيضا أنه فيما يخص الانسان ، تؤدى المثالية الموضوعية أغلب الأحيان الى التمييز بين نفسه وجسمه ، وتربط النفس بالعالم الروحى والجسم بالعالم المادى . ومثل هذا المفهوم الذى يرى أن الانسان يقوم على أساسين اثنين يسمى «الاثنينية» . والاثنينية فى علوم الانسان تستوحى المثالية وتحذو حذوها :

١ – لأنها تفسر الكائن الطبيعى بوجود « نفس » باطنة فى هذا الكائن ، وبذلك تتبع مذهب الطبيعة الحية .

٢ – لأنها بالضرورة تربط هذه « النفس » ربطا حاسما

بوجود روح عليا . اذ الواقع أنها لو ربطتها بأساس مادى ، لما أصبحت اثنينية بل لأصبحت واحدية .

والالحاد الساذج يتخلص تماما من الاثنينية . ولكنه لا يقوم على مفهوم مادى علمى ، اذ أنه يتكلم عن « الروح البشرية » وعن « الوعى البشرى » ، كما لو كانت هـذه الروح أو هذا الوعى مبدأ متميزا مستقلا . وبذلك يظل تابعا لأشد المثاليات سذاجة . وهذا هو على الخصوص وضع فلاسفتنا الجامعيين ، سـواء كانوا علمانيين (أى منكرين للكنيسـة) أو روحيين . والكنيسة لا تخاف كثـيرا من هؤلاء الملاحدة المثاليين ، مثل مين دى بيران أيام نابليون ، وبرجسون وفرويد وكامو فى عصر الامبريالية . فهى تعرف وتقول بحق انهم ليسوا سوى حمـلان ضالة . والواقع أننا فى الغالب جدا نرى فعلا هذه الحملان تعود الى حظيرتها بعد أن تؤدى مهمتها !

واذا كانت المثالية الموضوعية فى عصور معينة قد استـطاعت أن تخلق فلسفات عظيمة تضم كل منها نواة عقلية ، الا أنه فى عصرنا هذا ــ عصر الامبريالية ــ الذى تحتاج فيه البرجوازية المحتضرة الى تحويل الجماهير بكل الوسائل عن التفسير المادى للعـالم ، نجد أن المثاليـة أصـبحت بصراحة لا عقليـة وتجهيلية .

ففرويد مثلا ، يفسر الانسان وظواهر الحياة الاجتماعية بوجود قوة غير مادية فى الانسان ، هى قوة خفية لها « نزعات » غيبية يسـميها « اللاشـعور » . وهذا مكسب كبـير للمضللين الذين يستغلون سهولة اقتنـاع السـذج . فاللاشعور هو فى

الحقيقة آخر شكل لمذهب الطبيعة الحية وللاعتقاد بوجود قوى غير مادية فى العالم . (٩)

كذلك يحطم برجسون من جانبه مادية العالم ببساطة وبشكل تام . فالمادة فى نظره نتاج فعل خلاق ، فهى فى جوهرها حياة . وكل مادة تتاج « طفرة حيوية » هائلة تهز العالم . ولكن ماهى الحياة نفسها عند برجسون ؟ انها شعور ، وفكر ، وروح . وفى هذا يقول : « ان الشعور بصفة عامة يوجد بوجود الحياة الكلية » . (١) فالشعور هو أساس الحياة . وبدلا من أن تكون المادة هى الأساس اللازم لتطور الشعور ، نجد على عكس ذلك تماما أن الشعور هو الذى يفسر تطور المادة بتجسده فيها.

هذا هو الفيلسوف « العبقرى » المعاصر الذى تضعه البرجوازية الرجعية فى صف أعظم الفلاسفة . وهذه هى « الفلسفة » التى يضربون باسمها « المذهب العلمى »، وباسمها يعملون على أن يسلبوا انتاج العقل ما له من نفوذ !

وتتابع المثالية هجومها حتى فى المجال العلمى . وهكذا نرى علماء مثاليين أمريكيين يحاولون أن يثبتوا « علميا » خلق العالم ، وعمر العالم ، والزمن الذى استغرقه هذا الخلق ، ويحاولون أن يعيدوا بناء النظرية القديمة فى « موت العالم » .. وهكذا وهكذا !

ولنحذر كذلك الضجيج المعاد الذى يثار فى أيامنا هذه حول

---

(١) برجسون : « التطور الخالق » ، ص ٨٤ .

« العلوم الغيبية » وحول « الروحانية » التى كان يشجعها برجسون والتى تسندها الفرويدية . فهذا الضجيج يهدف الى تحويل الجهلة والمخدوعين عن التفسير المادى للآفات الاجتماعية التى يعانون منها (١) . وهكذا نستطيع أن نفهم بوضوح ، الدور الذى يلعبه حاليا رأى الماركسية فى مادية العالم .

٢ ـ المفهوم الماركسى

« بعكس المثالية التى تعتبر العالم تجسدا «للفكرة المطلقة» أو «للروح الكلية» أو «للشعور» ، تقوم المادية الفلسفية الماركسية على مبدأ أن العالم بطبيعته مادى ، وأن الظواهر المتكثرة فى الوجود هى وجوه مختلفة للمادة المتحركة ، وأن العلاقات والتكيفات المتبادلة للظواهر ـ على ما أثبتها المنهج الجدلى ـ تؤلف القوانين الضرورية لتطور المادة المتحركة ، وأن العالم يتطور وفق قوانين حركة المادة ولا يحتاج الى أى روح كلية . »(٢)

بهذه الفقرة ، يحدد ستالين المفهوم الماركسى ، ويشير فى كلماته الى فلسفة هيجل .

ويلاحظ أن ستالين يشير الى الهيجلية بالذات، لأنها تمثل آخر

---

(١) انظر انجلز : « علم الطبيعة فى عالم الارواح » ، فى كتاب « جدل الطبيعة » ، ص ٥٣ ـ ٦٣ .

(٢) ستالين : « المادية الجدلية » ، ص ١٠ .

تركيب مثالى عظيم فى تاريخ الفلسفة ، وتمثل جوهر وخلاصة كل السمات التاريخية للمثالية الموضوعية فى أشد صورها التئاما سواء فى ميدان الطبيعة أو فى ميدان المجتمع .

والمفهوم الماركسى يتلخص فى ثلاث نقاط :

(ا) ان الظواهـــر المختلفـــة للوجـــود لا ترجع الى تدخل الأرواح مهما كانت ، ولا الى تدخل « قوى » غير مادية ، بل انها وجوه مختلفة للمادة فى حركتها .

(ب) هناك من ناحية أخرى ضرورة طبيعية ملازمة للمادة هى أساس قوانين الوجود كما يكشفها لنا المنهج الجدلى .

(ج)هناك أخيرا أبدية العالم ، أى أبدية المادة فى حركتها وفى تغيرها الدائم .

وسوف نتناول بالتفصيل كل نقطة من هذه النقاط الثلاث .

٣ ـ المادة والحركة

تعتبر مسألة العلاقة بين المادة والحركة مسألة حاسمة بالنسبة لتحديد معالم المثالية والمادية .

فالمثالية ترى أن الحركة والديناميكية والفاعلية والقـــدرة الخالقة ، تخص الروح وحدها . وتتصور المثالية المادة فى صورة كتلة ساكنة سلبية ليس لها شكل خاص بها . ولكى تتخذ المادة صـــورة ، لابد أن تطبعها الروح بطابع من لدنها ، ولابد من أن تشيع فيها الحركة. وهكذا ترى المثالية أن المادة لا تستطيع بذاتها

أن « تحدث » شيئا . وعندما تكون فى حركة ، فانما تأتيهـا الحركة من خارج ذاتها : أي من الآلهة أو من الروح .

ولكن فصل المادة عن الحركة هو احدى السـمات المميزة للفكر الميتافيزيقى . وقد لاحظنا من قبـل أن هذا المنهج لا بد منه فى الأبحاث الأولى للعلوم، لأن دراسة المادة الساكنة (سكونا لايمكن الا أن يكون ظاهريا) تكون اذ ذاك أسهل من دراسة المادة فى حالة التغير .

وحتى عندما بدأت العلوم الحديثة تنطلق ، استمرت الفكرة التى تقول ان الحركة قد وهبت للمادة فى بادىء الزمان . وبهذه الطريقة تصور نيوتن فى تطويره لعلم حركات الأجرام السماوية ، أن الوجود يشبه سـاعة هائلة نظمت أجزاؤها الآلية بشـكل كامل . ثم لاءم نيوتن هذه اللوحة العلمية للعـالم مع فكرة أنه كان لابد لها من دفعة مبدئية ، أى كان لابد من «ضغطة اصبع» أولى تهز هذه الآلة الهائلة .

ويلاحظ أن فصل المادة عن الحركة فى العصر الحديث يرجع الى أن عـلم الميكانيكا كان أول عـلم يصـل الى درجة ما من التمام ، بوصـفه علم الانتقـال المكانى أو التغيرات المكانيـة للأجسام الصلبة السماوية والأرضية ، أى بوصفه علم الثقل . فنحن نستطيع أن نفترض فى الميكانيكا على سبيل التقريب أن كمية مادة الجسم الذى ينتقل تكون مستقلة عن السرعة التى ينتقل بها ، وهذا على أساس أن الميكانيكا علم خاص بالثقل . ويبدو أن هذا كان يعزز الفكرة الميتافيزيقية التى ترى أن المادة والحركة أو الكتلة والطاقة حقيقتان متميزتان فى ذاتيهما .

أما المادية ، فترى على عكس ذلك أن الحركة هى الخاصة الاساسية للمادة، بمعنى أن المادةحركة. ومن قبل كان ديمقريطس يتصور الذرات التى هى عناصر العالم ، متحركة حركة أبدية . ثم أصبح لهذه الأفكار تأثير فىعصر النهضة . وقد كانجاليليو فى أوائل القرن السابع عشر هو الذى درس سقوط الأجسام دراسة علمية . وساعده تطور علم الرياضة على تحديد حركة الجسم الذى يسقط تحديدا مناسبا . وكان تقدم العلوم يدفع المادية الى الأمام ، حتى وصل الفلاسفة ومنهم ديكارت الى الفكرة التى تقول انه يمكن تفسير الطبيعة بفعل قوانين الحركة الميكانيكية للأجسام . وهنا حلت الحتمية الدقيقة الميكانيكية ، ونظام التروس الذى لايرحم ، محل الفعل الخفى للعقل الكلى .

ومعنى ذلك اذن أن المادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر تعتبر تقدما هائلا بالنسبة لمختلف أشكال المثالية الدينية . الا أن هذه المادية كانت ناقصة لنفس السبب ، أى لارتباطها بخصائص تقدم العلوم اذ ذاك : فقد رأينا أن الميكانيكا فى حدود تطورها كانت تؤدى الى افتراض أن الحركة الميكانيكية تضاف الى المادة فى « بادىء الزمان » ، وهو الافتراض الذى يفتح الباب أمام هجوم جديد للمثالية . ورغم ذلك فقد ظهر مفكرون كبار من أمثال ديدرو ، دافعوا ببراعة عن الرأى القائل بأن الحركة خاصة ملازمة للمادة .

ولكن يجب أن نضع فى اعتبارنا هنا واقعا تاريخيا معينا . فعلماء ذلك القرن لم يكونوا يعرفون علميا سوى قوانين التغير المكانى البسيط ، أى الانتقال ، ولم تكن الصور الأخرى لحركة

المادة قد كشفت عن قوانينها بعد ، اذ لم تكن الكيمياء والديناميكا الحرارية وعلم الحياة (البيولوجيا) قد تكونت كعلوم . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن العلماء كانوا يفسرون كافة الظواهر التى تدرسها هذه العلوم بارجاعها الى علل ميكانيكية .وهكذا ضلوا السبيل بتجاهلهم الطابع النوعى لمختلف صور حركة المادة . ومن هنا اتخذت مادية هذا العصر اسم المادية الميكانيكية . وقد كان هذا الجانب على ما أشار انجلز جانبا أساسيا من جوانب القصور فى مادية ما قبل ماركس . وهـذا هو السبب فى أنها لم تنجح فى تفسير الأشكال الراقية لحركة المادة ـ أى الحياة والفكر ـ تفسيرا مقنعا. فالديكارتيون مثلا كانوا يرون أنه ليس للحيوانات نفوس ، ومن ثم كانوا يستنتجون أنها شبيهة بالآلات . بل بدأ بعضهم فعلا يصنعون أجهزة أوتوماتيكيـة ، أى أجهزة تؤدى حركات ذاتية ، وذلك لتقليد الحيوانات. الا أنه من البديهى تماما أن الكائن العضوى الحى ـ بغض النظر عن حركاته التنقلية ـ لا يمكن تشبيهه بالآلة مهما بلغت من درجات الكمـال . فالمادية الميكانيكية تشوه الواقع ، ثم انها تجعل من الانسان نتاجا سلبيا للطبيعة ، لا يباشر على المـادة فعلا ، وليست له قدرة ، وبالتالى ليست له حرية .

وتشير المثالية باستمرار الى هذه المادية الميكانيكية فى هجومها على المادية ، لأنها تجد فى المادية الميكانيكية فرصتها الذهبية ، وتستطيع بلا أدنى صعوبة أن تبرز وجوه الواقع التى تشـوهها هذه المادية . ومن هنا تكثر الطعنات الموجهة الى المادية بدعوى

أنها « تشبه الانسان بالآلة ، وتجعل منه جهازا ذا حركات أوتوماتيكية .. » الخ .

وعندما كانت الدراسة تتناول أشكالا أخرى من الحركة المادية ، كالحرارة والكهرباء والمغناطيسية والعمليات الكيمائية والحياة ، كانت المثالية تعتبر هذا مجال انتصارها . وكانت تعتمد دائما على فكرة أن المادة ساكنة ، ومن ثم تعلن أن شيئا ما هو الذى وهب المادة « الأنواع المختلفة من القوة » : القوة الكهربائية والقوة المغناطيسية والقوة الكيميائية ومبدأ الحياة وأخيرا المبدأ الروحى ، وهى القوة التى لا تستطيع المادة أن تخلقها ! وقد كان هذا وغير هذا رأى عالم الطبيعة الانجليزى چول (١٨١٨ — ١٨٨٩) .

أما المادية الجدلية فهى وحدها التى استطاعت أن تفسر هذه الظواهر تفسيرا مقنعا ، بأن بينت وجود أشكال نوعية لحركة المادة ، كما بينت أن قدرة المادة لا تقتصر على الحركة الميكانيكية فقط ، بل انها تمتد الى مختلف التغيرات والتحويلات الكيفية ، ثم انها تملك ديناميكية (حركة ذاتية) باطنة، وفاعلية وقدرة خالقة تكمن فى وجود التناقضات داخل الأشياء نفسها .

وقد حددنا فى دراستنا للجدل هذا المفهوم الجدلى لحركة المادة (١) وهو المفهوم الذى أكدت العلوم كل نقاطه . وعلى أساس هذا المفهوم قرر ستالين فى النص المذكور أن مادية مختلف ظواهر الوجود لا يمكن فهمها الا اذا استقرت قوانينها بطريقة جدلية ، والا فان كل علم سيدع الباب مفتوحا أمام التفسير المثالى .

(١) فى الجزء الاول من « المبادىء الاساسية للفلسفة » .

وقد كانت هناك ثلاثة اكتشافات علمية عظيمة هى التى وجهت العقل البشرى الى جدل الطبيعة ، وأتاحت له أن يتخطى المادية الميكانيكية تخطيا حاسما وأن يقيم المادية الجدلية .

هذه الاكتشافات هى :

(أ) اكتشاف تحول الطاقة ، وهو الذى أنتج فكرة التغير الكيفى وأظهر أن مختلف « القوى » الفيزيائية عبارة عن وجوه لحركة المادة .

(ب) اكتشاف الخلية الحية ، وهو الذى كشف سر تركيب الكائنات العضوية الحية ، وسمح بادراك كيفية انتقال العالم الكيميائى الى العالم البيولوجى ، وفسر تطور الكائنات الحية .

(ج) اكتشاف تطور الأنواع الحية ، وهو الذى هدم الحاجز الميتافيزيقى بين مختلف الأنواع من ناحية ، وبين الانسان وبقية الطبيعة من ناحية أخرى . وكذلك اكتشاف نظرية التطور بصفة عامة ، وهى التى أظهرت الوجود كله بما فيه من مجتمعات بشرية كعمليات للتاريخ الطبيعى ، أى كمادة مرتبطة بالتطور التاريخى .

ورغم ذلك ، فقد كان من اللازم لكى يصل الفكر الى ادراك المدلول الكامل لهذه الاكتشافات أن تتوفر له بذرة المنهج الجدلى ، ثم كان من اللازم أن توجد عبقرية ماركس وانجلز .

من هذا كله ، أصبحت المادية الجدلية هى وحدهاالقادرة حقا على تفسير الظواهر الراقية مثل الحياة والفكر تفسيرا طبيعيا ، دون أن تحذف شيئا من طابعها الخاص ودون أن تلجأ الى أى «مبدأ حيوى» أو «روحى» . أما ما هى تفاصيل هذا التفسير ،

فبديهى أن العلم هو المسئول عن الاجابة عن هـذا السؤال ـ العلم الذى تنير مبادىء المادية الجدلية طريقه الى الأمام .. علم ميتشـورين وليسينـكو وعلم أولجاليبيشينسـكايا وعلم سيتشينوف وبافلوف وتلامذتهم .

فالمادية الجدلية تعمل على خلق الثقة فى مقدرة العلم • وعلى عكس ذلك تندفع المثـالية فى تقرير عجز العلم ، كمـا لو كان لزاما عليه أن يقدم الاجابات جاهزة تماما • ولا يطالب باجابة مباشرة عن المسائل المثارة أمام العلم الا البلهاء وحدهم . فليس لدى العلم اجابات تصلح لكل سؤال • أما المثالية فلديها اجابة من هذا النوع ، هى « الروح » .. الا أنها ليست سوى كلمـة تخفى وراءها جهـلا •• اذ أنه لما كانت « الـروح » من حيث تعريفها لاتتصف بأى خاصة من الخواص المعروفة للمـادة فى وقت ما ، كانت تسمح « بتفسـير » كل ما ينشـأ عن خواص المادة التى لم تعرف بعد ! فموقف المثالى باختصار هو : الشيء الذى أجهله أنسبه الى الروح !

والعجيب أن المثالى « يعيب » على المادية أنها لم تتطور منذ ألفى سنة ، وانها تعيد نفسها على الدوام . غير أن هذا المثـالى هو الذى يتصور المادة فى صورة ميتة جامدة . فكلمـا اكتشف العلم وجهاجديدا للحركة الشاملة للمادة،واختصر جزءا من الفراغ المتروك «للتفسير» المثالى، سارع المثالى يعلن اختفاء المادة (٣٥) ولا يكون ثمة شيء قد اختفى سوى الفكرة الضيقة الميكانيكية الميتافيزيقية التى يتصورها المثالى عن المـادة . فيجب ألا نخلط بين المعانى العلمية المتتابعة للمادة ـ وهى المعـانى التى تزداد

ثراء وعمقا ، والتي تعبر بالتقريب عن حالة معارفنا في لحظة معينة — وبين المعنى الفلسفي للمادة ، وهو المعنى الذي يؤدي بحق دور الأساس النظري المتين للأبحاث العلمية .

قال انجلز :

« ان على المادية الجدلية أن تتخذ وجها جديدا مع كل اكتشاف عظيم جديد . »

والخلاصة اذن أن « الحركة حال لوجود المادة » ، كما قال انجلز ، وأن مصدر التحرك الحيوي والحركة الذاتية يوجد في المادة نفسها .

قال انجلز :

« ان المفهوم المادي للطبيعة لايعني أكثر من الفهم البسيط للطبيعة كما تعرض نفسها وبدون اضافة غريبة . » (١)

٤ ـ الضرورة الطبيعية

من المناسب أن نضيف هنا تحديدات جديدة ، اذا أردنا أن نفهم فكرة الحركة الذاتية للمادة فهما صحيحا . فالواقع أن هذه الحركة الذاتية تؤدي الى ظهور أشياء طبيعية لها أشكال محددة . وهذا الأمر يتيح للمثالية فرصة هجوم جديد .

فمثلا ، كيف تفسر كون بلورات الثلج (أو أي جسم بلوري) تتخذ على الدوام شكلا هندسيا محددا ؟ وكيف يحدث أن

---

(١) انجلز : « قطعة لم تنشر من كتاب فيورباخ » في « دراسات فلسفية » ص ٦٨ .

بيضة الدجاجة تفرخ كتكوتا وبيضة البطة تفرخ فرخ بط ، مع أن شكل الكتكوت وشكل فرخ البط لا يوجدان أول الأمر فى البيضتين : اذ أن البيضتين لا يختلفان عن بعضهما الا فى المادة لا فى الشكل ؟

ويلاحظ أن هذا السؤال عام ، ويثار فى كل فروع العلوم التى تسمى المورفولوجيا أو علوم الأشكال ، وهى العلوم التى تدرس الأشكال الجغرافية والأشكال البلورية والأشكال النباتية والحيوانية ، وحتى الأشكال النحوية ، وكذلك أشكال السلوك والحركات الحيوانية التى تسمى « الغرائز » .

وللمثالية اجابة عن هذه الأسئلة . فهى ترى أن شكل الشىء الطبيعى « يتحقق » بواسطة المادة ، الا أنه يوجد سابقا على هذا « التحقق » . فالشكل هو الذى يحكم تطور الكائن الطبيعى ، من حيث أنه « المصير » الذى سيؤول اليه . ومعنى ذلك أن الطبيعة تسير وفق « خطة » مرسومة من قبل . كما أن التطور يكون « موجها » منذ البدء ولا تحدده الظروف القائمة لحياة الكائنات العضوية ، بل يحدده « هدف » يجب أن يبلغه . وهكذا تصبح الغريزة تعبيرا ظاهرا عن « نية » عمياء لدى الحيوانات . والخلاصة أن الطبيعة تكشف بطريقة أو بأخرى عن وجود «عقل» فيها ..ولكن أين يمكن أن يوجد « الشكل » أو « الخطة » أو « الهدف » أو «العقل» ، اذا افترضنا أنها موجودة قبل أن يتم تطور المادة ؟ انها بديهيا لا يمكن أن توجد الا فى عقل أعلى يتضمنها . وهذا هو مذهب الغائية . وهو كما نرى نتيجة مترتبة على المثالية التى تعتبر العالم تجسيدا « لفكرة » .

ولقد كانت المادية الميكانيكية عاجزة عن الاجابة عن هـذا السؤال • ولهذا أفسحت المجال للغائية • أما المادية الجدلية فاجابتها عن هذا السؤال مختلفة تماما • فالشكل لديها يتحدد بواسطة المحتوى القائم ، أى بواسطة « العلاقات المتبادلة والتكييف المتبادل بين الظواهر » ، وبواسطة الحالة القائمة للمادة ، وحالة التناقضات التى تتطور فيها مرتبطة ارتباطا لا ينفصم بالظروف التى يفرضها الوسط المحيط . وأقوى دليل على ذلك أننا نستطيع أن نتدخل فى تطور شكل معين • ولقد استطاع علماء الحياة (البيولوجيا) أن يثبتوا تجريبيا ارتباط الشكل بالمحتوى : فاذا نقلنا جزءا من مادة بيضة أثناء نموها ووضعناه فى طرف آخر من أطراف البيضة ، رأينا مثلا أن رجل الطائر تنمو فى مكان لم تكن توجد فيه أرجل ، وبهذا نكون قد خلقنا مسخا مصطنعا .

الا أن مختلف أجزاء مادة البيضة لا تتميز عن بعضها فى لحظة العملية الا فى الخواص الكيميائية ، أى فى طبيعة المواد التى تجتمع فيها . ثم ان هذا المحتوى الكيميائى للبيضة يتغاير بتأثير ظروف خارجية (الحرارة مثلا) وعلى أساس تناقضاته الباطنة . ومعنى ذلك اذن أن الطبيعة البيولوجية الكيميائية لمادة الأنواع المختلفة من البيض ، هى التى تحدد آخر الأمر شكل جسم الحيوان : فتطور المحتوى هو الذى يسبق تطور الشكل . ولا يوجد هناك أى « شكل سابق » مثالى ، ولا أى « شكل فى ذاته » محدد من قبل .. اذ أنه لو كان الأمر كذلك ، لأصبح كل أفراد النوع الواحد

متطابقين تطابقا ذاتيا دقيقا ، ولما كان من الممكن أن نغير من أشكالها ونجعل من بعضها مسوخا مثلا .

فالمادية الجدلية ترى أن الشكل لايمكن أن يوجد بدون المحتوى ، وبالذات بدون محتوى محدد ، كما أن المحتوى بدوره لا يمكن أن يوجد بدون الشكل ، وبالذات بدون شكل محدد .

الا أن قولنا أن المحتوى لا يمكن أن يوجد بدون الشكل لايعنى قط أنه يتحدد به ، بل انه بالأحرى هو الذى يحدده . فالشكل ليس له وجود سابق ثابت ، بل انه يتغير ويكون نتيجة التغيرات التى تلحق بالمحتوى . والمحتوى هو الذى يتغير أولا من واقع تغير ظروف الوسط المحيط : ثم يتغير الشكل بعد ذلك وفقا لتغير المحتوى، أى وفقا لتطور التناقضات الباطنة فى المحتوى ومعنى ذلك أن الشكل لايمكن أن يوجد سابقا على التطور ، لأنه يعكس التطور ويتأخر عنه . فالشكل يأتى بعد المحتوى .

قال ستالين :

« .. خلال مجرى التطور ، يسبق المحتوى الشكل ، ويأتى الشكل بعد المحتوى ... والمحتوى لا يمكن أن يوجد بدون الشكل . الا أن هذا الشكل لايطابق المحتوى أبدا مطابقة كاملة ، لأنه يأتى بعده . ومن هنا « يضطر » المحتوى الجديد الى تجديد الشكل القديم من وقت لآخر ، الأمر الذى يثير نزاعا بينهما . » (١)

---

(١) ستالين : « الفوضوية أم الاشتراكية ؟ » ، فى المؤلفات ، المجلد الأول ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

فكيف يتم ميلاد الشكل الجديد فى كل حالة من الحالات وفى كل مجال من مجالات الطبيعة والمجتمع ، تحت ضغط المحتوى النامى الذى « يبحث عن الشكل الجديد وينزع اليه » ؟ بديهى أنه هنا أيضا يجب أن نتسمع الجواب من العلوم .. العلوم التى تستنير بالمادية الجدلية . ولكن الشيء المؤكد هو أن تأخر الشكل عن المحتوى يؤدى حتما الى تنافرات فى الطبيعة . ومن هنا تكون الطبيعة حافلة بالتناقضات والنقائص ، ولا تكون « منسجمة » قط .

وهكذا تهدم المادية الجدلية صميم النظرية المثالية فى الغائية ، بينما ترفض فى نفس الوقت الحتمية الميكانيكية التى تتصور أن مختلف الظواهر تؤثر بعضها فى بعض على غرار ما يحدث فى جهاز بسيط ، أو فى تروس صلبة لها أشكال لاتتغير .

ثم ان المادية الماركسية تقدم للعلم مبدأ خصبا، ألا وهو فكرة أن القوانين التى يكتشفها العلم والعلاقات التى يقررها بواسطة المنهج الجدلى ، ليست علاقات جزافية كان من الممكن أن توجد بهذا الشكل أو ذاك ، بل هى القوانين الضرورية للمادة فى تطورها .

والعلم المادى لا يعرف قلق « التجريبين» الذين يقتصرون على تقرير تتابع الظواهر ، ثم يتساءلون باستمرار عما اذا كانت الشمس ستشرق فى الغد أم لا !

فالفكرة التى يقوم عليها العلم المادى هى أنه اذا توفرت ظروف معينة ، يستحيل ألا تحدث الظاهرة المرتقبة ، لأن الطبيعة لاتخالف نفسها ، بمعنى أن الطبيعة واحدة . (١٠)

والعلم المادى يقوم على فكرة أن القـانون العلمى يعبر عن خاصية موضوعية للمادة ، أى أنه يعبر عن حتمية نشوء ظاهرة معينة ، خلال تطور معين وفى ظروف معينة .

وقد أشار انجلز الي حتمية نشوء الحياة على أى كوكب اذا اجتمعت فيه الظروف اللازمة ، وحتمية نشوء الانسـان خلال تطور الأنواع ــ بما فيها تطور الأنواع على كوكب آخر أو فى زمان آخر ــ اذا ما اجتمعت الظروف اللازمة ايضا .

بهذا المعنى اذن نستطيع أن نفهم الضرورة الطبيعية ووحدة الوجود وشمول قوانين المادة .

وترتيبا على ذلك لايمكن خلق قوانين الطبيعة أو المجتمع ، ولايمكن تحطيمها ولاالغاؤها . وكل مايستطيعه الانسان هو أن يكتشفها .

«فنحن نستطيع أن نكتشف هذه القوانين وأن نعرفها وندرسها ونحسب حسابها فى أعمالنا ونستغلها لصالح المجتمع . الا أننا لا نملك أن نغيرها أو نلغيها ، وبالأحرى لا نملك أن نؤلف أو نخلق قوانين جديدة للعالم .» (١)

وهكذا تقدم المادية الجدلية الأساس النظري للتنبؤ العلمى لظواهر الطبيعة والمجتمع . وهى تستبعد أى شك فى نتيجـة العمل الذى يتم على أساس معرفة علمية للواقع ، ومن ثم تضمن للانسان الحد الأقصى من اليقين ، كما تضمن له الحد الأقصى من الحرية ، بما تزوده به من امكانيات التصديق عن ثقة .

---

(١) ستالين : « المشـاكل الاقتصـادية للاشتراكية فى الاتحـاد السوفييتى » ، كتابات اخيرة ، ص ٩٤ .

٥ ـ الماركسية والغيبية

ان كل هذا يتيح لنا أن نحــكم على تهافت الغيبية التى هى شكل من أشكال المثالية .

والغيبية تفترض قوى خفية وراء المادة للاعتبارات التالية :

(١) المادة فى نظر المثالية سلبية ســاكنة ، ومن ثم يجب أن تتقبل حركتها من شيء آخر .

(٢) المادة فى نظر المثالية لاتملك فى ذاتها أى ضرورة طبيعية ومن ثم يجب ان يوجد الشيء الذى يحفــظ لقــوانين المــادة دوامها وثباتها .

(٣) المادة فى نظر المثالية لا ترتبط بعملية تاريخية تطورية،ومن هنا ترى المثالية أن للعالم بداية وسوف تكون له نهاية .

أما المادية ، فترى أن مفهوم المــادة ذات التطور البـــاطن الضرورى يستلزم فكرة أبدية ولا نهائية العالم الذى لايقف عن التغير ، وتستلزم كون المادة لا تفنى ولا تســتحدث . ولقد طالب ديدرو من قبل بألا تتعلل بلا معقولية أزلية المادة فنفسر العالم بأزلية أخرى أكثر لا معقولية من الأولى !

وقد أدت الاكتشافات العلمية منذ ديدرو الى ازدياد تهافت نظرية استحداث المادة . ومنذ القرن الثامن عشر ، صـــاغ «كانط» الألمانى نظريته الشهيرة عن تطور المجموعة الشمسية . وقد تناولها بعد ذلك لابلاس الفرنسى تناولا علميا .. ثم كانت

اجابته الهادئة لنابليون .. الذى شكا اليه من أنه لايجد فى هذه النظرية مكانا لفكرة الألوهية فقال له : « مولاى ! اننى لست فى حاجة الى هذا الفرض . »

وتمت بعد ذلك اكتشافات «ليل» الانجليزى فى ميدان تطور الكرة الأرضية . أما فى ميدان تطور الأنواع الحية ، فقد تمت اكتشافات لامارك، وتمت بصفة خاصة اكتشافات داروين، ومن ثم استقرت نظرية التطور بشكل محدد . وقد كشف هذا المفهوم التاريخى الجديد العيب الثانى فى المادية القديمة (وكان عيبها الأول هو الميكانيكية) .

وأخيرا جاءت اكتشافات ماركس وانجلز فى ميدان علم المجتمعات ، فمدت هذا المفهوم التاريخى ، وبذلك قضت على النقص الثالث فى المادية القديمة ، وهو أنها لم تكن تستطيع أن تنظر الى المجتمع كعملية تاريخية طبيعية .

وبمناسبة المادية القديمة ، نذكر أن الالحاد القديم كان يقوم على النقد « التأملى » الذى يجرى وراء الاستحالات والتناقضات التى يراها كامنة فى فكرة الألوهية ، من مثل كيف يمكن لروح محضة أن تخلق مادة ، وكيف يمكن لوجود مستقل عن الزمان أن يخلق العالم فى لحظة من الزمان ، وكيف يمكن للخير اللانهائى أن يخلق الشر ؟.. الخ

ولكن هذا النوع من الالحاد ساذج . وقد كان اللاهوت المسيحى يرد عليه بافتراض وجود « سر غامض » على العقل البشرى من ناحية، ومن ناحية أخرى كان اللاهوت دائم المراجعة لفكرة الألوهية بناء على اعتراضات الملاحدة . أما فى المادية

الحديثة ، فقد اختفت مشكلة وجود الله ، وحلت محلها مشكلة

وجود فكرة الألوهية فى رؤوس الناس !

والآن .. ما هى أسباب ظهور الغيبية ؟

هناك سببان :

أولا : عجز الانسان ازاء الطبيعة التى لايفهمها ولا يملك السيطرة عليها، وازاءالقدرة الانتاجية وازاءالظواهر الاجتماعية التى لايفهمها أيضا ولايملك السيطرة عليها ، ومنها القهر الطبقى.

ثانيا : لما كان هذا العجز أو الجهل يعنى أيضا اخفاء الواقع وتشويه الحقيقة ، فقد كانت الطبقات الرجعية تشجع الغيبية دائما ، لتستخدمها فى اخفاء حقيقة استغلالها للجماهير الكادحة ، ولتبقى هذه الجماهير على سلبيتها وتواكلها وايمانها بحتمية الشقاء وبفائدة التضحية بالحياة . ولهذا كان كهنة قدماءالمصريين « يصطنعون » المعجزات للرعية . ولهذا أيضا قالشيشرون : ان الايمان بآلهة الرومان شيء لابد منه للعبيد .

٦ ـ الخلاصة

ـ ان الفكرة التى نخرج بها من هذا الفصل الخاص بمادية العالم ، تتلخص فى أن المادية الجديدة هى وحدها الفلسفة الثورية فى أيامنا هذه ، لأنها تعلم الانسان أن ينظر الى « العالم كما هو » .

فالمادية تكشف للانسان أنه ليس ثمة مصير مكتوب ولا قدرية (كالحرب أو الفقر مثلا) ، وأنه يستطيع أن يغير مصيره

بالمعرفة العلمية للواقع ، ويستطيع بذلك أن يصل الى حياة جديدة ، وأن يعرف سعادة الحياة •

وقد كان المادى الاغريقى أبيقور يقول ان المادية تحرر الشعور البشرى من قهر الخوف الخرافى من غضب الآلهة • ونحن نضيف الى ذلك أنها تحرره أيضا من قهر الخوف الخرافى من الدولة . فالمادية ، كما أشار ماركس ، تؤدى الى الاشتراكية •

ليس هناك اذن تكفير عن خطيئة أولى . وليس هناك قضاء مقدور ، كالحرب مثلا • وليس هناك « مكتوب » كما يزعم صانعو الكوارث البشرية . وليس هناك من شىء أبدى سوى المادة المتحركة . وكما يتيح لنا علم الأمراض أن نكافحها بمكافحة أسبابها ، كذلك يتيح لنا علم أسباب الحرب أن نكافح الحرب . فكلما ازدادت معرفتنا بالأسباب التى تخلق الحروب ، كلما ازداد تسلحنا من أجل مكافحتها بشكل فعال .

هكذا تدعونا المادية الى العمل بدلا من أن تخلق فينا السلبية والتواكل ، اذ أنها تتيح لنا أن نعرف بدقة ماهو ممكن ، وأن نحدد القدرة الفعاله للانسان • وهكذا تكون الحرية : قدرة يمكن مباشرتها لا نداء رنانا .

الفصـــل الثالث

السِّمة الثانية للمادية الماركسية
المادة سابقة على الشعور

١ ـ تحايل المثالية

لاحظنا فى الفصـــل الســـابق ان الغيبيـــة تضعضعت الى حد كبير بسبب تطور العلوم منذ عصر النهضـــة ، وأنها سقطت فى القرن الثامن عشر تحت ضربات المادية .

واذ ذاك ، ظهر شكل جديد من المثالية ، كان الغرض منه ان يحل محل المفهوم المندثر . ويرجع هذا الشكل الجـديد الى الفس الانجليـزى بيركلى (١٦٨٥ ــ ١٧٥٣) . وكان بيركلى يهدف من ورائه الى هدم ما للاكتشافات العلمية من أهمية نظرية ، عن طريق محاولة البرهنة على عدم وجود المبدأ المادى للعالم . ذلك لانه أصبح من غير الممكن فى ذلك العصر أن يتخلص أعداء المادية من الماديين بارسالهم وقودا للنيران ــ كما كان يحدث ايام محاكم التفتيش الجميلة ! فليتخلص أعداء المادية اذن من المادة

نفسها ، بهدف تسخيف الماديين واظهارهم بمظهر السذج العاجزين عن « التفلسف » ، وليصدروا قرارا علميا بأن المادة وهم ، ومن ثم يحكمون بنهاية هذه الفلسفة التى تزعم أنها تقوم على الواقع .. ومنذ اذ ذاك ، لن يتفلسف أحد الا فى « الشعور » . وسوف يعتبر كل تفكير يخرج عن حدود الشعور فقط ، تفكيرا غير فلسفى .

ثم ان بيركلى لم يكن يخفى هذه الأسباب الخارجة عن الفلسفة ، والتى كانت تقف فى رأيه الى جانب هذا المفهوم . فقد أعلن بلا مواربة :

« متى استبعدنا المادة من الطبيعة ، فانها ستحمل معها الكثير من التركيبات الشكية (أى الالحادية) والكافرة ، والكثير من المناقشات والمسائل المتشابكة .. فقد كلفت الناس الكثير من الجهد الضائع ، لدرجة أنه حتى لو رؤى أن الحجج التى نسوقها ضدها ليست مؤكدة جدا .. فلن يقل بذلك اقتناعى بأن أصدقاء الحقيقة (أى أصدقاء الأيديولوجية الاقطاعية) والاستقرار (أى استقرار النظام الاقطاعى) والدين ، سوف تتوفر لديهم كافة أسباب الرغبة فى الاعتراف بأن هذه الحجج مقنعة . » (١)

وفى مكان آخر أعلن أيضا :

« اذا ووفق على هذه المبادىء واعتبرت صحيحة ، ترتب

---

(١) عن لينين فى « المادية والمذهب النقدى التجريبى » ، ص ١٧ ، باريس ١٩٤٨ .

على ذلك هدم الالحاد والشكية تماما بضربة واحدة ، وكذلك توضيح المسائل الغامضة ، وحل المشاكل التى لم يكن بمكن حلها تقريبا ، واعادة المعجبين بالمفارقات الى حظيرة الفهم العادى . » (١)

وفى جنون المثالية هذا ، كان بيركلى يتناول كافة اكتشافات العلم ، وخصوصا حساب الفوارق فى علم الرياضة ، فيحكم عليها بأنها جوفاء غير منطقية ومتناقضة !

ومن المهم أن ندرس مفهوم بيركلى هذا ، لأنه يعبر تماما عن جوهر المثالية الحديثة . ثم ان هذا المفهوم يوجد فى أصل الفكرة التى تأخذ بها الجامعات البرجوازية ، ومؤداها أن المادى ضيق الفكر ، وتوجد أيضا فى أصل الاحتقار الذى يحمله « الفلاسفة » المثاليون للعلوم و « للعلميين » .

والواقع أن ديدرو لم يخدع نفسه فى تقرير الخطورة الرجعية لمذهب بيركلى عندما قال عنه :

« .. انه ـ ويا لخجل الروح البشرية والفلسفة ـ أصلب المثاليين مراسا رغم أنه أكثرهم سخفا . » (٢)

فكيف بدأ بيركلى لكى يصل الى هدفه ؟

ان ديدرو يحدد هذا النوع من المثالية التى وضعها بيركلى قائلا :

« الفلاسفة الذين يطلق عليهم مثاليون ، هم هؤلاء الذين

---

(١) بيركلى : « ثلاث محاورات لهيلاس وفيلونوس » ، المقدمة .
(٢) عن لينين : « المادية والمذهب النقدى التجربى » ، ص ٢٤ .

لا يعون الا وجودهم والاحساسات التى تتتابع فى داخل نفوسهم ثم لا يعترفون بشىء آخر . » (١)

ومن هنا تصبح المسألة هى « أن نبرهن » على عدم وجود شىء خارج وعينا وتصوراتنا وأفكارنا . فليس هنـــالك واقع «خارجى» ،بل ان كل شىء يرجع فى نهاية المطاف الى التصورات الذهنية التى هى تصوراتنا نحن . فاذا أسقطنا الشعور ، أو كما يقال ، «الأنا» ، فان الواقع كله يزول . وهكذا لايمكن للوجود أو الطبيعة أو المادة أن توجد خارج الشعور ومستقلة عنه ، أى خارج شعورى « أنا » ومستقلة عنه ، ولهذا يطلق على هذا النوع من المثالية ، المثالية الذاتية . ولنستمع الى ما يقول بيركلى فى ذلك :

« ليست المادة ــ كما نعتقد ــ هى الشىء الذى تتصوره موجودا خارج روحنا . فنحن نظن أن الأشياء موجودة ، لأننا نراها ولأننا نلمسها ، أى أننا نعتقد بوجودها لأنهـــا تعطينا احســـاسات ما .

الا أن احساساتنا ليست سوى أفكار تحتويها أرواحنا . واذن فالأشياء التى تدركها حواسنا ليست سوى أفكار ، والأفـــكار لا يمكن أن توجد خارج روحنا . » (٢)

ثم يقول بيركلى : اغمس يديك فى ماء دافىء بعد أن تغمس احداهما فى ماء ساخن والأخرى فى ماء باردة . أفلا يبدو الماء باردا لليد الساخنة وساخنا لليـــد الباردة ؟ فهل يجب اذن أن

---

(١) نفس الموضع .
(٢) بيركلى : الكتاب المذكور .

نقول عن المـاء انه سـاخن وبارد فى نفس الـوقت ؟ أو ليس هذا هو الكلام الفارغ بعينه؟ واذن فلتسـتنتج معى أن الماء فى ذاته لا يوجد كمادة مستقلا عن وجودنا . فهو ليس سوى اسم نطلقه نحن على احساساتنا. فالماء يوجد فينا نحن ، أى فى روحنا. وفى كلمة واحـدة ، المادة هى الفكرة التى نصـنعها عن المادة . فالمادة هى الفكرة .

هذه هى ألعوبة الخداع والسفسطة التى يصل بها بيركلى الى هدفه . فهو يستنتج من تناقض احساساته ونسبيتها عدم وجود المادة. وبذلك يغيب عنه أن نفس تناقض احساساتى هذا يمكن أن يجعلنى أستنتج أن المـاء دافىء، أى لا هو بالبارد ولا بالساخن. فاذا كان القمر يبدو فى بعض الأحيان هلالا، وفى أحيان أخرى قرصا ، فان هذا لايعنى أنه غير موجود خارج نفوسنا ، بل يعنى أن ظروف وجوده تجعلنى أراه فى كل لحظة معينة بشكل مختلف . واذا صرح لى أحد بأنه يرى القماش الأحمر أصفر ، فلن أستنتج من ذلك أن القماش لا يوجد الا فى وعى كل منا ، بل سأستنتج أن ذلك الشخص مصاب بمرض ما كاليرقان . ولن أستنتج من كون العصا المغموسة فى الماء تظهر لى مكسورة أن هذه الظاهرة لا توجد الا فى شـعورى ، بل سـأستنتج على عكس ذلك أن انكسار الأشـعة الضوئية فى المـاء هو ظاهـرة موضوعية ومستقلة عن وجودى أنا .

وهكذا يتضـح لنا على أى أساس يبنى بيركلى سفسطته . انه ببساطة يبنيها على الاسلوب الميتافيزيقى فى الاستدلال ، ذلك الأسلوب الذى يستبعد التناقض فى الظواهر والفعل المتبادل بين

الظواهر بعضها البعض.وفى رأيه أنالتناقض لايمكنانيوجد الا فى الروح لا فى الواقع الموضوعى . ومنهنا يبدو لهأنه مادامت احساساتى متناقضة ، فذلك لأن الشيء الذى تصوره هذه الاحساسات لا يوجد الا فى روحى أنا ، أى ليس سوى وهم أو تخيل من قبيل عروسة البحر التى يتخيلونها من جسم امرأة وذيل سمكة !

بقى سؤال هو : اذا كانت المادة غير موجودة ، فمن أين يمكن اذن أن تأتى الاحساسات التى تنبثق « فى داخلنا » كل لحظة ؟ والجواب عند بيركلى جاهز ، وهو أن الله نفسه يبعثها فينا . وهكذا يعود الأسقف بيركلى أسقفا ، بعد جولته فى«سيكلوجية الاحساسات».وبهذا تلعب المثالية الذاتية دورها فى تدعيم المثالية الموضوعية القديمة (أى المثالية الدينية) وهى فى طريقها الى الاندثار ..

هكذا يتضح معنى عبارة بيركلى المشهورة : « أن يوجد هو أن يدرك أو أن يدرك » . (١١) ولكننى لا أعرف وجود « الآخرين » الا عن طريق الاحساسات التى تتصورهم بها « روحى » . فلابد اذن من الناحية المنطقية أن يكون الناس أفكارا فى روحى لا أكثر . وترتيبا على ذلك لا يكون ثمة فى العالم سوى شعورى أنا . وهذه النتيجة الفارغة تسمى « العندية » (أى فكرة وجود الأنا ــ نفسى أنا ــ وحدها) . وهى التى يتبرأ منها بيركلى .. ولكن هيهات ! فكيف يستطيع أن يتجنبها لو أراد أن يكون منطقيا مع نفسه حتى النهاية ؟ غير أنه لا يملك أن يكون كذلك ، لأن المثالية بخلاف

المادية الجدلية لا تستطيع أن تكون مرتبة ترتيبا منطقيا ، ما دامت تضطر الى التراجع دائما أمام هذه النتيجة الجوفاء ، ألا وهى العندية .

ولقد حاولت المثالية الذاتية بعد بيركلى أن « تكمل نقائصها » فى كثير من النقاط التفصيلية ، وأن تجد مفردات جديدة أكثر غموضا ، وذلك لكى تستعيد شبابها وترتفع بسمعة الفيلسوف المثالى ! ولكنها رغم ذلك لم تأت بجديد .

قال لينين : « لم يقدم أحدث الفلاسفة المثاليين آية حجة ضد الماديين ، الا واستطعنا أن نجدها لدى الإسقف بيركلى ، بل وبنفس الألفاظ . » (١) وهذا هو شأن الاتجاه الجديد الذى انتشر فى الجامعات ، ألا وهو « فلسفات الروح » أو « الشعور » ، وهو الاتجاه الذى يعمل دائما على تشويه المادة وتحويلها الى تابع للروح . فهذا الاتجاه تعبير عن استمرار المثالية الذاتية على طريقة بيركلى ، وهى الفلسفة التى تؤثرها البرجوازية الرجعية فى فرنسا ، لأنها تعبر عن غضبها ورعبها من تقدم المادية فى صفوف البروليتاريا ، خصوصا بعد كوميون باريس ، أى بعد سقوط الحكومة الثورية التى أقامتها الطبقة العاملة الفرنسية عام ١٨٧١ . فالفلاسفة البرجوازيون يحققون اليوم الأمانى التى عبر عنها «تيير» منذ عام ١٨٤٨ ، فيستخدمون شتى الوسائل لاعادة نفوذ المثالية الدينية . (١٢)

وهكذا يرى رجل مثل لاشيلييه ان العالم « فكرة لا تفكر، تخرج من فكرة تفكر » . ويرى هاميلان أن الواقع هو نتيجة

---

(١) لينين : « المادية والمذهب النقدى التجربى » ، ص ٢٦ .

« تركيب » تصنعه روحنا . ويرى رجل مثل دوهيم أن الأفكار العلمية ليست سوى « رموز » تخلقها الروح البشرية . ويرى برونشفيك أن « الروح لا تستطيع أن تضمن الا الروح » ، وأن تقدم العلوم يرجع الى تقدم « الشعور » فى الغرب . ولنترك جانبا صغار الاساتذة ! (١٣)

ثم ان هؤلاء المثاليين أحاطوا « الفلسفة » بالطقوس والأسرار وجعلوا كلمة (فلسفة) مرادفة للمثالية الرسمية.وبهذه الطريقة جعلوا الناس يفهمون أن استعمال كلمة «فلسفة» ليس فى متناول الجميع .. اذ يجب على من يطلبها أن يعرف أولا كيف يؤدى القداس المثالى . كذلك يضاعف المثاليون عدد الكتب التى تحمل اسم «الف باء الفلسفة» لكى يتمكنوا من الرد على هؤلاء الذين لا تقنعهم الحجج المثالية بأنهم « ليسوا فلاسفة » !

وتعتبر فلسفة بيرجسون تتويجا لهذه الرجعية الفلسفية . اذ أن بيرجسون كان يقف على رأس المنظرين البرجوازيين من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩١٤ وفى السنوات التى تلت ذلك ـ وقد أتيحت لنا فرصة الحديث عنه فى الفصل السابق .

ويردد بيرجسون أفكار بيركلى دون أن يعترف بذلك . فهو يؤكد فى صدر كتابه « المادة والذاكرة » أن العالم مصنوع من « صور » وأن هذه الصور لاتوجد الا فى شعورنا ، بل ان المخ نفسه ليس سوى صورة من هذه الصور . ومعنى ذلك أن المخ لا يوجد بدون « الشعور » وليس العكس ، أى ليس الشعور هو الذى لا يوجد بدون المخ ! فالشعور « حقيقة مستقلة » بينما المخ جهاز فى خدمة الفكر

السابق عليه فى الوجود . ويترتب على ذلك أنه اذا أصيب المخ بسوء تبقى الذاكرة .. خارج المخ ، أى فى « اللاشعور » ! وهكذا توجد فى رأيه روح مجردة لاتقوم على أساس عضوى كما كانت تقول الأديان البدائية . وقد أشار بوليتزير الى الدلالة التاريخية و « المادية » جدا لفلسفة الروح المزعومة هذه فى الفصل الأخير من كتيب «البرجسونية : نهاية استعراض فلسفى» وأوضح كيف وضع بيرجسون نفسه و « روحه الخالصة » فى خدمة الامبرياليين الفرنسيين عام ١٩١٤ ، وكيف صاغ فلسفته وفقا لأشد الأفكار تطرفا فى النعرة الوطنية ، فاعتبر الشعب الألمانى كالمادة المفرغة من الروح .. أما الروح .. فقد استقرت فى ثنايا رايات الاستعمار الفرنسى المسلوبة ! وفضلا عن ذلك ، كان بيرجسون ينظر نظرة ذعر الى القروح المزمنة التى تدفع الرأسمالية الى الاحتضار ، وكان يلقى مسئوليتها على التقدم الآلى الحديث !

كتب يقول :

« عندما يزعم التطور المادى للحضارة أنه يكتفى ذاتيا بنفسه ، أى عندما يضع نفسه فى خدمة العواطف السفلى والمطامع المريضة يمكن أن يؤدى ذلك الى أقبح الهمجيات . »

وها هنا نرى مرة اخرى التشهير القديم الذى يوجه ضد المادية .. فقد كان برجسون فى محاولته ان يحرف الناس عن مشاكلهم الحقة وان يشككهم فى قيمة العلم ، يلعب دور المنظر العتيد للرجعية .

وكان هناك فى ألمانيا فى نفس العصر فيلسوف مثالى آخر هو

« هوسـيرل » . وكان هوسيرل يقرر أن الشعور يوجد قبل محتواه ، ومن ثم نادى بمنهج فلسفى جديد مؤداه أن « يضع بين قوسين» العالم ومتناقضاته الموضوعية (١٤) ومعنى ذلك أنه بدلا من أن يبحث عن أصل الشعور فى الواقع ، زعم أنه يبحث عن أصل الواقع فى الشعور ــ وهى محاولة يائسة تعكس قلق البرجوازية ازاء عجزها عن اخضاع تطور العلوم لارادتها ، لأن هذا التطور العارم يبرز أمام المثالية باستمرار مسائل جدلية جديدة لا يمكن حلها . ولهذا يرى هوسيرل أن حل المشاكل الفلسفية التى تبرزها العلوم ، يجب أن يكون مستقلا عن وجود المادة أو عدم وجودها ، مهما كان ثمن ذلك .

ولننتقل الى آخر شكل من أشكال المثالية ، ألا وهو وجودية «هايدجر» الألمانى وتلامذته الفرنسيين (ومنهم جان بول سارتر).

و « الوجود » الذى يتحدث عنه هؤلاء ليس سوى «الشعور بوجودى».وهذا الشعور هو الحقيقةالوحيدة لديهم.أما الوجود والمعرفة العلمية ، والمعطيات الموضوعية والأفكار التى تعكسها ، فقد أسقطوا اعتبارها جميعا . ذلك لأن الأفكار العقلية يجب أن تتنازل فى رأيهم « للوجود » . ثم ان هذا الوجود محدود «بموقف» ، بمعنىأن الانسان يوجد «فى موقف» ، ولكن هذا الموقف لا يحدد شعوره ، بل ان شعوره على عكس ذلك هو الذى يحدد موقفه . فكل موقف يرجع فى آخر الأمر الى الشعور الذى هو شعور به ، كما أن الانسان يستطيع فى كل لحظة أن يستحضر الشعور الذى يريد، أى يستطيع أن « يختار نفسه » .

ومن هنا يمكن أن نستنتج أن السجين فى زنزانته يصبح أكثر حرية من الطائر فى مروج الربيع ، بمجرد أن يصل الى اللحظة التى لا « يشعر » فيها « وجوديا » بانعدام حريته ! وبهذا يسخر الشعور من الوجود ومن المعطيات الموضوعية ، لأنه يوجد فى زعمهم مستقلا عنها . فبمجرد أن أرتب نفسى على ألا أشعر بوجود المادة ، ينعدم وجودها. ومثلا اذا «اختار» البروليتارى «لنفسه» ألا يكون بروليتاريا ، فهو ليس كذلك ! (١٥)

فسواء كانت هذه الفلسفات ملحدة أم لا ، فهى تدفع رحى التجهيل ، مادامت تنكر ضرورة العلم فى حل المسائل الاجتماعية. ذلك لأن المشكلة لا تصبح فى نظرها مشكلة التمييز بين الرأسمالية والاشتراكية ، بل مشكلة أن تعرف ما اذا كانت الطبقة العاملة « ستختار لنفسها » أن تكون ثورية أم لا . ولهذا السبب لا تكاد الكنيسة تحارب هذه الفلسفات . فهى لا تتعرض للبرجسونية المسيحية ولا للوجودية المسيحية ، لأنها تستخدمهما بالذات كأمان « للمستقبل » ، يصرف المثقفين المسيحيين عن النظر الفلسفى فى التناقضات التى تحفل بها المسيحية ، كما يصرفهم عن النظر الفلسفى فى العلم وفى المادية . أما الاشتراكيون الديمقراطيون ، فيستخدمون المثالية الذاتية فى تزييف الماركسية .

٢ ـ المفهوم الماركسى

« بعكس المثالية التى تقرر أن شعورنا فقط هو الذى يوجد فى الواقع وأن العالم المادى أو الوجود أو الطبيعة لا توجد الا فى شعورنا واحساساتنا وتصوراتنا وأفكارنا ، تقوم المادية الفلسفية الماركسية على مبدأ أن المادة أو الطبيعة أو الوجود هى واقع موضوعى موجود خارج شعورنا ومستقلا عنه ، وأن المادة هى المعطى الأول لأنها مصدر الاحساسات والتصورات والشعور ، بينما الشعور معطى ثان تابع لأنه انعكاس للمادة أو انعكاس للوجود ، وأن الفكر هو نتاج المادة عندما تصل فى تطورها الى درجة عالية من الكمال ، أى بعبارة أدق ، الفكر هو نتاج المخ ، والمخ هو عضو الفكر ، ومن ثم لا يمكن فصل الفكر عن المادة دون الوقوع فى خطأ جسيم . » (١).

فى هذه الكلمات تتضح فكرتان أساسيتان فى النظرية الماركسية للمعرفة : الأولى أن الوجود واقع موضوعى ، والثانية أن الشعور هو انعكاسه الذاتى . وبهذا تصل الماركسية الى ابراز مسألة نشوء الفكر خلال تطور الكائنات الحية ، أى تصل الى ابراز مسألة العلاقة بين الفكر والمخ . والدراسة العلمية لهذه المسألة هى التى تؤدى حتما الى تحديدات جديدة فى ميدان نظرية المعرفة .

---

(١) ستالين : « المادية الجدلية والمادية التاريخية » ، ص ١٠ ـ ١١ .

فلننظر اذن فى هذه النقاط المتنوعة .

ا) موضوعية الوجود

لاحظنا فى الفصل السابق أن هناك مفهومات يكونها العلم عن المادة ، وأن هذه المفهومات تتطور وتتعمق وتثرى كلما ازدادت جدليتها ، لأن خواص المادة لا حصر لها . كما لاحظنا أن هناك معنى عاما أو مفهوما فلسفيا للمادة ، يجب ألا نخلط بينه وبين المفهومات السابقة ، لأنه يوجد فعلا فى أساس أى عمل علمى وفى أساس أى معرفة . [1]

وها هنا نحدد هذا المفهوم الفلسفى للمادة :

« المادة مقولة فلسفية تدل على الواقع الموضوعى المعطى للانسان فى احساساته التى تنقل هذا الواقع وترسم صورته وتعكسه ، دون أن يكون وجود الواقع تابعا لوجودها . » [2]

ويعود لينين فيحددها تحديدا آخر فيقول :

« ان الواقع الموضوعى يوجد مستقلا عن الشعور البشرى الذى يعكسه . » [3]

فموقفنا اذن هو أن نفسر ما ندركه من الواقع بواسطة الواقع نفسه ، وليس موقفنا قط أن نرجع الواقع الى ما ندركه ، على ما فعل بيركلى .

فالمثالية تبدو شبيهة بموقف انسان يحسب نفسه وحيدا ولا

---

(١) اقرأ لينين : « المادية والمذهب النقدى التجربى » ، ص ٢٣٦ ــ ٢٣٨ ــ ٢٣٩ ــ ٢٤٠ ، ص ١١٠ ــ ١١١ .

(٢) نفس الكتاب ، ص ١١٠ .

(٣) نفس الكتاب ، ص ٢٣٨ .

يوجد شيء آخر مستقل عنه .. وفى سذاجته يفسر كل شيء بأحواله النفسية . ويضاعف هذه السذاجة غرور لا مثيل له ، يجعله يتصور أنه لا يحتاج الى الخروج عن ذاته ليعرف ! هذا الموقف هو موقف من يجيب عن كل سؤال كما لو كان « حكمه » قانونا ، ويعتبر شعوره مقياس كل حقيقة ، ثم يحصر الجنس البشرى فى حدود نهائية هى فى الواقع حدود شعوره هو .

ولقد استطاع تطور العلم منذ قرون عديدة أن يصل الى اثبات تام لوجود وجوه من الواقع لم تطرأ قبل على ذهن بشر . وهكذا أصبحت وجهة النظر الثابتة للعلوم اليوم هى اثبات أن العالم لا يحتاج فى وجوده الى شعورنا ولا الى اعتماد المثاليين لوجوده . وتحمل وجهة النظر هذه مادية تلقائية ، لأنها تعترف بواقع موضوعى خارج الشعور. فاذا كان العلم يكتشف باستمرار خواصا جديدة للمادة ، فذلك بداهة لأن المادة لا توجد فى نفوسنا بل خارج نفوسنا .

فليس هناك من يشك فى أن الميكروب كان يوجد حتى قبل اكتشافه ، اذ كانت توجد أمراض اعتبرت اذ ذاك مستحيلة الشفاء ، ثم أتاح لنا اكتشاف الميكروبات شفاءها .

وليس هناك من يشك فى وجود زمن لم تكن قد توفرت فيه على الأرض مجموع الظروف اللازمة لوجود كائن حى .

ولكن المثاليين يوجهون الينا « الاعتراض » التالى :

« ما معنى « يوجد مستقلا عن أى شعور » ما دام شعوركم هو الذى يتصور وجود العالم حتى بدون الانسان أو قبل الانسان ؟ وما معنى وجود أمريكا قبل أن تقع عليها عينا

كريستوف كولمبوس ، ما دام « شعوركم » هو الذى يتخيل هذا الوجود السابق ؟ فالجزيرة المهجورة لا توجد بدونكم ، ما دمتم أنتم الذين تتصورونها » .. الخ .

ولقد أجاب لينين منذ زمن طويل ، بأن نظرية المعرفة كلها تقوم بالذات على التمييز بين الوجود الواقعى للانسان الموجود فى العالم فى ظروف معينة فى الزمان والمكان ، وبين استحضار الفكر أو الشعور المرتبط ذهنيا بتصور هذا العالم الموجود واقعيا قبل الانسان أو بدون الانسان . وعدم معرفة التمييز بين هذا وذاك ، يعنى بالدقة أنك لست فيلسوفا . (١٦)

فليس هناك من يشك فى أن الحياة المادية للمجتمع توجد مستقلة عن وعى الناس، اذ ليس ثمة من يتمنى الأزمة الاقتصادية سواء كان رأسماليا أو بروليتاريا ، رغم أن هذه الأزمة تحدث حتما . فقانون القيمة الذى يحدد أن كمية العمل المتضمنة فى سلعة ما تعبر عن نفسها بواسطة القيمة وأشكالها ـ هذا القانون كان يعمل منذ بدء الانتاج التجارى ، مع أن الاقتصادى ريكاردو لم يكتشفه الا فى القرن التاسع عشر . كذلك كان الصراع الطبقى بين البرجوازية وطبقة النبلاء واقعا قائما منذ بدء ظهور البرجوازية . الا أن جيزو ومينييه وتيير لم يكتشفوا هذه الحقيقة ويعبروا عنها بوعى ، الا فى القرن التاسع عشر .

فما رأيكم اذن فيما يؤكده المثاليون ، من قبيل مايلى :

« كل ما لا يدخل فى الفكر يكون عدما محضا .. فليست

الطبيعة هي التي تفرض علينا مفهومي المكان والزمان ، وانما نحن الذين نفرضهما على الطبيعة » ..

•• الا أن يكون الجهل التام لهؤلاء المنظرين البرجوازيين بالمادية الجدلية هو الذي يجعلهم يتخذون مثل هذه الآراء ؟

ولا شك أنه قد يبدو لهذا الذي لا يملك المنهج الفلسفي الماركسي ، أن الطبيعة أو الوجود أو المادة ، تعكس فكر الانسان الذي يفرض عليها مطالبه • فمثلا اذا أنشأنا خزانا مائيا ، كانت نتيجة ذلك أن تعكس الطبيعة الخطة التي تصورها المهندسون ، ومن ثم يصبح السيل الجارف بعد تذليله خاضعا لرغبات البشر. ولكن، هل يعني ذلك أننا خرقنا قوانين الطبيعة أو غيرناها أو ألغيناها ، أو أنها لا توجد مستقلة عن الوعي البشري أو أنها بدون هذا الوعي تتلاشى ؟

« بالعكس . فقد اتخذت هذه الاجراءات على أساس تقدير دقيق لقوانين الطبيعة ، أي لقوانين العلم ، لأن أي خرق أو خدش لقوانين الطبيعة مهما كان ، يؤدي الى تخنط هذه الاجراءات وفشلها • » (١)

« ومعنى ذلك اننا اذا تحدثنا عن « اخضاع » قوى الطبيعة أو القوى الاقتصادية ، وعن « السيطرة » عليها ، وما الى ذلك ، فنحن لا نعني بذلك قط أنه يمكن « الغاء » قوانين العلم أو « تشكيلها » ، بل نحن نعني بذلك أنه يمكن اكتشاف القوانين

---

(١) ستالين : « المشاكل الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي » ، في كتابات أخيرة ، ص ٩٥ •

ويمكن معرفتها واستيعابها والتدرب على تطبيقها بمعرفة كاملة لقضيتنا ، ويمكن استغلالها لصالح المجتمع ، ومن ثم يمكن كسبها بهذه الطريقة واخضاعها لسيطرتنا . » (١)

ثم هاهى الكلمات التى تتيح لنا أن نقيس كل مدلول الفكرة الماركسية الأساسية فى قوانين العلم :

« ترى الماركسية أن قوانين العلم ــ سواء كانت قوانين الطبيعة أو قوانين الاقتصاد السياسى ــ انعكاس للعمليات الموضوعية التى تحدث مستقلة عن الارادة البشرية . » (٢)

ب) الشعور ــ انعكاس الوجود

ما معنى قولنا ان الشعور هو انعكاس للوجود أو للواقع الطبيعى أو الاجتماعى ؟

ان هذا يعنى أولا وضع حد نهائى للاثنينية . فالفكر لا ينفصل عن المادة المتحركة ، أى أن الشعور لا يوجد خارج المادة ومستقلا عنها . قال انجلز :

« ان العالم المادي الذى يمكن ادراكه بالحواس والذى ننتمى نحن اليه ، هو الواقع الوحيد . » (٣)

الا أن هذا لا يعنى قط أن الفكر مادي، شأنه شأن المواد التى تفرزها اعضاؤنا .

فمثل هذا التفكير الخاطىء يساعد على الخلط بين المادية والمثالية

(١) نفس الكتاب ص ٩٩ ــ ١٠٠ .
(٢) نفس الكتاب ص ٩٤ .
(٣) انجلز : « لودفيج فيورباخ » ، ص ١٨ .

لأنه يقرر تطابق المادة والفكر ، أو المادة والشعور . وهذه هى « المادية المبتذلة » ..

« فقولنا بأن الشعور صورة للوجود لا يعنى قط أن الشعور بطبيعته من المادة .. فمادية ماركس ترى أن الشعور والوجود أو الفكرة والمادة صورتان مختلفتان لنفس الظاهرة الواحدة التى تحمل اسم الطبيعة أو المجتمع . فليست احداهما اذن نفيا للأخرى ، ثم ان الاثنتين لا يؤلفان ظاهرة واحدة فحسب . » (١)

ولكن الرأى الماركسى لا يعنى فى نفس الوقت أن الشعور سلبى ، وأنه لا يلعب أى دور ، وأن الماركسيين « ينكرون دور الشعور » .. الخ فمثل هذا التفكير هو خلط بين الماركسية والمفهوم الخاطىء الذى يسمى « عرضية الشعور » أو « نظرية الظاهرة الثانوية » . وهو من ثم جرى وراء مزيفى الماركسية. فاذا كان الوعى لا يباشر حقا أى فعل ، فلماذا كتب ماركس هذه الكتب الكثيرة ، ولماذا أسس «الدولية الأولى» ولماذا استخدم كافة الوسائل لنشر أفكاره ؟

الرأى الماركسى يعنى اذن أن محتوى شعورنا ليس له من مصدر سوى الجزئيات الموضوعية التى تقدمها لنا الظروف

---

(١) يشير ستالين هنا الى أن هذا لا يناقض قط فكرة الصراع بين الصورة والمحتوى الذى تناولناه فى الفصل السابق ، لأن هذا الصراع لا يكون بين الصورة والمحتوى بصفة عامة ، بل بين الصورة القديمة والمحتوى الجديد .

(٢) ستالين : « فوضوية أم اشتراكية ؟ » المؤلفات ، المجلد الاول ص ٢٦٥ .

الخارجية التى نعيش فيها وتعطى لنا فى الاحساسات .وهذا كل ما فى الأمر .

« فتصوراتنا و « أنيتنا » لا يوجدان الا بوجـود الظروف الخارجية التى تخلق انطباعات « أنيتنا » (١٧)

وكما أن الشىء الموجود خارج نفوسنا سابق على الصورة التى نكونها عنه ، فها هنا أيضا يأتى تصورنا بعد الشىء ، أى تأتى الصورة بعد محتوى الصورة . فاذا نظرت ورأيت شجرة ما ، كان معنى ذلك ببساطة أنه قبل أن يبرز تصور الشجرة فى رأسى ، كانت توجد نفس هذه الشجرة التى أحدثت فى نفسى تصورا مطابقا لها .. » (١)

فالشعور هو انعكاس حركة المادة فى مخ الانسـان . ومن هنا ترى الماركسية أن الشعور نتاج تطور تاريخى ، سواء نظرنا اليه من زاوية تاريخ الطبيعة والمجتمع أو من زاوية تاريخ الفرد وشخصية كل شخص .

قال ستالين :

« فى عملية تطور الطبيعة والمجتمع ، نجد أن الشعور ، أى مايحدث فى مخنا ، يسبقه تغير مادى مطابق ، أى يسـبقه مايحدث خارج نفوسنا . وهذا التغير المادى لابد أن يتبعه حتما ان آجلا أو عاجلا تغير فكرى مطابق . » (٢)

ثم يقول :

« ان التطور فى المجال الفكرى ، أى فى مجال الشـعور ،

---

(١) نفس الكتاب ، ص ٢٢٦ .
(٢) نفس الكتاب ، ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦ .

يسبقه التطور فى المجال المادى ، أى تطور الظروف الخارجية .
فالظروف الخارجية ، أو المجال المادى يتغير أولا ، ثم بعد ذلك وتنيجة له ، يتغير الشعور أو المجال الفكرى . » (١)

وهذا الواقع الذى يستطيع كل منا أن يحقق صحته ، هو الدليل التجريبى على صحة المادية ، أى على تبعية الشعور للوجود . وانه يدل فى نفس الوقت على أن الشعور لا يمكن أن يبرز مرة واحدة كانعكاس دقيق للواقع ، شأنه شأن الانعكاس الذى يحدث فى المرآة ، بل انه يكون انعكاسا حيا متحركا متغيرا يتقدم على الدوام .

وقد لايتضح لنا هذا الأمر من أول وهلة . فقد يبدو أن الفكر يقوم بنفسه ولا شأن له بغيره . وقد تتخيل ـ كما قال ديكارت ـ أنه يكفى أن نفكر لنوجد ، وأنه لكى ينشط هذا الفكر ليس له من حاجة الى جسم . فهكذا يفكر الفلاسفة المثاليون . فهم فى جهلهم بالجذور الطبيعية والاجتماعية للفكر يعتقدون أن كل شيء يعتمد على الفكر ويخر له ساجدا .

ولكم يبعث على الرضا اغراء هذه الفكرة الهائلة : الاعتقاد بأن الأفكار تقوم بنفسها وتتطور بنفسها ، وأن الشعور اله باطن قادر على كل شيء . ولقد سخر المادى العظيم ديدرو من هذا الوهم من قبل ، وشبه تفكير المثالية هذا بالأوهام التى يتوهمها « بيانو » هبطت عليه الحساسية فظن أنه وحده فى العالم ، ومن ثم حسب أن « كل انسجام العالم » انما يحدث فيه !

---

(١) نفس الكتاب ،ص ٢٦٦ .

٣ ـ الفكر والمخ

لقد حاربت المادية دائما هذا الوهم . ومن قبل ، وضع ديدرو نظرية المادة التى يمكن أن تفكر . أما ماركس فقد كتب يقول :

« لايمكن أن تفصل الفكرة عن المادة المفكرة . فالمادة هى « حامل » كل التغيرات التى تحدث . » (١)

وأشار انجلز الى ذلك قائلا :

« ان شعورنا وفكرنا ، بقدر مايظهران متعاليين ، ليسا سوى نتاج عضو مادى جسمانى هو المخ . » (٢)

وقال لينين :

« ان لوحة العالم ، أى صورته العلمية هى لوحة تبين كيف تتحرك المادة وكيف تفكر المادة . » (٣)

وقد علق لينين على قول القائلين ان الفكر ليس حركة بل هو « فكر » ، بأنه يشبه من الناحية العلمية قولنا : « ان الحرارة ليست حركة ولكنها حرارة . »

وتبين العلوم الطبيعية أن نقص تطور مخ أحد الأفراد هو أكبر عائق أمام تطور شعوره وفكره : وهذه هى حالة البله .

(١) عن انجلز فى « الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العملية » ص ١٧ باريس ، ١٩٤٨

(٢) انجلز « لودفيج فيورباخ » ، ص ١٨

(٣) لينين : « المؤلفات الكاملة » ، المجلد ١٣ ، ص ٣١٠ الطبعة الروسية

فالفكر نتاج تاريخي لتطور الطبيعة في درجة عالية من انكمال ، تتمثل لدى الأنواع الحية في أعضـاء الحس والجهاز العصبي وعلى الخصوص في الجزء الأرقى المركزي الذي يحكم الكائن العضوي كله ، ألا وهو المخ . فالمخ يعكس الظروف السائدة داخل الكائن العضوي ، والظروف الخارجية في نفس الوقت.

ولكن ما هي نقطة البدء في الشـعور أو الفكر ؟ انهـا الاحساس . ثم ان مصدر الاحساسات هو المادة التي يعالجها الانسان بدافع من احتياجاته الطبيعية . فالعمل والتطبيـق والانتاج ، هي التي أثارت الحركات الاولى للفكر في أصـول النوع البشري . ذلك لأن العمل ليس ثمرة اللعنة القـائلة « فلتكسبن خبزك بعرق جبينك » ، انما العمل وحدة أساسية بين الانسان والطبيعة ، وصراع يباشره الانسان ضد الطبيعة ، من أجل أن يتمكن من الحياة التي هي مصدر كل فكر .

« والعيب الأساسي في كل مادية سـابقة .. هـو أنهـا لم تكن تنظر الى الموضوع أو الواقع أو العالم المحسـوس ، من حيث هو فاعلية بشرية حية ، أي من حيث هو تطبيق . » (١)

وقد بين انجلز في أحد نصوصه المشهورة ، أن العمل هو الذي ضاعف احساسات الانسان أثناء خـروجه من مرحلة الحيوانية ، اذ أنه طور يده ، ومن ثم طور مخه ، الأمر الـذي أتاح له تقدمات عملية جديدة . وهكذا كانت اليـد التي هي عضو العمل نتاجا للعمل في نفس الوقت . ثم أن العلوم تعلمنا

---

(١) كارل ماركس : « لودفيج فيورباخ » ، ص ٥١ .

أنه اذا انقطع فرد عن الحياة الاجتماعية كلها ، فان فكره يتحول تحولا عميقا ويصيبه الضمور ، وتزول ذاكرته ، وتنحدر ارادته حتى تصبح صفرا . فاذا لم يكن قد عرف الحياة الاجتماعية أبدا ، فانه يفقد شخصية الانسان . وقد رأينا أطفالا فقدوا فى الغابات ورعتهم الذئاب ، فاتخذوا عادات الذئاب .

ويلاحظ انجلز أن أى عمل بشرى هو اليوم كما كان منذ القدم عمل فى مجتمع ، اذ بدون هذا ما استطاع الانسان حتى أن ينجو من الأخطار الطبيعية .

وهذه الملاحظة بالغة الاهمية جدا فى فهم أصول الفكر والنظر العقلى . فالعمل يوضح على الدوام وجوها جديدة للواقع ،ويبرز مسائل لم تكن معروفة من قبل .وهو يظهر روابط موضوعية جديدة ،لاتستطيع الاحساسات وحدها أن تعكسها. ثم ان العمل يتطلب جهدا مشتركا وفعلا مشتركا ، من أجل أن تعمل كل طاقات المجموعة من الناس فى نفس النقطة وفى نفس اللحظة (لتحريك صخرة مثلا) . ولكن لكى تجعل الناس يسلكون سلوكا مشتركا ، لا بد من اشارة أو أمر . ثم لايلبث العمل أن يزداد تعقدا ، واذ ذاك تصبح الصرخة والاشارة غير كافيتين ، ويحتاج الأمر الى قدرة على شرح العمل المطلوب أداءه ، أى يحتاج بعد الاحساسات الى اشارات جديدة — جديدة كيفيا — لتعبر عن الروابط بين الاحساسات . وهذه الاشارات هى الكلمات . ومعنى ذلك أن العمل يتطلب أن يتبادل الناس الانطباعات المعقدة التى يثيرها فيهم . فالعمل

اذن هو الذى أثار الحاجة الى التبادل اللغوى • وبهذه الطريقة اذن ولدت اللغة ، التى هى تبادل قبل أن تكون تعبيرا (١) .

ولكن الأمر لا يقف عند هـذا الحد • فالمخ البشرى يصفو ويثرى بالروابط الجديدة ، لأنه هو أيضا نتـاج اجتماعى . ثم ان ظهور اللغة يعنى ظهور الفكر بمعنى الكلمـة ، أى ظهور النظر العقلى • وبهذا تكون البشرية قد خطت خطوة حاسمة • فبدون العمل الذى هو نشاط اجتمـاعى ، لم يكن يمكن أن توجد لغة ولا فكر •

قال ستالين :

« يقال ان الأفكار تأتى فى روح الانسـان قبل أن تعبر عن نفسها فى الحديث ، وانها تولد دون أدوات اللغـة ، أى دون اطار اللغة ، أو بعبارة أخرى ، تولد عارية • الا أن هذا خطـأ تماما . فمهما كانت الأفكار التى تأتى فى روح الانسـان ، فلا يمكن أن تولد وتوجد الا على أساس أدوات اللغة ، أى عـلى أساس الالفاظ والجمـل اللغوية . فليس هناك أفكار عـارية متحررة من أدوات اللغة ، أو متحررة من « المادة الطبيعيـة » التى هى اللغة . « فاللغة هى الواقع المباشر للفكر . » (ماركس) ومعنى ذلك أن واقع الفكر يتمثل فى اللغـة • ولا يمكن أن يتحدث عن فكر منفصل عن « المادة الطبيعية » أو اللغـة ، أى لا يمكن أن يتحدث عن فكر بدون لغة ، الا المثاليون وحدهم . » (٢)

(١) ان الحيوانات التى لا تعمل ، أى لا تغير من الواقع ومن ثم لا تغـير من احساساتها ، ليست قط فى حاجة الى اللغـة • فالاشارات الحسية تكفى احتياجات سلوكها .

(٢) ستالين : « عن الماركسية فى علم اللغة » ، كتابات أخيرة ، ص ٤٥ — ٤٦

ولقد لاقت مبادىء المادية الجدلية هذه تدعيما باهرا فى العلوم الطبيعية ، بفضل الأبحاث الفسيولوجية التى قام بها العالم العظيم بافلوف . وهذا ما تنبأ به لينين وطالب به .

فقد اكتشف بافلوف أن العمليات الأساسية فى النشاط المخى هى الأفعال المنعكسة الشرطية ، التى تتكون فى ظروف محددة ، والتى تطلقها الاحساسات سواء الخارجية أو الداخلية . وأثبت بافلوف أن هذه الاحساسات تقوم بدور الاشارات الموجهة بالنسبة لكل نشاط الكائن العضوى الحى . (١٨)

وقد اكتشف من ناحية أخرى أن الكلمات بمضمونها ومعناها يمكن أن تحل محل الاحساسات التى تحدثها الاشياء التى تدل عليها ، ومن ثم يمكن للكلمات أن تطلق بدورها أفعالا منعكسة شرطية واستجابات ، اما عضوية أو لغوية . وهكذا تكون الكلمات اشارات للاشارات ، أى نظاما ثانيا فى العملية الاشارية ، يتكون على أساس النظام الاول ، ويكون خاصا بالانسان . وهكذا تعتبر اللغة هى شرط النشاط الراقى فى الانسان ، وشرط نشاطه الاجتماعى ، وركيزة الفكر المجرد الذى يتخطى الاحساس الوقتى ، وركيزة النظر العقلى . فهى التى تتيح للانسان أن يعكس الواقع بأكبر درجة من الدقة .

وبهذه الطريقة أثبت بافلوف أن ما يحدد أساسا شعور الانسان ليس جهازه العضوى وظروفه البيولوجية ، كما يعتقد الماديون السطحيون ورجال التحليل النفسى ، بل يحدده على عكس ذلك المجتمع الذى يعيش فيه الانسان ، والمعرفة التى يحصل عليها منه . فالظروف الاجتماعية للحياة هى المنظم

الحقيقى للحياة العضوية والذهنية . (١) فالفكر بطبيعته ظاهرة اجتماعية .

صحيح أن المخ عضو الفكر ، ولكنه عضو فحسب . ولا تتنافى ذلك قط مع الفكرة المركزية التى تؤكدها الماركسية ، والتى تقول :

« ليس شعور الناس هو الذى يحدد وجودهم ، بل ان وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد شعورهم . » (٢)

٤ — خطوتان للمعرفة

ان أبحاث بافلوف واكتشافاته تتيح لنا أيضا أن نحدد الطريقة التى تتكون بها المعرفة فى شعورنا ، أى الطريقة التى يتكون بها انعكاس الواقع ، وانعكاس الوجود .

فلنأخذ مثلا بسيطا : كيف نعلم طفلا معنى الكلمات المعتادة ؟

يجب أولا أن نشير له مرات كثيرة متتاليه الى الشىء الذى تدل عليه الكلمة . وثانيا وفى نفس الوقت ، يجب أن نقول له اسم الشىء ونجعله ينطقه كثيرا بالقدر اللازم ، الى أن يربط بين الكلمة والشىء ربطا صحيحا و « تلقائيا » ، والى أن يعرف كيف يستخدم الكلمة مع عدم وجود الشىء ، أى بطريقة مجردة

(١) أنظر « المدخل الى مؤلفات بافلوف » ، فى « مسائل علمية » رقم ٤

(٢) ماركس وانجلز : « دراسات فلسفية » ، ص ٧٩ .

وهكذا يمثل معنى الكلمة المفهومة ، فكرة الشيء • وتتكون هذه الفكرة أو هذا المفهوم على أساس الاحساسات المتكررة وعلى أساس اللغة التى تضع اشارة هذه الاحساسات • فهناك اذن خطوتان للمعرفة : الاحساس المباشر ، والفكرة المجردة (أو المعنى العام) •

ومن السهل أن نرى أن الاحساس المنعزل هو معرفة أقل كمالا من الفكرة . فالطفل الذى لا يرى غير بجع أبيض ، يظن البجع طائرا أبيض ، وبهذا يرتكب خطأ جزئيا • أما عالم الحيوان فيعرف البجعة بتعريفها العلمى ، ولهذا تكون فكرته عنها أدق و « أوفى » وأكثر تحددا • ومعنى ذلك أن الفكرة المجردة هى التى تعكس الواقع بشكل أدق • ولكن الشيء المؤكد تماما هو أن هذه الفكرة العلمية (عن البجعة) لم يكن يمكن أن تتكون الا على أساس استقراء منسق للأنواع والمجاميع الموجودة فى الطبيعة ، أى على أساس الاحساسات •

واذا انتقلنا الى الاشياء التى تكون فى ذاتها « مجردة » ، مثل معانى القرابة والأسرة وما الى ذلك ، نجد أن الطفل يستطيع أن يكتسبها هى أيضا عن طريق التطبيق الاجتماعى المتكرر كثيرا .

ولنأخذ مثالا أشد تعقدا •

التاجر الصغير عليه ضرائب باهظة جدا ، وعامل النسيج تهدده البطالة ، والموظف الصغير يكسب ثمانية جنيهات فى الشهر • فاذا فرضنا أن الأول يقرأ صحيفة الأورور والثانى يقرأ الفرنك تيرير والثالث يقرأ الفيجارو ، فلا شك أن كل واحد منهم سيجد فى صحيفته صدى لبؤسه . ومعنى ذلك أن هذه

الصحف تعكس الموقف جزئيا ، أى فى وجوهه المحسوسة . الا أنها لا تتخطى ذلك ، بل تحترس تماما من تفسير الموقف ، وتهاجم أشياء ما ، تعتبرها مسئولة عن الموقف ، من مثل الاسراف فى مصاريف الادارة أو كثرة الشركات الصغيرة أو الفلاحين !
أما قارىء الأومانيتية (جريدة الحزب الشيوعى الفرنسى) ، أو قارىء تقارير موريس توريز، فانه يجد فيها التفسير الذى يعطيه مفتاح الموقف من كل وجوهه . فهو يجد فيها تحليل أزمة الرأسمالية وتناقضاتها ، أى يجد فيها الفكرة المجردة التى تعكس الواقع بعمق ، ألا وهى قانون الجرى وراء أقصى ربح، ذلك القانون الأساسى للرأسمالية الحاضرة .

وهكذا تصعد المعرفة فى كل مجال من المحسوس الى العقلى . ولقد كان بيركلى يأخذ واقع رؤية الشمس مسطحة وحمراء « دليلا » على عدم وجودها الا فى شعورنا . أما الماركسية فتعتبرها ببساطة دليلا على أن المعرفة الحسية ناقصة ، لاتجعلنا نفهم « ما هو » الواقع ، وان كانت تضعنا على اتصال مباشر به. وقد علمنا الجدل أنه لكى نفهم ظاهرة ما ، لابد من أن نربطها بالظواهر الأخرى وأن نعرف أصلها وأن ندرك تناقضاتها الباطنة . ثم ان العلم والمعرفة الفكرية لن يتيحا لنا فقط أن نعرف كيف توجد الشمس فى الواقع ، بل انهما يتيحان لنا أيضا أن نعرف لماذا نراها مسطحة وحمراء . فالعلم يبرر لنا « ماهية » الظواهر .

قال ماوتسى تونج :

« تختلف المعرفة المنطقية عن المعرفة الحسية .. فى أن المعرفة

الحسية تشمل الوجوه الجزئية للظواهر والإرتباط الخارجي للأشياء ، بينما المعرفة المنطقية تتقدمها بخطوة واسعة جدا ، فتشمل ماهو مشترك بين الأشياء ، وتشمل مجموع الأشياء وجوهرها وارتباطها الباطن ، وتؤدي الى كشف التناقضات الباطنة في العالم الذي يحيط بنا ،ومن ثم يمكن استيعاب تطوره في مجموعه وبكل كثرته وارتباطاته الباطنة . » (١)

ويلاحظ أن الانتقال من الخطوة الأولى للمعرفة ، وهى خطوة الاحساسات والانطباعات والانفعالات، الى الخطوة الثانية التى هى درجة المعانى العامة ، يعتبر مثالا عظيما من أمثلة الجدل، لأن التراكم الكمى للاحساسات هو الـذى يحدث ظاهرة جديدة كيفيا هي المعنى العام .

قال ماوتسى تونج :

« ان ما نسميه الخطوة الانفعاليـة فى المعرفة ، أى خطوة الاحساسات والانطباعات .. هي الخطوة الأولى للمعرفة .

ثم ان استمرار التطبيق الاجتماعى يؤدى فى التطبيق لدى الناس الى مضاعفة تكرار الأشياء (٢) التى يدركونها بحواسهم والتى تترك أثرا فيهم . ونتيجة لذلك تحدث فى مخ الانسان طفرة فى عملية المعرفة ، فينبثق المعنى العام . والمعنى العام يمثل بطبيعته استيعاب طبيعة الأشياء وما هو مشترك فيها وارتباطها الباطن .

---

(١) ماوتسي تونج : « فى التطبيق » ، كتابات شيوعية ، فبراير ١٩٥١ ، ص ٢٤٣

(١) ان هذا التكرار لا يكون عفويا ، بل انه ينتج عن الضرورة الطبيعية . انظر الفصل السابق النقطة الرابعة .

فهنالك بين المعنى العام والاحساس فرق فى الكيف لا فى الكم فحسب . » (١)

وفى هذا يقول لينين :

« ان المعانى العامة هى أرقى ما ينتجه المخ ، الذى هو أرقى نتاج للمادة . » (٢)

فاذا كان ثمة تناقضات فى أفكار الناس ، فذلك لأن الواقع الذى يعكسه فكرنا يحوي تناقضات :

« فجدل الاشياء ينتج جدل الأفكار وليس العكس . » (٣)

وقد قال ماركس من قبل :

« ليست حركة الفكر الا انعكاسا لحركة الواقع ، منقولة ومحولة فى مخ الانسان . » (٤)

٥ ـ الخلاصة

لنحكم فيما يلى على الأهمية العملية البالغة لقول الماركسية بسبق المادة على الشعور أو الوعى .

فأولا ، اذا كانت الظروف هى التى تتغير فى البداية ، ثم يتغير نتيجة لذلك وعى الناس ، كان معنى ذلك أنه يجب ان نبحث عن

---

(١) الكتاب المذكور ص ٢٤٢ .

(٢) لينين « كتابات فلسفية » .

(٣) نفس المرجع .

(٤) ماركس : تذييل الطبعة الالمانية الثانية لرأس المال ، الكتاب الاول ، المجلد الاول ص ٢٩

السبب الأساسي وراء هذا المبدأ أو ذاك ووراء هذه النظرية أو تلك ووراء هذا المثل الأعلى أو غيره ، فى تطور الظروف المادية، لا فى المخ البشرى ولا فى خيال الناس وفى عبقريتهم المبدعة . وهكذا يكون المثل الأعلى الذى يقوم على دراسة الظروف المادية هو وحده المثل الأعلى السليم المقبول .

وثانيا ، اذا كان وعى الناس وعواطفهم وأخلاقهم وعاداتهم تتحدد بالظروف الخارجية ، فمن البديهى أنه لا يمكن تغيير وعى الناس الا بتغيير هذه الظروف . فليس هناك انسان أبدى ولا « طبيعة بشرية أبدية » . ففى نظام الملكية الخاصة حيث يشتد صراع الانسان من أجل البقاء ، يكون « طبيعيا » أن يسلك الانسان مع الانسان كما يسلك الذئب المفترس . أما فى نظام المنافسة الاشتراكية والملكية الاشتراكية ، فلا بد أن تنتصر بين الناس أفكار الأخوة : فليس الانسان شريرا ولا خيرا ، بل هو على ما تصنعه الظروف . وهكذا تعطى الماركسية ردا حاسما على السؤال الذى يوجهه أصحاب النظريات البرجوازية كما يلى:

هل يجب أن يقال ان « المبادىء » السيئة هى التى تصنع الانسان السيء ، أم أن سوء الانسان هو الذى يفسد « المبادىء » ؟

فالمسألة ليست مسألة « مبادىء» ، بل هى مسألة الرأسمالية التى تفسد الانسان . فنظرية الثورة عن طريق « اصلاح الأخلاق » أكذوبة كبيرة .

فالانسان الجديد يستطيع أن يصنع نفسه بوعى جديد هو

الوعى الاشتراكى ، فى ظروف حيـاة جديدة هى الحيـاة الاشتراكية .

وهنا يصبح السؤال كما يلى :

ما الذى يجب عمله من أجل بلوغ هذا الهدف ؟

والجواب على ذلك أنه يجب أن تتعجـل حدوث الظروف الجديدة بواسطة عملية تغيير الواقع الاجتماعى ، وتغيير النظام الرأسمالى غير الانسانى . ولقد قال ماركس :

« اذا كانت الظروف هى التى تصنع الانسـان ، فيجب أن نصنع ظروفا انسانية . » [1]

هكذا يتضح تماما ارتباط المادية بالاشتراكية .. ذلك الارتباط الذى لاحظه من قبل فلاسفة فرنسا فى عصور النور . ولهذا نجد أن زعماء الاشتراكية الديمقراطية اليمينية الذين لا يريدون الاشتراكية حقا، يبذلون قصارى جهدهم لكى يزيفوا الماركسية، وذلك بأن يرفضوا المادية ويلوذوا بأشد أنواع المثالية تخلفا . أما المادية فهى على عكس ذلك تفتح أمام البروليتـاريا وأمام الانسانية طريق التحرر المادى والثقافى ، أى طريق الثورة .

---

(١) ماركس : « اضافة الى تاريخ المـادية الفرنسـية » ، فى « دراسات فلسفية » ، ص ١١٦

الفصل الرابع

السمة الثالثة للمادية الماركسية
العالم يمكن معرفته

١ ـ آخر مهرب للمثالية

رأينا فى الفصل السابق أن مثالية بيركلى الذاتية ظهرت فى القرن الثامن عشر كطريق ملتو اضطروا الى استخدامه لانقاذ المثالية الموضوعية الدينية ، التى كانت تتهاوى اذ ذاك تحت ضربات العلوم الطبيعية والفلسفة المادية . ولكن كان من الواضح أن فى فلسفة بيركلى عيبا خطيرا ، هو عجزها عن استيعاب تقدمات العلوم المعاصرة لها . فقد ادعت هذه الفلسفة أنها لاتعترف بالعلوم ، وأعلنت أنها جوفاء . ولهذا رأينا الفلاسفة المثاليين الذين يسيرون فى ركاب بيركلى ، يقفون دائما بمعزل عن المسائل العلمية . ولكن هذه الطريقة لم تنجح ، لأن العلوم أحرزت منذ القرن الثامن عشر تطورا أدى الى انهيار مركز بيركلى ، خصوصا بعد أن صاغ نيوتن النظرية الميكانيكية العامة للعالم . وهنا اضطرت المثالية الى أن تتخذ وضعا ملتويا تحمى به الغيبية . وفى هذا الوضع ، أصبحت المشكلة بالنسبة اليها هى أن تهىء للدين مجرد « امكان » الاحتفاظ ببقائه ، وذلك باعطائه فرصة

الشك . ومن هنا اصطنعت الفلسفة الجديدة الموقف التالى :

« المادية تزعم أن المادة هى الأولى ، أما نحن فـلا نعلم عن ذلك شيئا . »

وهكذا تعمل هذه الفلسفة على أن تقدم نفسها «كطريق ثالث» بين المثالية والمادية . فهى ترفض أن تحـدد ردها على المسـألة الأساسية للفلسفة ، لأنها تحكم باستحالة تحديد هـذا الرد . ومن هنا تفاخر بأن موقفها « نقدى » وليس « جامدا » !

وقد كانت المثالية الموضوعية ترجع المادة الى « روح كلية »، وكانت المثالية الذاتية تذيب المادة فى شعورنا . ولكن الأولى حطمتهاعلوم الطبيعة ،والثانية حطمها علم الفسيولوجيا والعلوم الاجتماعيـة . اذن فلتقـل فلسفتنـا الجـديدة هـذه :

« من أين تعرفون أن العـلم يجعلنا نعرف الواقـع كما هو ؟ نحن نعترف فعلا بالعلوم .. ولكن لكى نعرف ما اذا كان الواقع الموضوعى من حيث المبدأ مادة أو روحا ، يجب أن نعرف أولا ما اذا كانت روحنا تستطيع أن تعرف الواقع فى ذاته أم لا . »

هاهى اذن « الفلسفة الثالثـة » التى لا ترجع المـادة الى الروح ، ولا تذيب المادة فى الشعور ، ولكنهـا فى استدلالها العقلى الجديد تنظر الى المادة والروح كما لو كانت كل منهما غريبة على الأخرى ، وكما لو كانت المادة مستغلقة على الروح، أى على المعرفة ، وكما لو كانت معرفتنا عاجزة عن أن تستجلى الطبيعة وأن تستجلى امكانيات الروح .

ويسمى هذا الاتجاه بصفة عامة اللا أدرية (مشتقة من لاأدرى أى لا أعرف) ، وذلك لأنه يدعى استحالة الرد على السؤال

الأساسي في الفلسفة ، بحجة عجزنا الدائم عن معرفة المبادىء الأولى للأشـياء .

وقد كان المبشر بهذه الفلسفة في القرن الثـامن عشر هو الفيلسوف الاسكتلندي دافيد هيوم (١) . ويعتبر الممثل الاساسي لها الفيلسوف الالماني عمانويل كانط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) ، الذي كان معاصرا للثورة الفرنسية . وكان يمثلها في فرنسا في القرن التاسع عشر أوجست كونت (٢) (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) ، وكثيرون من المؤلفين الذين اختلطت لديهم اللا أدرية بالأشكال الأخرى للمثاليـة (والواقع أننا لا نجد عند هؤلاء اتجـاهات فلسفية « في حالة نقية » ، على مانجدها عند مؤسسي المذاهب ، بل نجدها عندهم مختلطة بدرجات متفاوتة) . وقد لعبت فلسفة كانط دورها في الحركة العمالية ، اذ اعتمد عليها أعداء الماركسية في محاولتهم « مراجعة » الماركسية . (١٩)

فلننظر في « حجج » اللا أدرية ..

كتب هيوم يقول :

« يمكن أن نلاحظ بالبـداهة أن الناس يميـلون بغريزتهم الطبيعية ... الى الثقة في حواسهم ، وأننا من ثم نفترض دائما وجود عالم خارجي دون أقل استدلال على ذلك . وهذا العالم الخارجي لايعتمد على ادراكنـا ، بل انه يكون موجودا حتى اذا تلاشينا نحن وكافة الكائنات ذات الحساسية . »

---

(١) أنظر الملاحظة ٢١ للمترجم .

(٢) أنظـر ملاحظة المترجـم في الجـزء الأول من « المبـادىء الاساسية للفسـفة » ، ص ١٥ ــ ١٦ .

ونستطيع أن نلاحظ هنا أن هيوم يعترف بأن المادية هى فلسفة الفهم المشترك . ولكنه يعود فيقول :

« الا أن هذا الرأى المبدئى والعام سرعان مايهتز أمام الفلسفة البسيطة جدا التى تعلمنا أن الروح لايمكن أن تصل الا الى الصورة أو الادراك ... فالمنضدة التى نراها ، تبدو أصغر كلما ابتعدنا عنها . أما المنضدة الواقعية التى توجد مستقلة عنا فلا تتغير . ومعنى ذلك أن روحنا لاتدرك سوى صورة المنضدة . » (١)

وها هنا نجد أنفسنا ازاء حجة بيركلية صرفة ، تذكرنا بمثال بيركلى (فى الفصل السابق) عن الشمس المسطحة الحمراء.. وان يكن ثمة فارق بين الرجلين ، هو ان بيركلى كان ينكر الوجود المستقل للمادة ، أما هيوم فلا ينكره ، وانما يعترف بوجود « منضدة واقعية » مستقلة فى وجودها عنا ولا تتغير بتغير احساساتنا ..بالرغم من أننا لن نعرف قط كيف توجد هذه المنضدة ، مادمنا لانعرف عنها سوى الصور النسبية التى تعطيها لنا عنها حواسنا . فالمنضدة فى ذاتها « لاتقبل المعرفة » .

وهكذا يفرق هيوم بين مستويين فى الواقع ، هما : المنضدة كما نراها ، أى المنضدة « لذاتنا » (٢٠) وهى التى توجد فى وعينا على شكل صورة ، وتكون ذاتية ، وليست سوى مظهر ، ثم المنضدة « الواقعية » ، أى المنضدة « فى ذاتها » ، وهى التى تكون خارج شعورنا ، وتكون موضوعية تؤلف الواقع ، الا

---

(١) عن لينين : « المادية والمذهب النقدى التجربى » ، ص ٢٠٢ .

أنها لاتقبل المعرفة . والخلاصة هى أننا لانعرف أبدا سوى مظاهر الأشياء ، ولكننا نجهل دائما وجودها . ومن ثم لانستطيع أن نحدد لأنفسنا موقفا بين المثالية والمادية . فالنقاش يطول بالمادى والمثالى حول الأشياء فى ذاتها ، هل هى مادة أم روح . وفى ذلك يكون مثلهما مثل رجلين يسيران على الجليد ، أحدهما يضع على عينيه منظارا أزرق والآخر يضع منظارا أحمر ، ثم يناقش كل منهما الآخر ليعرف لون الجليد . فالمادى يعطى الأهمية للجانب المادى من الأشياء ، والمثالى يعطى الأهمية للجانب المثالى أى الفكرى .. ولكن يستحيل أن نقول ما هى الاشياء فى ذاتها ، لأن كل واحد منا « سجين وجهة نظره » !

وهنا تبدو أهمية هذه الفلسفة لدى هؤلاء الذين يزعمون أنهم « على الحياد » ومتمسكون « بالتحفظ العلمى » !

أما كانط ، فقد وضع فلسفته عن العلم اعتمادا على تدليلات هيوم . وكانط معروف بأنه فيلسوف صعب جدا . ولكن الواقع أننا نجد الاتجاه المثالى الكانطى فى كل مكان .. نجده فى فكرة وجود « سر » فى الأشياء يفوت علينا ، وفى الحيادية الزائفة المفروضةعلى الفكر البرجوازى (وكأنما يمكنأن يوضع الصواب والخطأ أو العلم والجهل فىكفتين متوازنتين) وفى فكرة أنه يحسن ألا « نقرر » كثيرا ، وأن هناك صوابا فى كل شىء ، وأن « كل شخص له وجهة نظره » ، وو الخ ... ومن هنا

كان هـذا الاتجاه الفـكرى هو النمط الذى يصلح لتضليل الجماهير • (١)

يبـدأ كانط اذن من التمييز بين « الشيء فى ذاته » الذى لايقبل المعرفة ، و « الشيء لذاتنا » أو المظهـر ، وهو الذى ينتج عن الأثر الذى يحدثه «الشيء فى ذاته» فى أعضائنا الحسية• فنحن لا نوجد فى الأشياء ، ولن نوجد فيها أبدا• ثم ان المظاهر متعددة وعمائية ومتناقضة• ومن هنا تكون مهمة العلم عبارة عن «ترتيبها» ، وتكوين لوحة متلائمة منها ترضى احتياجاتنا• فكيف يتـم ذلك ؟ ان كانـط يرى أن الـروح البشرية هى التى « تفسر » معطيات الحس وفق احتياجاتها الخاصـة ، وليس العلم الا نتيجة هذا التفسـير • ومعنى ذلك أن قوانين العلم والعلاقات بين الظواهر ، هى بالتحديد من صنع الروح البشرية وحدها • فهى لاتعكس القوانين الواقعية للمادة المتحركة ، وانما تعكس « قوانين » الروح البشرية واحتياجاتها • وهى لاتمثل الحقيقة الموضوعية ، وانما تمثل حقيقة ذاتية لا أكثر • وهى بالتأكيد لاتعتمد على زيد من الناس أو عمرو ، لكنها رغم ذلك نسبية الى الروح البشرية فى نظر كانط (وكأنما يمكن أن توجد روح بشرية سماوية تنظر الى العالم بشكل آخر) •

فما هى نتيجة هذه النظرية ؟ النتيجة هى أن العلم يظل على سطح الأشياء • فالواقع أن القاعدة الحقيقية التى تقوم عليهـا فكرة «التقدم الوهمى» للعلوم، هى فكرة السر المطلق والمستغلق

---

(١) لعل من الواضح أن النقد الذى نوجهه الى فلسفة كانط ، لا يمكن أبدا أن يشكك فى ثمار بحثه العلمى

والأبدى • وترتيبا على هذه الفكرة ، يجب ألا ننسب الى العلم أية حقيقة مطلقة ، فما هو الا نوع من التفسير • ومن هنا تؤدى الكانطية مباشرة الى الشكية والتوقف فى مختلف المجــالات ، بما فيها مجال البحث العلمى النظرى(٢١) • ذلك لأن اللا أدريين ينتهون الى عدم التفريق قط بين أخطاء العلم بالأمس وحقائق العلم اليوم • فهم يقولون : « اليوم صواب وغدا خطأ » • وهم يستنتجون من وقوع العلم فى الخطأ مرة ، أنه لايمكن أن نعرف اللحظــة التى لايخطىء فيهــا العلم • وهم يخلطون بين الروح النقدية المنهجية التى هى روح العالم فى معمله ، وبين روح الارتياب الشكى الشامل • فالمعرفة فى نظرهم تضع حاجزا بيننا وبين العالم • ومن هنا تظهر التأملات التى لاتنتهى والتى انتشرت كبدعة فى الجامعات البرجوازية ، وتدور حول «قيمة» العلم و « افلاس » العلم ، وو الخ •• ذلك لأنه اذا كان العلم لا يقوم الا على المظاهر ، فلن يكون بالتحديد الا مظهر علم أو مظهر معرفة ، لاعلما حقيقيا ومعرفة حقيقية •

وقد اشتملت اللا أدرية على أشــكال فلسفية متشابهة يجب أن نعرفها • فوضعية أوجست كونت تؤكد أن العلم يجب أن يكتفى بتقرير العلاقات بين الوقائع دون أن يبحث سبب هذه الوقائع ، ويجب أن يمتنع عن البحث فى « لماذا » الاشياء ، أى يجب ألا يجرى وراء المطلق ، فكل بحث من هذا النوع أى كل نظرية تفسيرية تلقى الضوء على جوهر الظواهر ، تكون نظرية « ميتافيزيقية » يدينها أوجست كونت • وهــذا هو المذهب الرسمى للمدرسة البرجوازية فى موضوع العلم •

أما المذهب الاسمى nomina.l:me ومن فلاسفته هنرى بوانكارية ، فيعتبر العلم « لغة » لا أكثر ، أى مجرد أسلوب لصياغة ما ندركه عن الظواهر ، وليس قط تفسيرا حاسما للواقع • بل ان هنرى بوانكاريه يشكك فى أحد الاكتشافات العظيمة وهو اكتشاف دوران الأرض حول الشمس ، ولا يريد أن يرى فى نظرية « كوبرنيكس » الا «لغة» فحسب ! (٢٢) وهكذا تنظر هذه الفلسفات نظرة خاطئة الى العلم • وليس هذا فحسب ، بل انها كذلك توجهه الى مسالك يتجمد فيها ويصيبه العقم ، وتنتزع منه ذلك الاندفاع الجميل الذى كان يتوفر له فى علم عصر النهضة ، وتتفق فيما بينها على تحويله الى شىء وديع ! ولقد خلفت هذه الاتجاهات منذ حوالى مائة عام فلسفات فرعية وافرة فى فرنسا وألمانيا وانجلترا وأمريكا • كما أنها أحرزت نجاحا جزئيا فى مجال العلوم الاجتماعية •

والآن ، لنركز ما قلناه عن اللاأدرية :

(١) ان اللا أدرية لا تهاجم العلم وجها لوجه ، لأن هذا الأمر لم يكن ممكنا فى عصر كانط وكونت ، عصر ازدهار العلم • ثم انها لاتنكر وجود الواقع الموضوعى • فاللا أدرى يقف أمام العلم كرجل مادى ، ولكنه لا يلبث أن يدير وجهه الى جانب آخر ، فيحتج بأن العلم ليس كل المعرفة (لأن هناك مجالات أخرى كالدين والأخلاق لا تخضع للعلم !) ومعنى ذلك أن اللا أدرى يهمه أن ينتقص من نفوذ العلم وأن يخفى محتواه

المادى وقيمته فى المعرفة . فهو يهرب من المادة فى نفس الوقت الذى يعترف بها . وهكذا يضيق حدود العلم لصالح المثالية . فاللا أدرية فى كلمة واحدة مادية خجولة .

قال انجلز :

« الا أنه اذا كان تلامذة كانط الجدد فى ألمانيا قد حاولوا أن يبعثوا الحيـــاة فى أفكار كانط ، واذا كان اللا أدريون فى انجلترا قد حاولوا أن يبعثوا الحياة فى أفكار هيوم ، فان هذا يعتبر من الناحية العملية تراجعا أمام التفنيـد النظرى والعلمى الذى لقيته أفكارهما منذ زمن بعيد ، كما يعتبر فى التطبيق طريقـة خجولة لقبـول المادية فى الخفاء ، مـع انكارهـا فى العلانية . » (١)

(٢) هذا الموقف «الوسط» يطابق تماما احتياجات البرجوازية فى مرحلة انطلاقها . فالبرجوازية لاتستطيع فى هذه المرحلة أن تهمل تطور العلوم فى خدمة الانتاج ، الا أنها فى نفس الوقت تعمل على الاتفاق مع التكوين الفكرى الدينى الاقطاعى : اما لأنها تكون قد احتاجت الى تدعيم سـلطتها كما كان الحال فى فرنسا أيام كونت ، واما لأنها لا تكون قد تحررت بعـد من النظام الاقطاعى كما كان الحال فى ألمانيا أيام كانط .

(٣) ليست اللا أدرية موقفا « وسطا » الا فى الظاهر فحسب . والا فماذا يعنى فى التطبيق انكار كونت للمطلق فى السـياسة مثلا ؟ اننا نرى الجواب فى شعاره الذى يقول : « لا رجـوع

---

(١) انجلز : « لودفيج فيورباخ » ، ص ١٧

للماضى، ولا ثورة »•• وهذا هو أحسن شعار برجوازى! (٢٣)

فاللا أدرى عندما يقتصر على ماديته الخجولة بدعوى عدم انحيازه ، لا يترك المجال حرا أمام ندين متصارعين ـ وليته يفعل ذلك ـ بل انه يفسح المجال للأقوى، فأيهما الأقوى عمليا ؟ انها المثالية بلا نقاش • ذلك لأن المثالية تتمتع بميزة الأسبقية من حيث أنها التكوين الفكرى الرسمى ، ولأنها تجتذب الروح التى تميل الى « أسهل الطرق » • اما المادية فهى على عكس ذلك غير رسمية وصعبة لأنها علمية وجديدة على العقل • فعدم الانحياز الذى تنادى به اللا أدرية يشبه اذن عدم التدخل الذى ينادى به البعض ازاء « تدخل » المعتدين فى بعض البلاد • ولقد كان كانط نفسه يعرف جيدا أنه لو ترك الناس بلا جواب نظرى ملائم فسوف يتجهون الى هؤلاء الذين يقدمون لهم جوابا نظريا سهل المأخذ ، وهم المثاليون ورجال الدين ، ذلك لأن الناس تحتاج الى يقين فلسفى • فالحياد اللا أدرى ليس سوى « نفاق » فحسب • بل اننا نرى فضلا عن ذلك أن اللا أدرية تضع من الناحية النظرية افتراضات مثالية •

(٤) تؤدى اللاأدرية مباشرة الى الصوفية وفلسفة الايمان الدينى fidéisme ، أى الفلسفة التى تضع فوق العقل نوعا آخر من المعرفة هو الايمان • صحيح أن اللاأدرية ترفض كل المحاولات العقلية لاثبات الدين (وهى المحاولات التى تقوم بها المثالية الموضوعية) ، على أساس أنها تعتبر البحث فى أصل الوجود ، هل هو المادة أم الآلهة ، بحثا مستحيلا على العقل وعلى الفلسفة •• ولكن مادام الانسان يحتويه سر غامض لا يصل

اليه بعقله فانه يمكن ترتيبا على ذلك أن يصل الى هـذا السر بطرق لا عقلية صوفية . فاللاأدرية لاتقول كمـا تقول المثـالية الدينية : « ان الدين صحيح فلسفيا » ، بل تقول : « يجوز أن يكون الدين صحيحا » . وهنا نلاحظ مجرد « فارق لفظى » .. ولكنه يجلب على اللاأدرية ــ نظريا ــ لعنات الكنيسة ، ويدعمها ــ عمليا ــ بمساندة الكنيسة !

فاللاأدرية التى تجعل من العـلم حقيقة ذاتية ، تترك الحقيقة الموضوعية للايمـان . (٢٤) ولهـذا قال لينين : « امسح وجه اللاأدرى تجده مثاليا » .

٢ - المفهوم الماركسى

« تنكر المثالية امكان معرفة العـالم وقوانينه ، ولا تؤمن بقيمة معارفنا ، ولا تعترف بالحقيقة الموضـوعية ، وترى أن العالم حافل « بأشياء فى ذاتها » لا يستطيع العـلم أن يعرفهـا أبدا . وعلى عكس ذلك تقوم المادية الفلسفية الماركسية على مبدأ أن العالم وقوانينه يمكن معرفتها تماما ، وأن معرفتنـا بقوانين الطبيعة تكون معرفة صحيحة تماما،بعد تحقيقها بالتجربة وبالتطبيق ، وأنها تدل على حقيقة موضوعية ، وأنه ليس ثمة فى العالم أشياء لاتقبل المعرفة ، بل هناك فقط أشياء لم تعرف بعد، وهى أشياء سوف تكشف وتعرف بواسطة العلم والتطبيق .»(١)

---

(١) ستالين : « المادية الجدلية والمادية التاريخية » ، ص ١٢

من هذه الفقرة ، يتضح أن الماركسية تعطى التطبيق دورا أساسيا : كوسيلة لاكتشاف الحقيقة ، وكوسيلة لتحقيق المعرفة، وكأساس للعالم .

ا) دور التطبيق

لقد نقد انجلز نظرية الشيء فى ذاته عند كانط فى كلمات معروفة فقال :

« ان أقوى تفنيد لهذه التقليعة الفلسفية وكل ماشاكلها من التقليعات الأخرى هو التطبيق ، وبصفة خاصة التجربة والصناعة . فاذا استطعنا أن نثبت صحة ظاهرة طبيعية ، بأن نصنعها بأنفسنا وأن نحدثها بمساعدة ظروفها ، ثم اذا استطعنا فوق ذلك أن نستخدمها فى تحقيق أغراضنا ، فان هذا يقضى قضاء مبرما على « الشيء فى ذاته » الذى لايمكن ادراكه والذى أتى به كانط . فالمواد الكيمائية التى تستخرج من الكائنات العضوية النباتية والحيوانية ، ظلت « أشياء فى ذاتها » حتى قامت الكيمياء العضوية بتحضيرها الواحدة تلو الاخرى ، واذ ذاك أصبح مابها من « شيء فى ذاته » شيئا لذاتنا ، على ماحدث فى مادة الآليزارين مثلا (التى هى صبغة حمراء يحملها نبات الفوة) ، اذ لم نعد نستنبتها فى الحقول بواسطة جذور الفوة ، بل أصبحنا نستخرجها من قطران الفحم الحجرى بطريقة أسهل جدا وأرخص . كذلك كان النظام الشمسى الذى وضعه كوبرنيكس فرضا ظل ثلاثة قرون يمكن المراهنة على صحته بمائة أو بألف أو بعشرة آلاف مقابل واحد ... ولكنه كان رغم ذلك فرضا . فلما استطاع

ليفرييه بواسطة الأرقام التى حصل عليها من هــذا الفرض أن يصل ــ ليس فقط الى تقدير ضرورة وجود كوكب غير معروف ، بل أن يصل أيضا الى تقدير الموقع الذى يجب أن يوجــد فيه هذا الكوكب فى السماء ، ثم لما اكتشف جالى هذا الكوكب فعلا أصبح نظام كوبرنيكس ثابتا . » (١)

ولكن ، لماذا يتيح لنا تحليل التطبيق أن نفند هذه « النقليعة الفلسفية » التى هى اللاأدرية ؟ وكيف نفند نظرية من النظريات بواسطة التطبيق ؟ وهل يجعلنا ذلك « نخرج عن نطاق الفلسفة » كما يدعى المثاليون ؟

فلنلاحظ أولا أن وجهــة نظرهم لاتقوم على أســاس . فهم يقررون أن للعلم قيمة عمليــة وصناعيــة وأن هنــالك مجــالا لاستخدامه ، ولكنهم فى نفس الوقت ينكرون عليــه كل قيمــة نظرية ، لأنهم لايعترفون بأنه يعكس الواقع الموضوعى المستقل عن الذات . فكيف يتفق الرأى الاول والثانى ، أى كيف نفهم القيمة « العملية » للعلم ، ومن أين تأتى هذه القيمة « العملية » ؛ وبعبارة أخرى ، كيف يمكن أن نفصل بين النظرية والتطبيق ، ثم نعترف للعلم فى نفس الوقت بقيمة عملية ؟

الواقع أنهم لايحيرون فى ذلك جوابا . ففصل التجربة عن التطبيق لايمكن أن يعنى شيئا أكثر من التعــارض القــائم فى المجتمع الرأسمالى بين العمل الذهنى والعمل اليدوى .

---

(١) انجلز : « لودفيج فيورباخ » ، ص ١٦ ــ ١٧

ونذكر هنا ما لاحظناه من قبل من أن بوانكاريه اللاأدرى كان يصر على اعتبــار نظرية كوبرنيكس مجــرد فرض ، وبذلك كان يتجاهل التحقيق العملى الذى اثبت صــحتها . (انظر ايضــا الملاحظة (٢٢) للمترجم) .

فما هو المفهوم الماركسى للتطبيق ؟

ان الكلمة تنطبق فى الماركسية على المعانى التالية معا : أولا العمل والانتاج والصناعة . وثانيا أعمال البحث العلمى واجـراء التجارب والتحقيق التجريبى . ثالثا ، التطبيق الاجتماعى ، مثل ممارسة الصراع الطبقى ، وهو أرقى شكل من أشكال التطبيق، وعليه يقوم الشكل الأول والثـانى . فالتطبيق هو « فاعليـة الانسان فى تغيير الواقع » . وهو يبدأ بالعمل المادى والاحساس. ولقد كان كانط يعتبر الاحساس صـورة بسيطة ، ويعتبر الحساسية قوة سلبية . أما الجدل فيعتبر الاحساس حركة . وقد رأينا فى الفصل السابق أن الاحسـاس يرتبط بالنشـاط العملى . فالحساسية والفاعلية لاتنفصلان احداهما عن الاخرى، بعكس مايقول الميتافيزيقى كانط .

واذا كان التطبيق هو مصدر الاحساسات والانطباعات فى الخطوة الاولى للمعرفة ، فهو كذلك « انتاج لأشياء » .

وعندما يقول كانط : « اننا ندخل فى الاشياء » ، يفصل فى ذلك بين الموضوع والذات فصـلا ميتافيزيقيا ، ويقطـع مابين الفكر والواقع . وهـذا خطـأ جسيم . فنحن « ندخل » فى الأشياء بقدر ماننتج هـذه الأشياء ، لأن انتاجهـا يعنى ادخال فاعليتنا وفكرنا فيها . فاذا اسـتطعنا أن ننتج مادة الآليزارين « صناعيا » ، كان معنى ذلك أننا سيطرنا على طبيعتها وعرفناها فى ذاتها . والخلاصة أنه اذا كان لدينا عن شىء ما مفهوم صحيح ودقيق ، فان ثمرة تطبيقنا تكون مطابقة لما كنا ننتظره ، ويكون هذا هو التحقيق الموضوعى لمعارفنا . فكل شىء يرتبط ارتباطا لاينفصم بالعملية التى أحدثته . فاذا تدخل الانسان تدخـلا

صحيحا فى هـذه العملية عن طريق اثارتها ، فانه يرتبط بالشيء فى ذاته وينفذ فى داخله ، ويبرهن بذلك على صحة مفهومه عنه. قال انجلز :

« بمجرد أن نستخدم هذه الأشياء استخداما خاصا بنا ، على أساس الصفات التى ندركها فيها ، نضع بذلك دقة ادراكاتنا الحسية أو عدم دقتها على محك اختبار لا يخطىء . فاذا كانت هذه الادراكات خاطئة ، كان من الخطأ استعمال الشيء الاستعمال الذى أوحت الينا به ، ومن ثم لزم أن تفشل محاولتنا . أما اذا نجحنا فى بلوغ هدفنا ، واذا قررنا أن الشيء يطابق تصورنا له . وأنه يعطينا ماكنا ننتظره من استعماله ، فان هذا يكون الدليل الايجابى على أن ادراكاتنا عن الشيء وصفاته تتفق ، فى حدود هذا الاستعمال ، مع الواقع الموجود خارجنا . واذا انقلب الأمر وفشلنا ، فاننا لن نلبث أن نكتشف علة فشلنا ، اما بأن نجد أن الادراك الذى كان أساس محاولتنا ناقص أو سطحى فى حد ذاته ، واما بأن نجد أنه ارتبط بمعطيات ادراكات أخرى بطريقة لا يبررها الواقع . وهـذا مانسميه التدليل الخاطىء . ولكن بقدر مانهتم بتثقيف حواسنا واستخدامها استخداما صحيحا ، وبقدر مانقصر فعلنا على الحدود التى ترسمها ادراكاتنا المتحصلة بطريقة صحيحة (أى تحت توجيه العلم) والمستخدمة استخداما صحيحا ، بقدر مانجد أن نتيجة فعلنا تبرهن على اتفاق ادراكاتنا مع الطبيعة الموضوعية للأشياء المدركة . » (١)

ولنذكر هنا عبارة انجلز أيضا : « دليل وجود الفطيرة هو ؟

---

(١) انجلز : « المادية التاريخية » فى « دراسات فلسفية » ، ص ٩٣ — ٩٤

تأكلها » ، ودليل صحة العلم ، هو أنه يتيح لنا تغيير العالم الطبيعى والاجتماعى . وفى هذا قال ماركس :

« ان مسألة معرفة ما اذا كان الفكر البشرى يستطيع أن يصل الى حقيقة موضوعية أم لا ليست مسألة نظرية بل مسألة عملية. ويجب على الانسان أن يتجه الى التطبيق ليثبت واقعية وقدرة فكره . » (١)

وهكذا يعطينا التطبيق معيار الحقيقة . ولكن قد يسأل سائل : لماذا كان الأمر كذلك ، ولماذا كان العلم ممكنا ، وما هو أساس امكان العلم ، أى ماهو أساس الحقيقة ؟

وجواب هذا السؤال فى الفصل السابق .

ولننظر الى موقف كانط من هذه المشكلة .

ان كانط يشك فى قدرة «الروح البشرية» على معرفة الواقع ، ويتخيلها غريبة عن المادة وسابقة على التجربة . ثم انه يعتقد أنها ثابتة ولا تقبل التغييرات . وفى هذا ، نكشف موقفه الميتافيزيقى المنافى للجدل ، ونضع أيدينا على الفرض الذى تفترضه كل مثالية تعتبر الروح موجودة منذ الأصل ، وفيها «الملكات» التى كانت وستبقى الى الابد .

وقد رأينا المادية على عكس ذلك تبرز مسألة أصل الروح البشرية ، وتحلها بأن تبين أنها نتاج التطور ونتاج خبرة البشرية فى آلاف السنين ، ونتاج التطبيق . فالوعى نتاج اجتماعى . فاذا كان الوعى قد خرج من الطبيعة والمجتمع ، فهو ليس بالغريب عنهما . ومن هنا يستطيع أن يعكس قوانين المجتمع والطبيعة بطريقة صحيحة . « فجدل الأشياء هو الذى ينتج جدل الأفكار

---

(١) ماركس : « لودفيج فيورباخ » ، ص ٥١

وليس العكس . » (لينين)

فكيف تفسر المادية الخطأ على ضوء هذه الظروف ؟ ومن أين يتأتى على الخصوص أن توجد مفهومات خاطئة عن العالم مثل المفهومات المثالية ؟

ان الاجابة على هذه الأسئلة لابد أن تقوم على حقيقة واقعة هي أن للأشياء وجوها متكثرة تكشفها حواسنا الواحد تلو الآخر بفضل تطور نشاطنا العملى . واذا وقفنا عند واحد من هذه الوجوه . لما أمكن أن نحصل على معرفة صحيحة للشيء . فنحن مثلا لانستطيع أن نعرف بدقة شكل العصا المغموسة فى الماء اذا اقتصرنا فقط على شهادة العينين . والأمر كذلك بالنسبة لكل الأشياء . فالخطأ ليس مطلقا . ولكنه يتولد عندما تنعزل لحظة من لحظات التطبيق عن اللحظات الأخرى . ولهذا كان من الممكن دائما تصحيح الخطأ واستبعاده بواسطة التطبيق نفسه .

وفى الفصل السابق رأينا أن المعرفة تشمل خطوتين ، هما الاحساس والمعنى العام . ويكون الانتقال من الأولى الى الثانية تعميما . وهنا نجد مصدرا ثانيا للخطأ . اذ يحدث أن نستخلص نتائج عامة من أسس غير كافية . وهذا شأن ذلك الذى يلاحظ سلوك بعض الساسة البرجوازيين فيقرر أن كل السياسيين فاسدون . فهاهنا نجد أسلوب التفكير الميتافيزيقى الذى يرفع أحد وجوه الواقع الى مرتبة المطلق . وهاهنا أيضا يكون النقص فى تحليل الأشياء العينية مصدرا للخطأ . الا أنه يجب أن نلاحظ أنه مع بدء التعميم يبدأ امكان الابتعاد عن الواقع وتشويه الصورة التى نصنعها عنه . فالخطأ ليس مطلقا ، بل هو حقيقة مشوهة . ففى نفس عملية المعرفة يوجد امكان

التحليق الخيالى خارج الواقع ، على ماقال لينين • ذلك لأن الأفكار تملك قوة تسلسل خاصة بها • وهى متى وجدت توجد فى ذاتها • وبعبارة أخرى يستطيع نشاط المخ أن يجرى بقوى ذاتية نسبيا ، وذلك بأن ينفصل عن التطبيق الذى يملك وحده القدرة على الحكم على قيمة التركيبات الفكرية التى تتكون بعيدا عنه • وهنا يكون التطبيق هو الوسيلة الوحيدة لتحديد الخطأ لأنه يفرض على الفكر أبعاد الحقيقة ، أى أنه يجذب الفكر الى الأرض •

ويجب أن نلاحظ أن أساليب معينة فى الانتاج والحياة الاجتماعية لاتساعد على عملية استبعاد الخطأ فى شكلها الحتمى المستمر • فنحن نجد مثلا أن ضعف تطور الانتاج فى المجتمعات الأولى لم يكن يتيح للانسان أن يكتشف العلل الحقيقية للظواهر • ومن ثم كان الانسان يفسرها بعلل خيالية • وبهذه الطريقة نشأت الأساطير والخرافات والعقائد الدينية البدائية •

قال انجلز :

« ان غريزة تشخيص قوى الطبيعة خلقت الآلهة فى كل مكان ••• وهى بوصفها مرحلة انتقال لازمة ، تفسر انتشار الأديان (اذ ذاك) • » (١)

وعندما انقسم المجتمع الى طبقتين متطاحنتين ، احداهما تعمل والأخرى تملك وتوجه الانتاج وتضع المشاريع ، وبالتالى تستطيع أن تتخصص فى عمل عقلى معين ، ساعد هذا الأمر

---

(١) انجلز : « الرد على دورنج » ، ص ٣٨٠ . وانظر أيضا الدرس التاسع النقطة الخامسة

على تطور المفاهيم التأملية الخالصة . ولكن الانسان كان فى نفس الوقت يستخدم منتجات نشاطه الذهنى ، وهى الأفكار ، فى توجيه الانتاج والحياة الاجتماعية . ومن هنا ظهرت هذه الأفكار فى صورة المصدر الحقيقى للواقع ، وكأنها لا تعتمد فى وجودها الا على ذاتها . وهذا الوضع المقلوب للعلاقة بين الواقع الموضوعى والأفكار ، هو لذى يخلق المفهوم المثالى للعالم ، وهو الذى يلبس كل شيء من الأشياء صورة معكوسة « خرافية » ، ومن ثم يبلغ أعلى درجات الخطأ .

ومعنى ذلك أن المادية لا تدحض المثالية فحسب ، بل أيضا تشرح مصدرها . وقد قال لينين ان المثالية عبارة عن « تضخم » فكرى ، بمعنى أنها شكل من أشكال المعرفة يبالغ فى الاطلاق، دون ارتباط بالمادة . والمثالية تعكس الواقع بلا شك ، ولكن رأسا على عقب ، أى تجعله يمشى على رأسه لا على قدميه . قال ماوتسى تونج :

« ان المعرفة المنفصلة عن التطبيق لا يمكن تصورها . »

ب) تزييف المعنى الماركسى للتطبيق

كسبت فكرة التطبيق بصعود الماركسية أهمية بالغة، جعلت من المستحيل تجاهلها . ولهذا عملت البرجوازية الرجعية على تبنيها وتزييفها . فتظاهرت بالبحث هى أيضا عن فلسفة عمل . وكانت هذه الفلسفة هى المذهب الذى يسمى بالبرجماتية .

---

(١) ماوتسى تونج : « فى التطبيق » .

وقد نشأت البرجماتية فى الولايات المتحـدة فى عصر التوسع الاستعمارى ، ثم أحرزت انتشـارا كبيرا فى أوروبا ، خصوصا منذ الحرب العالمية الثانية .

وتدعى البرجمـاتية أنه مادام التطبيق يثبت صحة المعرفة ، فمعنى ذلك أن كل ماينجح وكل ماهو نافـع يكون صحيحا . فالبرجماتية تبدأ من هذه العبارة « كل ماهو صحيح نافع » ، ثم تقلبها وتقول : « كل ماهـو نافع صحيح » . ومن هـذا يتضح أن البرجماتية هى نقيض الماركسية تماما .

وليس من العسير أن ندرك أن البرجماتية نوع مبتـذل من أنواع اللا أدرية . فهى ترى أن أساس الحقيقة ليس مطابقـة الواقع وليس صواب الانعكاس الذى يحققه الواقع ويوجهه ، بل هـو ببساطة النفع . ولـكن نفع من ؟ هل هو نفع زيد أم نفع عمرو ، وهل هو نفع البرجوازية، أم نفع البروليتاريا ؟ فلا شك أن كل ماهو صحيح يكون نافعا ـ ولكن ليس لدى هؤلاء الذين يحتـاجون الى الكذب .. فالـكذب عنـد البرجوازية الرجعية هو الأكثر نفعا . أما عند البروليتاريا ، فالحقيقة وحدها هى التى يمكن أن تكون ذات نفع . الا أن البرجماتية لا ترى ذلك ، لأنهـا تعتبر الحقيقة ذاتية وليست موضوعية . والواقع أنها تنفض يديها من الحقيقة نفسها .. فهى فلسفة جهل ، وهى أشد أنواع المثالية تخلفا .

تقول البرجماتية مثلا : « الدين موجود ، ثم انه ينفع أناسـا معينين . اذن فهو صحيح . » (٢٥) وبهذا تخضع البرجماتيـة الحقيقة لمصلحة الطبقة الحاكمة لا أكثر ولا أقل ، وتعتبر نموذجا

لأيديولوجية البرجوازية المنهارة التى تنكر العلم • فالبرجماتية تتجه اذن اتجاها مكياڤيليا • وقد استخدم مكارثى مثل هـذا الاتجاه عندما برر قتل الزوجين روزنبرج بصالح « الدولة » و « الصالح العام » • فكل مايخدم مصلحة رأس المال يصدر حكم البرجوازية بصلاحيته •• حتى لو تناقضت هذه الأحكام •

وتتعلل البرجماتية بأنها فلسفة عمل ، فتوصى بالعمل الذى ينجح بغض النظر عن مبادئه • ومعنى ذلك أنها ترى النفع غاية تبرر وسائلها • وهذه هى فلسفة مغامرى الفاشست الذين كانوا يقولون : « الحقيقة هى مايعتقده موسولينى فى هذه اللحظة • »

ثم ان البرجماتية توصى فى موضوع العلم بالتخلى عن النظرية والفكر والتنبؤ ، وتنادى باستخدام التجارب عن طريق المصادفة وأيا كانت هذه التجارب • فاذا نجحت كان بها ، واذا لم تنجح فيا للأسف • وبهذا توافق البرجماتية على «التجارب» المحرمة • وقد لعبت هـذه « النظرية » الدنيئة دور المستند الفكرى للأطباء النازيين وأقرانهم اليابانيين ، عندما كانوا يجرون التجارب على الأسرى • وهى اليوم نظرية أقرانهم الامريكيين فى ميدان الحرب الجرثومية •

والعجيب أن أصحاب النظريات البرجوازية فى محاولتهم أن « يبرروا »المفهوم البرجوازى للتطبيق ، يعملون فى نفس الوقت على أن ينسبوا البرجماتية الى الماركسيين • فهم يدعون أن الماركسيين يقيسون الأشياء بمقدار «قوة مفعولها» ، ولايعتبرون الشىء صحيحا الا اذا كان ينفع خططهم الطائفية الغامضة ! بل ان بعض أصحاب النظريات ينسبون الى الماركسيين نظرية «الكذب الحيوى »التى وضعها هتلر !

ولكن المفهوم الماركسي جد مختلف.فالفكرة لاتكون صحيحة لأنها نافعة . بل انها على عكس ذلك تكون نافعة أي يمكن تطبيقها ، عندما تكون صحيحة أي قائمة على أساس موضوعي. ذلك لأن التطبيق كما لاحظ من قبل الفيلسوف العقلي ديكارت (١) ، « يعاقب » المفهوم المغلوط والمنهج الخاطىء . وهذا ما يقاسي منه الاستعمار الامريكي كل يوم ، تماما كما كان يقاسي منه هتلر . فالفكرة لاتصبح خاطئة لأنها تفشل ، ولكنها على عكس ذلك تفشل لأنها كانت خاطئة موضوعيا .

فالنظر الى الكذب « النافع » كمرادف للحقيقة هو «تكتيك» الانتهازيين . ولا يمكن أن ينادي بمثل هذا الأسلوب سوى الوصوليين عديمي المبادىء والمغامرين الذين يخلقهم الانهيار الاستعماري . أما الماركسية فلا تضحي بالحقيقة أبدا . فالماركسيون يعرفون كيف يحتملون « الفشل » الظاهري والمؤقت ، وكيف يستخرجون منه أكبر فائدة في التطبيق ، دون أن يتنازلوا عن الحقيقة العلمية . وفي زمن ما . وقف الشيوعيون وحدهم في فرنسا يدينون مشروع مارشال بوصفه معارضا للمصلحة الوطنية . وكانت البرجماتية تقف دائما في الجانب الذي تهب منه الريح ، ولا تبحث الا عن النجاح المباشر . الا أنه أمكن بالتطبيق اثبات صحة المعطيات النظرية التي قامت عليها ادانة مشروع مارشال ، ومن ثم أمكن ابراز الحقيقة أمام أعين الجماهير الواسعة ، وأمكن أن يتضح لهم أي التقديرات كان مطابقا للواقع وأيها كان منافيا له .

بهذا المعنى يكون التطبيق هو « معيار » الحقيقة .

---

(١) « المقال في المنهج » ، الجزء الاول

٣ ـ الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة

يتيح لنا التطبيق اذن أن نتحقق من دقة الفكرة التى نكونها عن صفات شيء من الأشياء . فماذا يتبقى بعد ذلك لما يسميه كانط « الشيء فى ذاته » ؟ لا شيء .

والواقع أن الجدل (وحتى الجدل المثالى عند هيجل) يقول أن التمييز بين صفات الشيء والشيء فى ذاته تمييز أجوف . فاذا عرفنا كل صفات شيء ما ، عرفنا الشيء ذاته . ثم يبقى أن تكون هذه الصفات مستقلة عنا — وفى هذا بالذات يتحدد معنى مادية العالم . ولكن مادمنا نعرف صفات هذا الواقع الموضوعى فلا يمكن أن يقال عنه انه غير قابل للمعرفة . فمن السخف أن نقول مثلا : « شخصيتك شيء وصفاتك وعيوبك شيء آخر ، وأنا أعرف صفاتك وعيوبك ولكننى لا أعرف شخصيتك » ... ذلك لأن الشخصية هى بالضبط مجموع العيوب والصفات . وكذلك فن التصوير هو جماع أعمال الصور . فمن السخف أن نقول : هناك اللوحات والرسامون والألوان والأساليب والمدارس ، ثم هناك « التصوير » فى ذاته معلقا فوق الواقع وغير قابل للمعرفة . فليس هناك قسمان للواقع ، بل الواقع كل واحد nun tot نكتشف بالتطبيق وجوهه المختلفة على التوالى .

وقد علمنا الجدل أن الصفات « المختفية » للأشياء تكشف عن نفسها بواسطة الصراع الباطن للأضداد ، وهو الذى يصنع التغير . فحالة السيولة « فى ذاتها » هى بالضبط حالة الاتزان

النسبى الـذى ينكشف تناقضـه البـاطن فى لحظة التجمد أو الغليان . ومن هنا قال لينين :

« لا يوجد ولا يمكن أن يوجد أى فارق مبدئى بين الظاهرة والشىء فى ذاته . وليس ثمة فرق الا بين ما هو معروف وبين ما لم يعرف بعد . » (١)

فكلما ازداد عمق معرفتنا للواقع ، أصبح الشىء « فى ذاته » تدريجيا شيئا « لذاتنا »

وهكذا نرى أن النظرية المادية الجدلية للمعرفة تعترف بوجود حقيقة مطلقة ، بمعنى أنها تطابق الواقع نفسه . فاذا كان كانط يعتبر الحقيقة نسبية الى الروح البشرية ، فالماركسية على عكس ذلك تحدد الحقيقة كعملية طبيعية ، أى كانعكاس يزداد دقة فى وعى الناس ، عن الواقع الموضوعى خارج هذا الوعى . فالادعاء بأن الماركسيين ينكرون الحقيقة هو اذن تشهير زائف .

الا أننا اذا رجعنا الى مثال السائل ، رأينـا المحتوى البـاطن للظاهرة لا يظهر الا بواسـطة التغير . ومعنى ذلك اذن انه يجب أن ننتظر أحيـانا حتى تبـلغ الظاهـرة درجة معينة من التطور والنضج لكى تظهر لنا حقيقتها بالتحديد . اذ عنـد ما تكون التناقضات أحدث مما يجب لا نستطيع تمييزها . وهذا ما يجعل من العسير أن ندرس مثلا الظواهر الأولى لكائن حى . ولنفس هذا السبب نجد أن قروح الرأسـمالية وتناقضـاتها المزمنة التى لا تنحل ، تزداد وضوحا فى أعين الجماهير العريضة كلما أشرفت

---

(١) لينين : « المادية والنقد التجربى » ، ص ٨٥ .

الرأسمالية على الموت . قال الفيلسوف الجدلى هيجل :

« ان البومة (رمز العلم والحقيقة) لا تنطلق فى الفضاء الا اذا ظهر الشفق الأحمر . »

ومعنى ذلك اذن أن نفس تطور الظواهر هو الذى يتيح لنا تقدم المعرفة . ولهذا يجب أن نعرف كيف نلاحظ بصبر ، وكيف نحسب حساب الزمن اللازم لكى تتكون فى مخنا انعكاسات الواقع . (١) قال لينين :

« المهم فى نظرية المعرفة كما هو مهم فى كل مجالات العلم ، هو أن نبنى استدلالاتنا بطريقة جدلية دائما ، بمعنى ألا نفترض أبدا أن وعينا ثابت وتام ، بل نحلل العملية التى عن طريقها تنشأ المعرفة من الجهل أو تتحول المعرفة الغامضة الناقصة الى معرفة أكثر اكتمالا ودقة . » (٢)

فهل هناك اذن أشياء لا تقبل المعرفة قط ؟ كلا . انما هناك فقط أشياء غير معروفة ، « سوف يتم كشفها ومعرفتها عن طريق العلم والتطبيق . »

ويؤكد تاريخ العلم ألا وجود لشىء لا يقبل المعرفة ، كما يؤكد استمرار تحول المجهول الى معلوم . أما كانط ، فكان على عكس ذلك يعتبر المسائل غير قابلة للحل . فقد كان أفقه العلمى محدودا بحدود العلم فى زمنه ، اذ مثلا لم تكن الكيمياء العضوية والبيولوجيا (علم الحياة) ، قد وجدتا بعد . ولكن آفاق العلم اتسعت منذ ذلك الحين .. وان كان أتباع كانط

(١) لا يتنافى ذلك قط مع امكان تعجل عملية المعرفة بواسطة التخيل أو الاستباق العلمى ، أى الفرض .

(٢) لينين : «المادية والمذهب النقدى التجريبى» ، ص ٨٥ ــ ٨٦

لا يرغبون اليوم فى ادراك ذلك !

وهكذا نجد أن اللاأدرية متشائمة تشكو من عجز « الروح البشرية » ، بينما المادية متفائلة لاتعترف بأن هناك مسألة لايمكن حلها (كالسرطان مثلا) . فليس هناك سوى المجهول المؤقت . ولكن النظام الرأسمالى فى عرقلته لانطلاق العلم يمد هذا المؤقت فيجعله أبديا . أما المادية فتتيح لنا أن نخطط تطور العلم بأن نتنبأ بالمجالات التى تنضج فيها الاكتشافات ، ثم نتخذ كافة الاجراءات للتعجيل بها . أو لم يحدث دائما فى الماضى أن الاكتشافات التى بلغت نضجها كانت تتحقق فى نفس اللحظات تقريبا على أيدى علماء لا يعرفون بعضهم بعضا ؟ (٣٦) ان هذا لدليل رائع على أن المعرفة عملية طبيعية تستثيرها فينا الأشياء .

الا أنه يجب أن نلاحظ كذلك أن تطور ظاهرة ما لا يكون مستقلا عن كل الظواهر الأخرى . فكل الأشياء مترابطة والطبيعة لا نهائية فى المكان وفى الزمان . والطبيعة تنتج الجديد دائما ، أى أن جعبتها لاتفرغ . ولهذا كان تطور المعرفة لا نهائيا هو أيضا . فهناك فى العالم الكثير من الأشياء التى لم تدخل فى معرفتنا قط . ولكن مادامت كل الأشياء مترابطة ، فان ما نجهله يرتبط بما نعرفه . وبناء على ذلك لا يمكن أن يتوقف العلم عند نقطة بعينها . وبهذا المعنى تكون كل حقيقة من حقائقه — فى حد ذاتها — حقيقة نسبية ، لأنها تكون نسبية الى كل الحقائق الأخرى ، ومرتبطة بالحقائق التى لم تكتشف بعد . فبعد اكتشاف الذرة اكتشف الالكترون أو النواة ، وبعد اكتشاف النواة اكتشفت دقائق أخرى (النيترون مثلا) .. ولكن ليس هناك ما يدعو الى الاعتقاد بامكان استنفاذ ما فى

جعبة الواقع . قال لينين : « حتى الالكترون نفسه لا يمكن استنفاذ حقائقه . »

غير أن هذا لا يمس القيمة الموضوعية لمعارفنا ، لأنه « فى النسبى يوجد المطلق »

« فالمادية الحديثة . أى الماركسية ، ترى أن حدود اقتراب معارفنا من الحقيقة الموضوعية المطلقة ، حدود نسبية تاريخيا ، أما نفس وجود هذه الحقيقة فلا نزاع فيه ، تماما كما أنه لانزاع فى أننا نقترب منها . فمعالم هذه الصورة (البشرية) نسبية تاريخيا ، ولكن الامر الذى لانزاع فيه هو أن هذه الصورة تمثل نموذجا موجودا فى الخارج . فاذا كنا فى هذه اللحظة أو تلك ، وفى هذه الظروف أو تلك ، قد تقدمنا فى معرفة طبيعة الأشياء الى درجة اكتشاف الآليزارين فى قطران فحم الحجر واكتشاف الالكترونات فى الذرة ، فهذا واقع نسبى تاريخيا . ولكن الواقع الذى ليس نسبيا قط ، هو أن أى اكتشاف من هذا النوع يكون تقدما فى « المعرفة الموضوعية المطلقة » . » (١)

وترتيبا على ذلك لاتوجد نظرية علمية دقيقة تصبح مع الزمن خاطئة أو بالية ، بل ان كل نظرية علمية تحفظ قيمتها . فاذا تكشفت فيها جوانب قصور أو ضيق ، أمكن تخطيها بما تقدمه الخبرة من زاد لا يفرغ . فتقدم العلم ليس مسابقة فى الأصالة والتفنن ، بل هو تقدم فى الحقيقة ، أى فى العمق . (٢٧)

---

(١) لينين : « المادية والنقد التجربى » ، ص ١١٦ .

٤ ـ وحدة النظرية والتطبيق

ترى المادية الجدلية أن المعرفة ليست عملية « تفسر » بها الروح معطيات الحواس ، بل هى عملية مركبة تزداد بواسطتها دقة انعكاس الواقع فى المخ البشرى . ونحن نعلم أن هذه العملية تشمل خطوتين متميزتين كيفيا هما : الخطوة الحسية والخطوة العقلية ، أو التطبيق والنظرية . وقد رأينا أن التطبيق هو نقطة البدء اللازمة للنظرية ، أى مصدر المعرفة ، وأنه كذلك معيار صدقها . ومعنى ذلك اذن أن أى نظرية يجب أن تعود مرة أخرى الى التطبيق . ويرجع هذا لسببين : أما الأول فهو أن النظرية توضع بالذات من أجل التطبيق . فهى لاتوضع من أجل ارضاء فضول لا جدوى منه يتلذذ به هؤلاء الذين يهوون تأمل العالم ، بل ان النظرية توضع بالذات لتساعد على تغيير العالم . والسبب الثانى هو أنه مادام الواقع حركة مستمرة وتغير مستمر ، فان النظرية التى تكتفى بذاتها لابد أن تجدب وتتحول الى عقيدة جامدة ميتة . فعملية المعرفة تتوقف اذا لم ترجع دائما الى التطبيق ، اذ يصبح من المستحيل أن تحصل على مزيد من الدقة فى انعكاس الواقع ، أو أن نصحح نقائص النظرية ، أو أن نتعمق معرفة العالم .

ويطلق اسم « التجريبيين » على الفلاسفة الذين يرون أن المعرفة كلها تتوفر فى الخطوة الأولى ألا وهى الاحساسات . (٢٨) ويطلق اسم « العقليين المثاليين » على هؤلاء الذين يعترفون بدور الأفكار أو المعرفة النظرية ، ولكنهم يرون أن

هذه الأفكار تهبط من السماء ولا تخرج من التطبيق . وهؤلاء وأولئك يفصلون فصلا تعسفيا بين خطوتى المعرفة ، لأنهم لايفهمون وحدتهما .

فمن المهم اذن أن نفهم معنى وحدة النظرية والتطبيق . ويمكن أن ندرك أهمية هذا الفهم فى مجال التطبيق الثورى . فها هنا كماهو الحال فى العلوم ، لايستطيع كل فرد أن يجرى بنفسه التجارب على كل شىء . فالتجربة الاجتماعية تتراكم ، ثم تضعها النظرية وضعها الصحيح ، ويصبح على كل فرد أن يجتهد فى استيعابها اذا أراد ألايقع فى مفهومات سبق أن اعترف الجميع بخطأها وسبق تصحيحها .

ومعنى ذلك أن من يهمل النظرية يقع فى فلسفة الممارسة praticisme فيسلك كما يسلك الأعمى ويتخبط فى الظلام . أما ذلك الذى يهمل التطبيق فيقع فى الجمود المذهبى dogmatisme ، ويتحول الى صاحب مذهب لا أكثر ، وصاحب تدليلات عقلية جوفاء .

« فمن البديهى أن النظرية اذا لم ترتبط بالتطبيق الثورى تفقد موضوعها ، شأنها شأن التطبيق الذى يصبح أعمى اذا لم تضىء النظرية الثورية طريقه . » (١)

وهكذا يتيح لنا المفهوم الماركسى للمعرفة أن ندحض الفكرة الخاطئة التى تقول ان التمسك « بالحياد » و « الموضوعية » فى ملاحظة الحقيقة ذاتها ، يستلزم الابتعاد عن التطبيق . فهذه هى « الموضوعية » البرجوازية ، التى تستخدم أداة فى محاربة

---

(١) ستالين : « مبادىء اللينينية » ، ص ١٨ باريس ، ١٩٥١ .

الماركسية .. وان مثل هذه « الموضوعية » قد تؤدى الى القول بأن عالم الطبيعة لايستطيع أن يكون موضوعيا بعد اجراء التجارب ، لأنه يكون قد « تأثر » بتجاربه !!

قال ماوتسى تونج :

« اذا كنت تعمل على اكتساب المعارف ، يجب أن تشارك فى التطبيق الذى يغير الواقع . واذا كنت تريد أن تعرف طعم الكمثرى ، يجب أن تأخذها فى فمك وتمضغها . واذا كنت بحث عن معرفة ترتيب وطبيعة الذرة ، يجب أن تباشر عليها خبرات فيزيائية وكيمائية وأن تغير وسط الذرة . واذا كنت تريد أن تعرف نظرية الثورة وأساليبها ، يجب أن تشارك فى الثورة . فكل المعارف الصحيحة ثمرات للخبرة المباشرة . » (١)

ومعنى ذلك أنه من المستحيل أن تتمثل الماركسية تمثلا صحيحا وعميقا اذا عقدناأيدينا ووقفنا نتأمل أعمال الآخرين بدلا من أن نشارك فيها . وهذا ما يكرهه المنظرون من البرجوازية الصغيرة ، الذين يدعون أنه لايمكن الحكم على قيمة الماركسية الا من موقف بعيد عن الحركة الماركسية ، حيث تقوم النظرية وتتحقق وتغتنى . فلا يتيح لنا أن نكتشف حقيقة المجتمع الرأسمالى سوى التطبيق ، لأنه يستهدف تحويل الظروف التى يتحرك فيها المجتمع . ثم ان التطبيق يحتاج حتما الى الحقيقة ، لأنه بدون نظرية صحيحة يصيبه الفشل . ولهذا :

« تفترض المادية نوعا من الروح الحزبية . فهى تحتم علينا

---

(١) ماوتسى تونج : « فى التطبيق » ، ص ٢٠٤ .

من أجل تقدير قيمة الأحداث أن تتمسك صراحة وبلا التباس بوجهة نظر جماعة اجتماعية معينة . » (١)

قال ماوتسى تونج :

« تكشف الحقائق عن نفسها خلال التطبيق ، وتتدعم الحقائق وتتطور خلال التطبيق . فيجب أن تنتقل بطريقة فعالة من الاحساسات والادراكات الحسية الى المعرفة العقلية ، ومن المعرفة العقلية الى التوجيه الفعال للتطبيق الثورى ، أى الى تغيير العالم الذاتى والموضوعى . فالتطبيق ينتقل الى المعرفة ، ثم يحدث الانتقال مرة أخرى الى التطبيق ، ثم مرة أخرى الى المعرفة . وهذه الحركة لا نهاية لها فى تكرارها الدائرى. ولكن محتوى كل حلقة من حلقات التطبيق والمعرفة يرتفع الى مستوى أعلى بالنسبة للحلقة السابقة . » (٢)

فمن الخطأ الجسيم اذن ألا ننظر الى الماركسية كعلم ، بل نعتبرها مجرد نظرية تحدد المفهوم « الذاتى » للتاريخ عند البروليتاريا (أى تفسيرها الذاتى للأحداث) ، اذ سيترتب على ذلك أن يصبح البروليتاريون فى غير حاجة لتعلم الماركسية ، مادامت الماركسية وجهة نظرهم التلقائية ، كما أنه سيصبح من واجب غير البروليتاريين ألا يتعلموا الماركسية مادامت لاتمثل وجهة نظرهم ! ولكن الحقيقة عكس ذلك. فالماركسية علم. وكل الناس يحتاجون الى تعلمها ، ويجب أن يتعلموها ، لأنها ليست كمالية

---

(١) لينين : « المؤلفات » ، المجلد الأول ص ٣٨٠ — ٣٨١ ، الطبعة الروسية الرابعة .

(٢) ماوتسى تونج : « فى التطبيق » ، ص ٢٥٢ .

بالنسبة لأحد ، وليست محرمة على أحد .

والموضوعية لا تعنى عدم الانحيــاز الى أى نظرية ، بل تعنى التمســك بالنظرية التى تطابق العمليــات الموضــوعية للتطور الاجتماعى . ولا يمكن أن تتحقق من هذه المطابقة الا بالتطبيــق الاجتماعى . ثم ان التطبيق الاجتماعى لا يصنع عمليات التطور ، بل كل ما يفعله هو أن يساعدها ، تماما كما يســتطيع العالم فى معمله أن يتعجل حركة عملية من العمليات ، ولكنه لا يملك أن يلغى قانونها أو أن يصنعه .

وترتيبا على ذلك يجب علينا ألا نهزم اللاأدرية نظريا فحسب، بل يجب أيضا أن نهزمها عمليا ، وذلك بأن نقدم بعملنا الدليــل على امكان التأثير فى العالم بالمعرفة، أى الدليل على أن الماركسية هى الحقيقة التاريخية . فبينما تقول اللاأدرية عن الحرية مثلا : من المسئول ؟ لا ندرى !.. يحقق كل الشرفاء فى العالم أعمــالا تؤدى بهم الى اكتشاف صانعى الحروب. وبهذه الطريقة تتحقق البروليتاريا بخبرتها من قيمة المادية الماركسية ، أى قيمتهــا فى التنبؤ العلمى . ومن ذلك حكمت البروليتاريا بأن الخطأ الوحيد الذى يرتكبه الشيوعيون ، هو أنهم يفهمون قبل غيرهم ! ولا شك أن من يتنبأ بدقة ، لابد وأن يملك علما دقيقا .

فاللاأدرية تخدم مصالح الطبقة البرجوازية : اذ لو لم يوجد علم المجتمع كما تريد اللاأدرية ، لما استطعنا أن نتنبأ بشىء ، ولما وجب علينا أن نفعل شيئا . وبهذا تنام الطبقة الحــاكمة ملء جفونها .

ومعنى ذلك أن اللاأدرية تؤدى بالمســتغلين الى الاستسلام .

أما اذا كانت المعرفة العلمية للمجتمع ممكنة ، فان العكس يحدث . فالمقهورون والمستغلون يستطيعون اذذاك أن يكسبوا هذه المعرفة ، ثم يجعلوا من وحدة التطبيق والنظرية نجمهم الهادى فى النضال .

واللاأدرية تؤدى الى الشكية والتشاؤم ، لأنها تعكس واقع أناس تتخطاهم الأحداث التى لا يفهمونها ، أناس لا يؤمنون بأى شىء . أما المادية الجدلية ، فتؤدى الى التفاؤل العاقل ، وتتيح لنا أن نفهم أن الانسان يستطيع أن يوجه الأحداث بوعى .

فالمادية تلهم الثقة التى لا حد لها فى قدرة الفكر المربط بالعمل . وبهذا تتضح الحقيقة العميقة فى قول ماركس :

« كل ما كان يفعله الفلاسفة هو أن يفسروا العالم تفسيرات شتى .. ولكن المشكلة هى أن نغيره . » (١)

---

(١) ماركس : « الفكرة الحادية عشرة عن فيورباخ » فى « لودفيج فيورباخ » ، ص ٥٣ .

الباب الثانى

المادية الجدلية والحياة الفكرية في المجتمع

المادية الجدلية هى وحدها التى تقدم اجابة علمية عن مسألة الوعى كما تناولناها فى الباب السابق . وهى وحدها التى تتيح لنا كذلك أن نفهم مصدر وفعل الأفكار والنظريات الاجتماعية ، والآراء السياسية ، التى تعتبر جزءا من تركيب المجتمع .

ومسألة الوعى أو الشعور مسألة ذات وجهين يجب التمييز بينهما بعناية ..

أما الوجه الأول فهو ظهور الأشكال المتنوعة للشعور فى الحياة الاجتماعية .

وأما الوجه الثانى فهو أهمية هذه الاشكال والدور الذى تلعبه فى الحياة الاجتماعية .

والفصل الأول يتناول الوجه الأول ، والفصل الثانى يتناول الوجه الثانى .

أما الفصل الثالث فيدرس أصل الاشتراكية العلمية وأهميتها .

الفصل الاول

الحياة الفكرية في المجتمع انعكاس لحياته المادية

تقول احدى كتيبات « اليونسكو » ان الســلام لا يمكن ضمانه الا عن طريق « تحقيق سلام النفوس » ، وانه يجب اذن أن نقتل الحرب فى روح الناس اذا أردنا أن نقضى عليها . ومعنى ذلك باختصار أن الحرب ترجع الى أسباب ذاتية ، أى أن سبب الحروب هو ما يسميــه أصــحاب التحليــل النفسى « غريزة العدوانية » الكامنة فى وعى كل انسان ، أو «الحقد الوراثى» ، أو ما الى ذلك ..

ومثل هذا التصور لأسباب الحرب تصور مثالى . أما موقف المادية الماركسية فيختلف عن ذلك تماما ، اذ أنها ترى أن سبب الحروب يكمن فى الواقع الموضوعى للمجتمعــات . فالحروب ترجع فى عصر الامبريالية الى الأزمات الاقتصادية التى تستلزم استخدام العنف فى البحث عن أسواق جديدة لتصريف الانتاج. ومعنى ذلك أن هناك قانونا موضــوعيا يفسر الحروب . وهذا القانون هو قانون الربح الأقصى .

أما العملية الذاتية التى هى فكرة الحرب والحقــد وغريزة العدوانية وغيرها ، فترجع بالضبط الى التناقضات المادية التى

تصنع الموقف الموضوعي لحرب من الحروب . وهكذا يفسر الواقع الموضوعي ظهور العملية الذاتية وليس العكس ، أى أن التناقضات المادية تفسر مشاعر البغضاء والعدوانية وما اليها .

وهناك أمثلة أخرى يمكن أن نذكرها فى هذا الصدد . من ذلك مثلا ما ظهر فى الأزمنة الحاضرة بشكل عام من تعارض قوى بين أيديولوجية الرأسمالية المحتضرة ، وهى أيديولوجية الأحقاد الوطنية والعنصرية وأيديولوجية القرصنة والحرب ، وبين أيديولوجية الاشتراكية الظافرة ، وهى أيديولوجية السلام . وفى هذا التعارض نجد أن الواقع الموضوعي للمجتمعات وراء كل ايديولوجية من الأيديولوجيتين — فهناك فى الحالة الأولى الرأسمالية أى البرجوازية العالمية، وفى الحالة الثانية الاشتراكية أى الحركة العمالية الدولية . وهذا الواقع الموضوعي هو الذى يفسر صراع الأفكار . فالحياة الفكرية انعكاس للحياة المادية .

والحياة الفكرية ذات وجوه متنوعة جدا . فهى تضم الفن والقانون والدين وما الى ذلك . وليس من الممكن أن ندرسها جميعا بالتفصيل . ولكن القارىء يستطيع أن يجد فى الكتب الماركسية، أنها تهتم على الخصوص بالأفكار الاجتماعية والنظريات الاجتماعية وبالآراء السياسية والنظم السياسية ، وذلك بسبب أهميتها العملية البالغة . وفيما يلى سنعرض معنى كل منها :

الأفكار الاجتماعية : هى الأفكار التى يقدمها لنفسه فرد من مجتمع معين عن وضعه فى الوجود (كأن يعتقد الحرفى مثلا أنه مستقل ، أو « حر نفسه ») . وتعتبر الأفكار القضائية جزءا من الأفكار الاجتماعية. من ذلك مثلا الفكرة البرجوازية التى تقول

أن قانون الملكية « قانون طبيعى » بديهى . فهذه الفكرة تترجم واقعا ماديا هو أن الملكية الخاصة أساس المجتمع البرجوازى ، اذ أنه لما كانت ملكية وسائل الانتاج شيئا لا يمس فى نظر البرجوازية المالكة ، كانت فكرة الملكية الخاصة فى الأخلاق البرجوازية مسألة مبدأ .

النظريات الاجتماعية : هى النظريات التى تنسق الأفكار الاجتماعية المذكورة فى مذهب مجرد ، كما تفعل مثلا نظريه المدينة المثالية عند أفلاطون ونظرية الدولة عند هوبز وجان جاك روسو وهيجل ، والنظريات الاجتماعية التى كان ينادى بها الطوباويان بابيف وسان سيمون وغيرهما .

الآراء السياسية : وهى الآراء الملكية أو الجمهورية والمحافظة أو الحرة والفاشية أو الديمقراطية وما الى ذلك، والأفكار الخاصة بحرية الرأى أو بحرية الاجتماع والتظاهر وما اليها .

النظم السياسية : وهى الدولة وأجزاء جهاز الدولة. ومن أهم الأفكار الماركسية نظرتها الى الدولة باعتبارها أحد عناصر الحياة الفكرية للمجتمع ، من حيث أنها تعكس حياته المادية .

١ ـ التفسيرات المثالية

لنرجع مرة أخرى الى الموقف المثالى الذى كنا نتحدث عنه.. فهذا الموقف واسع الانتشار جدا ، كما أنه يتخذ وجوها متنوعة .. ومن هذه الوجوه ما يلى :

(١) الفكرة القديمة جدا والتجهيلية جدا ، وهى الفكرة

اللاهوتية . وترى هذه الفكرة أن الحيـاة المادية للمجتمعات انعكاس لتفكير أزلى وتحقيق لخطة رسمتها السماء . وهـذه الخطة هى التى تفرض « النظام الاجتماعى » . وكما أن علمـاء الدين الرجعيين يعتبرون الطبيعة والروح والانسان أشياء ثابتة لا تتغير ، كذلك يعتبرون أى تغيير فى المجتمع كفرا وتجديفا . ومادام فى مثل هذا التغيير انكار لارادة الله (كما يفهمونهـا) فلا بد أن يكون رجسيا من عمـل الشيطان . ومن هنـا كان الاعتراف بالسلطة الدنيوية للكنيسـة احدى النتائج المترتبة على وجهة النظر هذه . ولـكن هذا الاتجـاه كان يوافق المجتمع الاقطاعى ، ولهذا حاربته البرجوازية عند ما كانت ثورية .

(ب) تأتى بعد ذلك فكرة مثالية طبيعتها برجوازية ، تطورت بصفة خاصة على أيدى الفلاسفة الفرنسيين فى القرن الثامن عشر . فقد كان هؤلاء يحاربون « القانون الالهى » ، أو « التفويض الالهى » ، باسم « القانون الطبيعى » أو « الدين الطبيعى » أو العقل . وكانوا يعلمون الناس أن النظام الاقطاعى لا انتظام فيه ، لأنه لا يطابق مطالب العقل التى يجدها كل انسان مصورة فى نفسه . ولهذا كان يجب تغيير المجتمـع باسم العقل — العقل الذى اعتبروه أصل كل شىء واعتبروه عامـا أبديا . فالتنظيم الاجتماعى كان يجب أن يتحقق اذذاك — ولكن الى الأبد ... لأنه انعكاس لنظام عقلى أبدى .

وقد كانت هذه الفكرة متقدمة على الفكرة السابقـة ، من حيث أنها تعبر عن أيديولوجية البرجوازية الثورية فى مقـابل الاقطاع الرجعى . الا أنها رغم ذلك كانت مثالية كسابقتها ، اذ أنها لم تبحث عن مصدر الأفكار ، بل كانت تعتبر وجودها أوليا

ينبثق منه الواقع المادى للمجتمعات .

الا أننا نلاحظ أن الفلاسفة الماديين فى القرن الثامن عشر ، وخصوصا هلفتيوس ، استطاعوا أن يفهموا أن أفكار الفرد تكون ثمرة تربيته . ثم انهم كانوا يركزون على فكرة تنوع التكوينات الفكرية فى المجتمعات خلال الزمان والمكان . ورغم ذلك لم يستطيعوا أن يدفعوا تحليلهم الى أبعد من هذا الحد ، لأنهم لم يكونوا يملكون علم المجتمعات . وكان على ماركس بعد ذلك أن يؤسسه .

(حـ) يجب أن نعترف لنظرية هيجل بأهمية خاصة . فالواقع أن هيجل فى كتابه «فلسفة التاريخ» تناول بشكل حازم دراسة العلاقة بين التطور المادى والتطور الفكرى للمجتمع . ولما كان مثاليا ، فقد بدأ « بالفكرة » العليا التى تلد المجتمع كما تلد الطبيعة . فالتاريخ هو تطور الفكرة . ولهذا كان تاريخ الاغريق هو عبارة عن تكشف فكرة الجمال . كما أن سقراط والمسيح ونابليون كانوا « لحظات » فى تطور الفكرة .

وكان هيجل كفيلسوف جدلى ، يقدم أحيانا تحليلات رائعة . ولكن مثاليته كانت تؤدى به الى أن يضخم من دور عظماء الرجال ، حتى جعلهم العوامل الوحيدة فى التقدم التاريخى . وقد استغلت الأيديولوجية الفاشية هذا الجانب من فلسفة هيجل أدنأ استغلال ، فكانت تعتبر الجماهير صفرا ، ولا تعترف الا بالرجال « الخارقين » الذين لا يخطئون .

قال أحد المعجبين بالدوتشى :

« الفاشية هى ما يؤمن به موسولينى فى هذه اللحظة » .

وكان هتلر يصرخ فى كتائبه قائلا : « اننى افكر لكم » !

(د) الشكل الآخر من أشكال المثالية ، هو ما يسمى علم الاجتماع الذى وضعه دوركايم Durkheim وتلامذته. وقد يذهل الكثيرون عندما نقول ان علم الاجتماع الدوركايمى الذى لاقى قبولا واسعا ليس سوى تفكير مثالى • أو لم يهاجم علماء الاجتماع هؤلاء اللاهوت والميتافيزيقا ؟ أولم يقترحوا دراسة الوقائع الاجتماعية (النظم والقوانين والعادات) بطريقة « وضعية » وباعتبار تطورها ودون التحيز لها أو عليها ؟ بالتأكيد قالوا ذلك. ولكن .. شتان بين ما يقال وما يفعل . فعلماء الاجتماع البرجوازيون بصفة عامة يفسرون التغيرات المادية بتطور « العقل الجماعى » الذى هو فى ذاته شيء غامض . وهكذا يبدو تاريخ المجتمعات كما لو كان تحقيقا متطورا للأمانى الأخلاقية التى تصرخ فى ركن من أركان الشعور البشرى منذ العصور الأولى .

ولكن لماذا يتطور العقل الجماعى فى اتجاه ما بالذات دون اتجاه آخر ؟ انهم لا يعرفون .. ذلك لأن علماء الإجتماع هؤلاء يجهلون (وبعضهم يتجاهل) دور الانتاج وصراع الطبقات كمحركين للتاريخ . فهم يقفون على السطح . فاذا وجدوا مثلا ما يسمى « الأمن الاجتماعى » ، فسروه بتطور الأفكار . وبذلك يصبح كل شيء نتاج « تقدم الشعور » ، كما تدعى فلسفة ليون برونشفيك .

(هـ) من الجدير بالذكر أن برودون يعتبر من أشد أبطال البرجوازية المثالية اندفاعا فى هذا المجال. فبرودون يرى أن تاريخ المجتمعات هو تجسيم وتطور لفكرة العدالة « الكامنة » فى

«الوعى» منذ بدء البشرية . ولهذا كانت علاقات الانتاج عندهم تحقق المقــولات الاقتصادية المستقرة فى « عقــل البشرية غير المتشــخص » . ويرى برودون أن هــذا الوعى لم يخــلق ، ويسميه الذكاء « الاجتماعى » ، ويعتبره قائما فى التاريخ كله ، يفسر كل شىء ولا يمكن تفسيره هو نفسه . ثم ينتهى برودون الى انكار نفس واقع التاريخ ، على أساس أن هذا الوعى يبقى دائما كما هو . وفى ذلك يقول :

«ليس من الدقة أن نقول ان شيئا ما «يجد» (١) أو شيئا ما « يحدث » . فكل شىء فى الحضارة البشرية وفى الطبيعة يوجد ويعمــل منذ الأزل . والأمر كذلك أيضــا فى كل الاقتصــاد الاجتماعى . » (٢)

وهكذا يبدو أنه لا جديد مطلقا تحت الشمس !

وقد نقد ماركس آراء برودون فى كتاب من أشهر كتبه هو « بؤس الفلسفة » (١٨٤٧) . وقال فى هذا الكتاب :

« فلنسلم مع السيد برودون بأن التاريخ الواقعى، أى التاريخ بترتيبه الزمنى ، هو التتابع التاريخى الذى تتكشف فيه الأفكار والمقولات والمبادىء .

ولنسلم بأنه كان لكل مبدأ قرن كشف عن نفسه فيه : فمثلا مبدأ السلطة (أى الخضوع) كان قرنه الحادى عشر ، ومبدأ الفــردية كان قرنه الثامن عشر . ولننتقل من اســتنتاج الى آخر ، حتى نصل الى أن القرن كان ينتمى الى المبــدأ ، ولم يكن المبدأ هو الذى ينتمى الى قرن : ومعنى ذلك بعبارة أخرى

(١) بتشديد الدال ، أى يكون جديدا . (المترجم)
(٢) برودون : « فلسفة البؤس » ، المجلد الثانى ، ص ١٠٢

أن المبدأ كان يصنع التاريخ ، ولم يكن التاريخ هو صانع المبدأ . الا أنه اذا تساءلنا بعد ذلك لماذا كشف هذا المبدأ عن نفسه فى القرن الحادى عشر أو الثامن عشر دون غيره ، وجدنا أنفسنا مضطرين حتما الى أن ندرس بدقة أى أناس كانوا يعيشون فى القرن الحادى عشر وأى أناس كانوا يعيشون فى القرن الثامن عشر ، وماذا كانت احتياجات كل أناس منهم وقواهم المنتجة وأسلوبهم فى الانتاج والمواد الأولية فى انتاجهم ، ثم أخيرا ماذا كانت العلاقات بين الانسان والآخر نتيجة لكل هذه الظروف . فاذا تعمقنا كل هذه المسائل ، ألا يكون ذلك تصويرا للتاريخ الواقعى الدنيوى البشرى فى كل قرن ، وتصويرا للناس كمؤلفين وكممثلين فى نفس الوقت لدراما حياتهم ؟ ولكنك بمجرد أن تقدم الناس كمؤلفين وممثلين لتاريخهم هم ، تكون قد درت على نفسك ووصلت الى نقطة البدء الحقيقية ، وتكون قد تخلبت عن المبادىء الأبدية التى بدأت بالحديث عنها . » (١)

هذا هو النقد الذى وجهه ماركس الى برودون ، والذى يمكن توجيهه أيضا الى كل أشكال المثالية فى النقاط السابقة .

فكل حالة من هذه الحالات تقلب الواقع رأسا على عقب ، بحيث تجعل التفسير الملموس للأفكار شيئا غير معقول . والمادية الجدلية هى وحدها التى تقيم علم الأفكار أو علم الأيديولوجيات . أما المثالية فتنادى بالأفكار وتستعرضها ، وتنعى على المادية أنها تنكرها ، بينما تتكلم عنها هى أكثر مما تفهم عنها ، وتريد منها أن تفسر كل شىء ، ولا تستطيع أن تفسرها .

---

(١) ماركس : « بؤس الفلسفة » ، ص ٩٢٤ .

٢ ـ الموقف المادى الجدلى

« اذا كان صحيحا أن الطبيعة أو الوجود أو العالم المـــادي هو المعطى الأول ، بينما الوعي أو الفكر هو المعطى الثانى التابع، واذا كان صحيحا أن العالم المادى واقع موضوعى يوجد مستقلا عن وعى الناس ، بينما الوعى انعكاس لهذا الواقع الموضوعى ، فانه يترتب على ذلك أن الحياة المادية للمجتمع أى وجوده ،هى المعطى الأول أيضا ، بينما حياته الفكـــرية معطى ثان تابع ، وأن الحياة المادية للمجتمع واقع موضوعى يوجد مستقلا عن ارادة الانسان ، بينما الحياة الفكرية للمجتمع انعكاس لهذا الواقـــع الموضوعى ، أي انعكاس للوجود . » (١)

وهاهنا يتضح أن الرأى الـــذى يقول ان الحيـــاة الفكرية للمجتمع تعكس حياته المادية ، ينتج مباشرة عن المادية الفلسفية التى عرضناها فى الباب السابق .

(١) الحياة المادية للمجتمع واقع موضوعى يوجد مستقلا عن شعور الأفراد وإرادتهم ومستقلا عن شعور الانسان العـــام وإرادته .

ان هذا الواقع الموضوعى المستقل عن الوعى هـــو بالذات مايسميه بعض المفكرين المثاليين بالقدرية ، نتيجة عـــدم فهمهم لقوانينـــه . أما الوجـــوديون فيجددون الأســـماء ويحتفظون

---

(١) ستالين : « المادية الجدلية والمادية التاريخية » ، ص ١٤

بالمسمى ، فيتحدثون عن « الانسان الذى قذف به فى العالم » وعن الانسان « فى الموقف » ، وما الى ذلك من أشياء ، تدرسها المادية التاريخية فتكشف غموضها .

ولنتناول عدة أمثلة تقرب الى فهمنا هذا الواقع الموضوعى المستقل عن الوعى :

١ ــ فى ظل الاقطاع ، كانت البرجوازية الفتية فى أوربا قد بدأت تبنى « الورش » اليدوية الكبيرة . ولكنها كانت تجهل النتائج الاجتماعية المترتبة على هـذا « التجديد » ، أى كانت تجهل أنها ستصل بالضرورة الى الثورة ضد السلطة الملكية التى كانت تعترف بفضلها عليها (اذ أن الملكية كانت تشجع هـذه الورش الوليدة ، وكانت وحدة الاقطاعيات تحت التاج الملكى هى السبيل الوحيد لنمو البرجوازية وتحررها من قيود الاقطاع المحلى) . وفضلا عن ذلك كانت البرجوازية تجهل أنها ستقف بالضرورة ضد طبقة النبلاء التى كانت تحلم بالانخراط فى صفوفها !

٢ ــ عندما وضع الرأسماليون الروس فى روسيا القيصرية نواه صناعة كبيرة حديثة ، لم يكونوا يشعرون أنهم يهيئون الظروف لانتصار الثورة الاشتراكية المقبلة .

٣ ــ عندما اضطر صانع الأحذية الذى يتحدث عنه ستالين فى أحد كتبه ، الى أن يعمل أجيرا فى مصنع أديلخانوف ، كان يجهل أن النتيجة البعيدة لهذا القرار الذى ظنه مؤقتا ، هى أن يرتبط بالأفكار الاشتراكية . (١)

---

(١) هاهى القطعة الرائعة التى خصصها ستالين لصانع الاحذية هذا :

٤ ــ فى عام ١٩٤٧ ، وضع الامبرياليون الأمريكيون مشروع مارشال ، وبدأوا وفى ذيلهم الرأسماليون الغربيون يفرضون الحصار الاقتصادى حول الاتحاد السوفييتى والديمقراطيات الشعبية . ولكنهم لم يتصوروا قط أنهم يساعدون بذلك على خلق سوق عالمية جديدة هى السوق الاشتراكية ، وعلى تفكك السوق الوحيدة القديمة وهى السوق الرأسمالية .

« تصوروا صانع احذية كان يملك ورشة صغيرة جدا ، ثم اضطر الى اغلاقها لانه لم يتمكن من احتمال منافسة كبار أصحاب الاعمال. ولنفرض أنه عمل أجيرا لدى مصنع اديلخانوف ، لا ليظل عاملا أجيرا بل ليجمع نقودا يكون منها رأسمال يستطيع بواسطته أن يعيد فتح ورشته . بهذا يكون وضع صانع الاحذية قد أصبح بروليتاريا ، بينما وعيه لم يصل الى ذلك بعد ، بل ظل برجوازيا صغيرا . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن الوضع البرجوازى الصغير لصانع الاحذية قد اختفى فعلا ولم يعد له وجود ، بينما وعى البرجوازى الصغير لم يختف عنده بعد ، وتخلف عن وضعه الواقعى .

ويلاحظ أنه هاهنا أيضا فى الحياة الاجتماعية تتغير الظروف الخارجية أولا ، أى يتغير وضع الناس ، ثم يتغير بالتالى وعيهم

ولكن لنرجع الى صاحبنا هذا . فقد عرفنا أنه يفكر فى جمع نقود ليعيد فتح ورشته . الا أن صانع الاحذية بعد أن يتحول الى عامل احذية يدرك وهو يعمل أن من الصعب جدا أن يجمع نقودا ، لان أجره لايكاد يكفى قوت حياته ، ثم انه يلاحظ فضلا عن ذلك أن فتح ورشة خاصة لم يعد شيئا مغريا جدا بعد أن كان يعتبره املا : فكم من الهموم تثقل روح الحرفى ، من مثل ايجار الورشة والاعيب الزبائن وقلة النقود ومنافسة كبار أصحاب الاعمال وغير ذلك الكثير من دواعى الازعاج . أما البروليتارى فهو نسبيا أكثر تحررا من هذه الهموم لايقلقه زبون ولا دفع ايجار ، بل انه يذهب الى المصنع صباحا ويغادره مساء ، « فى أهدأ حال وأصفى بال » ، وفى يوم الاحد يقبض أجره فى هدوء ايضا ويضعه فى جيبه . واذذاك =

هكذا نفهم « القدرية » التى تفنن فى رسمها كثير من كتاب القصص . فالصراع من أجل أشباع المصالح المباشرة يؤدى ان آجلا أو عاجلا الى نتائج اجتماعية مستقلة عن ارادة هؤلاء الذين خاضوا هذا الصراع . الا أن هذه المصالح المباشرة لا تكون قط أشياء جزافية ، بل انها تكون استجابة لموقف موضوعى أو لفترة معينة فى حياة هذا المجتمع أو ذاك ، وبالنسبة لهذه الطبقة أو تلك . وتضع المادية التاريخية هذه الحقيقة فى قضية أساسية عبر عنها ماركس بالكلمات التالية :

« خلال الانتاج الاجتماعى للحياة البشرية ، يدخل الناس مع بعضهم فى علاقات محددة وضرورية ومستقلة عن ارادتهم ، وهى علاقات انتاج تطابق بدرجة معينة من التطور ما يتوفر لديهم من قوى مادية منتجة . » (١)

= ولاول مرة يقص الواقع اجنحة الاحلام البرجوازية الصغيرة التى كان يحلم بها صانع الاحذية ، واذ ذاك ولاول مرة تتولد فى نفسه نزعات بروليتارية .

ويمضى الزمن ويفهم صانع الاحذية أنه يحتاج نقودا ليحصل على كفاف العيش ، وانه من ثم يحتاج الى زيادة أجره . ويلاحظ فى نفس الوقت ان زملاءه يتحدثون عن النقابات والاضرابات. ومنذ اذ ذاك يعى صاحبنا هذا أنه من أجل تحسين وضعه لابد من الكفاح ضد أصحاب العمل لا الكفاح من اجل فتح ورشة خاصة. وهنا ينضم الى النقابة ، ويشارك فى حركة الاضراب ، ثم لايلبث أن يعتنق الافكار الاشتراكية ...

وهكذا نجد أن التغير فى الوضع المادى لصانع الاحذية يجر فى نهاية المطاف الى تغير فى وعيه : فوضعه المادى يتغير اولا ، ثم بعد ذلك ونتيجة له يتغير وعيه ..

وهذا هو مايجب أن يقال أيضا عن الطبقات وعن المجتمع ككل . »
(ستالين : « فوضوية أم اشتراكية ؟ » المؤلفات المجلد الاول ، ص ٢٦٣ — ٢٦٤)

(١) ماركس وانجلز : « دراسات فلسفية » ، ص ٧٢ — ٧٣ .

فالناس لم يختاروا لأنفسهم العلاقات الرأسمالية فى الانتاج مثلا ، بل ان تطور القوى المنتجة فى قلب المجتمع الاقطاعى كان يؤدى بالضرورة الى تكوين علاقات رأسمالية لا علاقات أخرى، رضى الناس بذلك أم لم يرضوا . وهكذا كان كل جيل يبدأ بظروف موضوعية مصنوعة من قبل • فهل هذه اذن « قدرية»؟ كلا . فالدراسة العلمية لهذه العلاقات الموضوعية فى الانتاج تتيح لنا أن نفهم طبيعتها وأن نتنبأ بتطورها وأن نعجل بها — وهذا ما سنتناوله فى فصول أخرى •

واذا كان المثاليون يدعون أن الروح مستقلة ، فمعنى ذلك ببساطة أنهم لايعترفون بالظروف الموضوعية التى تفرض نفسها وأسبقيتها على الروح .. ولكنهم فى عدم اعترافهم بها لا يعرفون عنها شيئا . فالمفكر المثالى سيىء الحظ ، لأنه يعتمد على وعيه دون أن يبحث الظروف الموضوعية التى تصنع هذا الوعى وتجعله يباشر نشاطه . ومن هنا يعتقد أن وعيه يكتفى بذاته ، وهو الوهم الذى تحاربه المادية .

ويؤدى بنا هذا العرض الى نتيجة عملية هامة • فقد أوضحنا أن هناك تغيرات مادية عظيمة تم وقوعها فى التاريخ دون أن يشعر بنتائجها أو يريدها هؤلاء الذين شاركوا فيها وساعدوا على حدوثها . فاذا كان الأمر كذلك كان من الخطأ أن يدعى البعض أنه لا ثورة اشتراكية فى بلد من لبلاد الا بعد أن يعتنق كل الكادحين فيه النظرية الثورية ! فملايين الناس الذين صنعوا بسواعدهم ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ لم يكونوا يرسلون بأنظارهم الى نفس المدى الذى وصلت اليه أنظار لينين والبلاشفة ؛

بوصفهم الطليعة العلمية للثورة . الا أن الناس عندما حققوا هذه المهمة التاريخية العظيمة ، عملوا فى نفس الوقت على تغيير وعيهم وعلى انتصار الانسان الجديد انتصارا علميا تنبأ به ماركس من قبل .

(ب) الحياة الفكرية للمجتمع تعكس الواقع الموضوعى للمجتمع

قلنا ان ارادة الناس ليست هى التى تحدد جزافيا علاقاتهم الاجتماعية ، بل ان الواقع المادى لمجتمعهم هو الذى يحدد وعيهم .

ولكن هذا المجتمع ، على ما سنرى فى كتاب آخر ، لم يظهر بمعجزة بل انه كان جماعا للعلاقات التى تكونت بين الناس وضمنت لهم كفاحا ظافرا ضد الطبيعة، وهى علاقات تكيفت بالضرورة بواسطة مستوى القوى المنتجة التى توفرت لدى الناس والتى كان يجب أن يعملوا فى حدودها .. فمنذ عشرة آلاف سنة مثلا كان من المستحيل أن تنشأ بين الناس علاقات كهذه التى نشأت عن الصناعة الكبيرة !

فاذا أردنا أن نفهم كيف تكون الأفكار الاجتماعية انعكاسا للمجتمع ، لزم أن ندرس العناصر المعقدة لهذا المجتمع .

« ويبين لنا التاريخ أن الناس انما تختلف أفكارهم ورغباتهم فى العصور المختلفة ، لأنهم فى العصور المختلفة يكافحون بطرق مختلفة ضد الطبيعة من أجل تدبير حاجاتهم ، وبالتالى تتخذ علاقاتهم الاقتصادية طابعا مختلفا . ففى زمن ما ، كان الناس يكافحون ضد الطبيعة كفاحا مشتركا ، أى على أساس المشاعية

البدائية . وفى ذلك الزمن كانت الملكية أيضا مشــاعة ، ولم يكونوا يميزون تقريبا بين « مايخصنى » و «مايخصك » ، أى أن شعورهم كان مشاعيا . ثم جاء على الانتاج زمن ظهر فيــه التمييز بين « ما يخصنى » و « ما يخصك » . ومنــذ اذ ذاك اتخذت الملكية طابعا خاصا فرديا ، فكان هذا سببا فى أن يغزو الشعور بالملكية الخاصة وعى الناس . ثم هاهو أخيرا زمن ــ زمننا هذا ــ يستعيد فيه الانتاج طابعه الاجتماعى (٣٠) . ولهذا لن تلبث الملكية أن تتخذ بدورها طابعا اجتماعيا . وهــذا هو السبب فى أن الاشتراكية تغزو وعى الناس شيئا فشيئا . » (١)

وهنا نرى خطأ المادية «المبتذلة» .. اذ أنه لما كانت هذه المادية تقرر ألا فكر بدون مخ ، فقد استنتجت من ذلك أن الأفكــار الاجتماعية تتحدد بأسباب عضوية ! فاذا غيرنا الجهاز العضوى للفرد ، تغيرت أفكاره السياسية !

أما المادية الجدلية ، فهى بالتأكيد تقرر أن المخ عضو الفكر . ولكنها ترى أن هذا المخ نفسه لا ينفصل عن الظروف الموضوعية التى تؤدى الى وجود الناس : فهو مخ كائن اجتماعى .

قال ماركس :

« .. الانســان فى حقيقتــه عبارة عن مجموع علاقــات اجتماعية . »

ومعنى ذلك أن « مجموع العلاقات الاجتماعية » هذا ، هو الذى ينعكس فى المخ المفكر .

---

(١) ستالين : « فوضوية أم اشتراكية ؟ » ، المؤلفــات ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ ــ ٢٦٣ .

ولعل انتشار الخرافات مثل من الأمثلة التى تثبت أن الايديولوجية انعكاس للواقع المادى . فالآلهة التى كان يتصورها الناس موجودات غامضة قادرة على كل شيء مسيطرة على الطبيعة والمجتمع ، كانت تعكس عجز الناس موضوعيا أمام الطبيعة والمجتمع فى العصور البدائية . وقد كان من اللازم أن يؤدى تقدم علوم الطبيعة والمجتمع الى كشف أوهام هذه المعتقدات . ولكن استغلال الانسان للانسان كان يخلق ظروفا موضوعية تجعل الانسان يؤمن بوجود كائن يملك القدرة على أن يهب السعادة أو الشقاء . فالفلاح الذى لا يملك أملا والذى يسحقه البؤس فى المجتمع الاقطاعى ، كان يجد نفسه مدفوعا الى أن يفوض أمره الى السماء .

وبهذه الطريقة نفسها نستطيع أن نفهم أن الأفكار الأخلاقية هى أيضا انعكاس للعلاقات الاجتماعية الموضوعية ، أى انعكاس للتطبيق الاجتماعى . أما المثاليون فيعتبرون الأخلاق مجموعة مبادىء أبدية ، مستقلة تماما عن الظروف ، لأنها تأتينا من الله أو يمليها علينا الشعور . الا انه يكفى لندحض ذلك أن نذكر مثلا أن الأمر الذى يقول : « لاتسرق » ، لم يكن يمكن أن يظهر ولا أن يكون ذا معنى مالم تظهر الملكية الخاصة ! فكيف نتحدث اذن عن اخلاق أبدية ؟ انما الأخلاق تتغير بتغير المجتمع .

ولما كان المجتمع يتطور بصراع الطبقات ، كان هناك بالضرورة صراع بين أخلاق الطبقة السائدة وأخلاق الطبقة المستغلة : فالأولى أخلاق محافظة أو رجعية ، والثانية أخلاق ثورية بشكل أو بآخر . ولكن الطبقة السائدة تملك خلال سنوات

طويلة وسائل قوية تفرض بها أفكارها ، ومن ثم يتقبـل ملايين الناس أخلاق الطبقة السـائدة بلا مناقشـة ، بوصفهـا هى « الأخلاق » بشكل مطلق ، لا « أخلاق » طبقة معينة . وهكذا يقع الناس (ومنهم أفراد الطبقة السائدة نفسها) فريسـة هذا التضليل •

ولنوضح ذلك بمثال •

فقد كانت البرجوازية الفرنسية الثورية فى القرن الثامن عشر تشن هجومها على الاقطـاع باسم الحـرية والعقل والعـدالة الأبدية • وكانت بذلك تعتبر مصالحها كطبقة ثورية مطـابقة لمصالح البشرية بصفة عامة • وقد كانت فى هذا مخلصة • الا أن انتصار الثورة البرجوازية حدد لهذه الكلمات معناها الصحيح، أى معناها التاريخى . فقد أوضـحت الثورة أن هذه الأفكار الأخلاقية العامة كانت تعبيرا من مصالح خاصة بطبقة • فالحرية مثلا .. كانت حرية البرجوازية فى الانتاج والتجارة لتحصـيل الأرباح الطبقية ، وحرية احتفاظها لنفسها بالسلطة السياسية ، وهكذا • ولكن هذه البرجوازية التى صنعت الثورة تحت راية الحرية ، كانت تنكر على البروليتاريا حرية تكوين النقابات أو الكفاح عن طريق الاضرابات أو ما الى ذلك . وباسم الأخلاق الأبدية قطعت البرجوازية رقبـة بابيف على المقصلة ، لأنه كان يريد أن يلغى الملكية البرجوازية .

قال انجلز :

« اننا نعرف اليوم أن حكم العقل هذا لم يكن سوى حكم البرجوازية فى صياغته المثالية ، وأن العدالة الأبدية كما كانوا

ينادون بها اذ ذاك لقيت تحقيقها التام فى العدالة البرجوازية .»(١)

فهل معنى ذلك أنه لن توجد أبدا أخـلاق عامة ؟ بلى . ان الأخلاق ستصبح أخلاق كل الناس عنـدما تتحقق موضوعيـا الظروف الاجتماعية التى تصنع مثل هذه الأخلاق ـ أى عندما يتحقق بعد مرحلة انتصار الاشتراكيـة ، الغـاء كل تعـارض بين مصالح الناس ،أى الغاء الطبقات الى الأبد . وبهذا لن يمهد السبيل موضوعيا لانتصار الأخلاق العـامة التى هى أخلاق انسانية تماما ،سوى كفاح العمال الثورى ضد البرجوازية. أما الوعظ والارشاد المثالى فلا قيمة لهما .

ولكن هل يستحيل أن نلمس هذه الأخلاق العامة فى أيامنا هـذه ؟

كلا . فلأول مرة منذ ظهور المجتمع الرأسمالى تتحقق مبادىء التضامن الأخوى فى أخلاق الطبقة الثـورية ، أى فى أخلاق الطبقة العاملة ، وبوجه خاص طبعا فى البلاد التى انتصرت فيها الثورة الاشتراكية .

فاذا كانت البرجوازية فى تصـفيتها للاقطاع قد استبدلت استغلالا باستغلال ، فالطبقة العاملة فى تحطيمها للرأسمالية تلغى كل اسـتغلال للانسان . ويؤدى الغاء التطاحنات الطبقيـة الى ازدهار الأخلاق اللاطبقية العامة . وتعتبر أخـلاق البروليتاريا الثورية ، أولى أشكالها . (٢)

---

(١) انجلز : « الرد على دورنج » ، ص ٣٩٠ .
(٢) اقرأ فى هذا الموضوع لينين : « مهـام اتحـادات الشبيبة » (اكتوبر ١٩٢٠) ، « المؤلفات المختارة » ، المجلد ٢ ، ص ٨٠٤ .

وهكذا نرى أن تعارض الأفكار الخلقية خلال التاريخ ، وبصفة عامة تعارض التكوينات الفكرية يعكس تعارض مصالح الطبقات الاجتماعية القائمة . وبهذه الطريقة نستطيع ان نفهم لماذا تتطور الايديولوجيات الاجتماعية والسياسية . فاذا كانت البرجوازية فى فرنسا خلال مائة وستين عاما قد انتقلت من « الشعوبية الخلقية » التى عبر عنها هذا المبدأ : « كل الناس اخوة » ، الى العنصرية الفاشية التى تتضح فى مطاردة الكادحين المغاربة ، فان هذا التغير يرجع الى التطور المادى للبرجوازية . فعندما كانت هذه الطبقة ثورية ، كانت تؤمن بقدرتها على ان تتكلم بلسان الناس أجمعين . فلما هددت الأخطار حكمها ، بررت سيطرتها بالدم . وهكذا فعل الاقطاعيون من قبل !

(ح) كيف تنبثق الأفكار والنظريات الاجتماعية والسياسية الجديدة .

ترى المثالية أن الأفكار تنبثق فى الروح دون سبب معروف ، وتكون مستقلة عن ظروف الحياة . ولكن الذى تعجز المثالية عن الرد عليه هو : لماذا ظهرت هذه الفكرة أو تلك فى ايامنا هذه ولم تظهر فى العصور القديمة ؟

اما المادية الجدلية فلا تفصل أبدا بين الأفكار واساسها الموضوعى ، ولهذا لا ترى ان الافكار الجديدة تنبثق بعملية سحرية . فالأفكار الجديدة تنبثق كحل لتناقض موضوعى ينمو فى المجتمع . ونمو التناقضات فى قلب المجتمع يفرض مهمة

حلها عندما تشتد حدتها . واذ ذاك تظهر الافكار الجديدة كمحاولة لحل هذه التناقضات .

ففى المجتمع الاقطاعى تطورت التناقضات الموضوعية ، وهى التعارض بين علاقات الانتاج البالية والقوى المنتجة الجديدة فأثارت فى الطبقة الصاعدة أفكارا ثورية . وهكذا انبثقت اذ ذاك مئات الخطط فى الاصلاح الاجتماعى والسياسى . وقد حدثت مثل هذه العملية فى المجتمع الرأسمالى ، فظهرت الافكار الاشتراكية بهدف حل التناقضات التى عانى منها ملايين الرجال والنساء والاطفال .

وان ما يميز زعماء التجديد هو استعدادهم لحل المشاكل التى تعكس التناقضات الموضوعية فى المجتمع والتى تثور فى وعى معاصريهم بشكل أو بآخر . قال ماركس :

« ان البشرية لا تثير من المشاكل الا ما تستطيع ان تحله ، وان من يتأمل هذه الحقيقة عن كثب ، يجد دائما ان المشكلة نفسها لا تنبثق الا عندما توجد فعلا الظروف المادية لحلها ، أو على الأقل عندما تكون هذه الظروف فى طريقها الى ان توجد . » (١)

ومعنى ذلك ان « المشكلة » تعنى « تناقضا » يجب حله . ولكن ما هو التناقض ان لم يكن صراعا بين القديم والجديد ؟ ان التناقض يظهر اذن ، لأن الجديد يكون قد وجد ، سواء فى

---

(١) ماركس : « مقدمة اضافة الى نقد الاقتصاد السياسى » ، فى « دراسات فلسفية » ، ص ٧٣ .

بذرته أو فى جزء من أجزائه . فالمجتمع الاقطاعى مثـلا لم يبرز كمشكلة الا منذ بدأت تنشط فى قلبه القوى المضادة التى كان عليها أن تهدمه فيما بعد (الصناعة والبرجوازية) . وقد تم حل مشكلة الاقطاع بانتصار هذا الجديد الزاحف .

ى) مسألة الرواسب

ان المفهوم الذى عرضناه فى هذا الفصل يتيح لنا ان نفسر خاصية هامة من خواص تاريخ الافكار ، هى مسألة الرواسب.

والترسيب هو بقاء فكرة ما فى الروح بعد أن تكون ظروفها الموضوعية التى اقامتها قد اختفت .

ونحن نعرف ان أحد الآراء الجوهرية فى المادية الفلسـفية هى ان الشعور يأتى بعد الواقع المادى (الطبيعة والمجتمع) . فالشعور يتخلف عن الوضع الموضوعى . وهكذا كان صـانع الاحذية الذى حدثنا عنه ستالين يحيا موضوعيا حياة بروليتارى ولكنه كان يحتفظ خلال زمن معين بشعور البرجوازى الصغير .

كذلك الحال فى المجتمع الذى يتغير أساسه المادى . فالناس لا يصلون الى الشعور بهذه التغيرات الا بعد تأخر معين ، اذ عندما تحدث هذه التغيرات يبحث الناس عن حلولها فى«خزانة» أفكارهم القديمة التى احتفظوا بها منذ الماضى . ومعنى ذلك أن الرواسب بوصفها افكارا نشأت عن ظروف موضوعية قديمة ، تعوق الأفكار الجديدة التى تطابق الظروف الموضوعية الجديدة . ومن أمثلة ذلك انه فى بداية الرأسمالية كان البروليتاريون الذين تستغلهم البرجوازية الصـناعية يجرون وراء حل لبؤسـهم فلا

يجدون هذا الحل الا فى التخيل الطوباوى لعودة النظام الحرفى (أى اليدوى) ! ولهذا كانوا يحطمون الآلات .

ولكن الرواسب تتراجع بالضرورة كلما تقدمت التناقضات الموضوعية . وهنا يتضح أكثر فأكثر استحالة العودة الى الماضى. وفى نفس الوقت تتدعم الأفكار الجديدة بوصفها هى الأفكار الوحيدة التى تتفق مع القوى الموضوعية الصاعدة . فالماضى يمتد فى الشعور ، الى أن يصبح الحاضر شيئا غير محتمل يستلزم وجود الجديد . والجديد هو اذ ذاك ما يحمله المستقبل .

٣ ـ الخلاصة

يجب أن نبدأ اذن من الحياة المادية للمجتمعات لكى تفهم حياتها الفكرية . ومن هذه الحقيقة نستطيع أن نستخلص نقاطا ذات مدلول عملى كبير ، هى :

(١) المشاكل الوحيدة التى يمكن حلها فى مرحلة معينة هى المشاكل التى تبرزها الحاجات الواقعية للمجتمع .

ومن هنا يبنى الماركسيون عملهم على الدراسة المتعمقة للظروف الموضوعية فى مرحلة معينة ، فيكون عملهم مثمرا .وفى ذلك يعارضون مثالية بلوم التى تنكر الطابع المادى للوقائع الاجتماعية وخصوصا الوقائع الاقتصادية ، ومن ثم تحيل الاشتراكية الى صوفية ، فيكتب الفشل لكل اعمالها .

(٢) يجب على المكافح الثورى فى علاقاته مع الكادحين الا

يحدد موقفا نهائيا منهم على اساس الأفكار التي يعتنقونها • فالأفكار شيء ، والظروف المادية شيء آخر . فمن الممكن أن يعتنق هذا البروليتاري أو ذاك أفكارا محافظة تحت الضغط الفكري البرجوازي الذي لا يحس به . فهل هذا غريب ؟ لا •• ما دامت الطبقة السائدة التي تستغل الكادحين ، تبذل اقصى جهدها في نفس الوقت لكي تقنعهم بأن الأمور تسير هكذا على أكمل وجه • فالأخلاق الرسمية التي تلقن في المدارس لا تنادي بالصراع الطبقي ، بل تنادي بأن تتقبل الواقع بصدر رحب . فيجب اذن ألا ندين هذا البروليتاري • فأفكاره الخاطئة تعبر عن واقع موضوعي لمجتمع تحكمه البرجوازية. •

وفضلا عن ذلك نجد ان الثوري الذي يحلل الظروف الموضوعية تحليلا ماديا يستطيع ان يتخطى تنوع الآراء لدى الكادحين ، بأن يكشف عن اشتراك المصالح بينهم • وعلى هذا الأساس تقوم وحدة العمل • فوحدة العمل لا تصبح ممكنة الا لأن ظروف الصراع الطبقي هي التي تحدد الأفكار ، وليست الأفكار هي التي تحدد ظروف الصراع الطبقي • وهذا هو السبب في أن موريس توريز استطاع عام ١٩٣٦ ان يخاطب العمال الكاثوليك او عمال الصليب الناري قائلا لهم :

« أنتم كادحون مثلنا نحن الشيوعيين • فلنتحد معا في الكفاح المشترك من أجل مصلحة شعبنا وبلدنا » (١)

(٣) أوضحنا في هذا الفصل أن تغير الأفكار يقوم على أساس

---

(١) موريس توريز : « ابن الشعب » ص ١٠١ ـــ ١٠٢ ـــ ١٠٣ .

مادى . وتترتب على هذا نتيجة هامة فى موضـــوع التربيـــة الثورية للكادحين :فلا يمكن ادخال الأفكار الثورية فى رؤوسهم الا فى الكفاح وبواسطة الكفاح ، وفى ارتباط بالمهام الملموسة فى الحياة ، وفى الورشة والمصنع والمكتب . فالصراع الاجتماعى هو الذى يجعل من الممكن حدوث التغيرات الحاسمة فى وعى الكادحين . وهكذا يكون الكفاح المتحد من اجل حل التناقضات الموضوعية للمجتمع الرأسمالى فرصة للكادحين غير الثوريين لكى يصنعوا الخبرة لأنفسهم . وهم يكتشفون بمساعدة الطليعـــة الماركسية اللينينية الوسائل التى تحل متاعبهم . وبهذا يتحولون بدورهم الى ثوريين .

الفصل الثانى

دور الأفكار وأهميتها فى الحياة الاجتماعية

من الافتراءات المنتشرة جداعن المادية الماركسيةانها لاتكترث بالأفكار ولا تعترف بأهميتها ولا بالدور الذى يمكن أن تلعبه، وسوف نبين فى هذا الفصل ان هذا الافتراء لا اساس له ، وان الماركسيين على عكس ذلك يقدرون خطورة الأفكار والنظريات، ولقد كانت حياة ماركس نفسه دليلا على ذلك .. والا فهل كان يكرس حياته لاستكمال ونشر النظرية الثورية ، لو كان ينكر قوة الأفكار ؟ ثم ان تلامذته أثبتواهذه الحقيقة من بعده، فكانوا مكافحين شيوعيين يضربون الأمثلة لغيرهم فى أقسى ساعات الكفاح ، ويضحون بحياتهم فى بطولة من اجل انتصار المثل العليا الاشتراكية العظيمة .

ولنرجع هنا الى مثال ذكرناه فى الفصل السابق : وهو الفكرة التى تنشرها « اليونسكو » عن ان الحروب تنشأ « فى شعور الناس » ، وأنه من ثم يكفى ان نشيع السلام فى النفوس لنقضى على الحرب . وقد رأينا فيما سبق ان هذا الرأى لا يحتمل مناقشة مادية ، من حيث أن الحرب ، وبالتالى فكرة الحرب ، تصدر عن الواقع المادى للمجتمعات .

الا أن المغالطة فى رأى « اليونسكو » لا تقلل من خطورته • فالواقع انه عمليا يلعب دورا محددا جدا • فهذا الرأى المثالى يصرف الناس عن البحث عن الأسباب الحقيقية للحروب ، تحت ستار التحمس لمكافحة الحرب !•• اذ ان ادعاء هذه المثالية المخادعة بأن « شعور الناس » هو مصدر الحرب، يخفى المسئولية الحقيقية التى تقع على اكتاف المجرمين الحقيقيين ، الا وهم الاستعماريون • فمهما قالت هذه المثالية من كلمات جميلة ،فهى تسىء الى قوى السلام وتساعد قوى الحرب • والواقع انهؤلاء الذين يبحثون حقا عن « سلام النفوس » ليسوا قط هؤلاء المثاليين الذين يخفون عن النفوس الأسباب الموضوعية للحرب ، بل هم هؤلاء الماديون الذين يحللون اسبابها ويفضحون مدبريها من الاستعماريين المعتدين •

هذا هو الواقع •• فليقولوا اذن ما يحلو لهم عن تجاهل الماركسية لقوة الأفكار !

قال ستالين :

« •• قلنا ان الحياة الفكرية للمجتمع انعكاس لظروف حياته المادية • ولكن هذه الأفكار والنظريات الأجتماعية وهذه الآراء والنظم السياسية لها خطورتها ولها دورها فى التاريخ • والمادية التاريخية ليست ابعد من ان تنكر ذلك فحسب : بل انها على العكس تؤكد دورها الحقيقى وخطورتها الحقيقية فى الحياة الاجتماعية وفى تاريخ المجتمع . » (١)

فالفلسفة الماركسية ، كفلسفة مادية ، ترجع أصل الأفكار

---

(١) ستالين « المادية الجدلية » : ص ١٥ .

الاجتماعية الى الحياة المادية فى المجتمعات ، وكفلسفة جدلية تبين خطورتها الموضوعية وتحدد دورها الصحيح . وهذا هو موضوع الفصل .

١ ــ خطأ المادية المبتذلة

ان هؤلاء الذين ينعون على الماركسية تجاهلها للأفكار ، يلصقون بها عن وعى أو عن غير وعى قولا لا يخصها . فهم يلصقون بها الخطأ الذى تقع فيه المادية المبتذلة .. اذ أن انكار خطورة الأفكار موقف غير علمى تحاربه المادية الجدلية دائما .

فالواقع أن قول فيورباخ « ان تفكير من يسكن قصرا ، يختلف عن تفكير من يسكن كوخا » قول على جانب كبير من السطحية والغموض ، اذ يفوته ان التكوينات الفكرية القائمة فعلا تعتبر هى نفسها من بين الظروف التى تحدد مفاهيم الفرد . فمن الجائز جدا أن يحمل ساكن الكوخ فى نفسه أحلام أمير ! ومن الجائز ان يحمل العامل آمالا برجوازية صغيرة ! وصانع الأحذية الذى يحدثنا عنه ستالين(١) لم يكن سيصل الى الأفكار الاشتراكية مالم تكن هذه الأفكار موجودة فعلا وتلعب دورا فى المجتمع . ولكن يجب ان ندرك ان المفاهيم الميكانيكية التى تقول بها المادية المنافية للجدل ــ والتى نسميها المادية المبتذلة فى مقابل المادية العلمية ــ هى مفاهيم خطيرة جدا . لماذا ؟ لأنها تسهل

(١) انظر ص ١٣٢ ــ ١٣٣ .

مهمة المثالية . فالمادية المبتذلة بانكارها دور الأفكار ، تهيىء للفلاسفة المثاليين أن يحتلوا الأرض التى تركتها خالية . وهكذا نجد مادية مبسطة تفقر الواقع من ناحية ، ومن ناحية اخرى مثالية « تعوض » نقائص هذه المادية بواسطة اضافات فكرية تضيفها « النفس » فى سخاء ! فالمثالية تصحح الميكانيكية ،ولكن كما يصحح الخطأ الخطأ .

فما هو موقف المادية الجدلية اذن ؟

ان المادية الميكانيكية ترى الوعى الاجتماعى مجرد انعكاس سلبى للوجود المادى . ولهذا تسميه « ظاهرة عرضية » .أماالمادية الجدلية فترى ان الوعى الاجتماعى هو فعلا انعكاس ، ولكنه انعكاس فعال .

ونحن نعرف أن الواقع حركة (القانون الثانى للجدل) وأن كل وجه من وجوه الواقع يكون فى حركة . ثم ان الأفكار والنظريات ، وان كانت متأخرة عن المادة ، تعتبر وجوها من الواقع الكلى . فلماذا ننكر عليها اذن الخاصية الاساسية فى كل ما هو موجود ؟ ولماذا ننكر عليهاالحركة والفاعلية ؟ ان الجدل شامل للوجود . فهو يظهر اذن فى الأفكار كما يظهر فى الأشياء ، ويظهر فى الوعى الاجتماعى شأنه شأن الانتاج .

كذلك نجد أن الرأى الذى ينكر قدرة الافكار هو رأى ينافى الجدل فى جانب ثان من جوانبه . فنحن نعرف من القانون الأول للجدل أن الواقع عبارة عن تكافل ، وأن مختلف وجوهه مترابطة ، وأن كلا منها يباشر فعله على الآخر . ويترتب على هذا انه اذا كانت الحياة الفكرية فى المجتمع نابعة من الحياة

المادية ، فانها لا يمكن أن تنفصـــل عن هذه الحيـــاة المادية : ومن ثم فهى بدورها تباشر تأثيرها على الحياة المادية للمجتمعات .

وهكذا يتيح لنا تطبيـــق قوانين الجدل أن تقـــدر خطورة الافكار والنظريات الاجتماعية ، بل ويتيـــح لنا أيضا ان نفهم كيف تباشر فعلهـــا .

وقد عبر انجلز فيما يلى عن هذه العلاقة المتبادلة أو التفاعل بين المجتمع والافكار ، فقال :

« ان الوضع الأقتصادي هو الأساس ، ولكن هناك أيضـــا مختلف عنـــاصر البناء الفوقى ــ من أشكال ســـياسية للصراع الطبقى وتنائجه ، ودساتير يفرضها انتصار الطبقـــة الظافرة فى المعركة ، وأشكال قضائية ، بل وأيضا انعكاس هذه الصراعات الواقعية كلها فى رؤوس من يخوضها ، أى النظريات السياسية والقضائية والفلسفية والمفاهيم الدينية ثم تطورها بعد ذلك الى مذاهب جامدة . فعناصر البناء الفوقى هذه تباشر هى أيضـــا فعلها على مجرى الصراعات التاريخيـــة ، بل وفى احوال كثيرة تحدد شكل هذه الصراعات تحديدا ترجيحيا . فهناك فعـــل ورد فعل بين كل هذه العوامل .. »

ثم يقـــول انجلز :

« .. انها فـــكرة تدل على غبـــاء (هـــؤلاء) المنظرين أنه ما دمنا ننكر على مختلف التكوينات الفكـــرية التى تلعب دورا

---

(١) انجلز : « رسالة الى جوزيف بلوخ » فى « دراسات فلسفية » ص ١٢٨ . و « البناء الفوقى » Sup 'stcucture هو الحياة الفكرية الفكرية للمجتمع من أفكار ونظـــريات ونظم سياسية وفلسفيـــة وقضائية وغيرها .

فى التاريخ أن تتطور تطورا تاريخيا مستقلا ، فاننا بذلك ننكر عليها أيضا أى فاعلية تاريخية . ولكن هذه الفكرة تقوم على مفهوم دارج غير جدلى عن العلة والمعلول ، بوصفهما قطبين متعارضين تعارضنا حادا .. » (١)

ويعود انجلز فيقول :

« يبدو لى أن .. كون وجهة النظر الفكرية تعود فتؤثر بدورها على الاساس الاقتصادى وربما تغيره، هو البداهة بعينها. ... فاذا كان بارت يزعم أننا أنكرنا كل رد فعل (تباشرة) الانعكاسات السياسية وغير السياسية (الناتجة عن) الحركة الاقتصادية ، على هذه الحركة نفسها ، فهو بذلك يجرى وراء سراب لا أكثر ... فكل ما ينقص هؤلاء السادة هو الجدل ، إذ أنهم على الدوام لا يرون الا العلة هنا والمعلول هناك ... أما أن يجرى المجرى العريض للأشياء فى شكل فعل ورد فعل للقوى التى تكون بلا شك متفاوتة جدا ــ كأن تكون الحركة الاقتصادية هى القوة الأشد فعلا والأشد حسما والأسبق ... فهذا ... ما لا تراه عيونهم ... » (٢)

وهؤلاء الذين يبتذلون المادية يبدأون بداية صحيحة بأن قوانين الاقتصاد هى أساس التطور الاقتصادى ، ولكنهم يستخلصون من ذلك نتيجة خاطئة ، هى أنه يكفى أن تترك هذه القوانين تعمل بنفسها ، ونعقد نحن سواعدنا فى انتظار

(١) انجلز : « رسالة الى فانزميرنيج » ، نفس المرجع ، ص ١٤٠ . ويلاحظ أن انجلز يشير هنا الى المفهوم الميتافيزيقى . انظر الملاحظة (٣١) للمترجم .

(٢) انجلز : « رسالة الى كونراد شميدت » ، نفس المرجع ، ص ١٣٣ ، ١٣٥ .

نتائجهـا . وبذلك يحكمون على الانسـان بالعجز . ولكـن الخبرة تثبت أنه كلما ازدادت معرفة الناس بالقوانين الموضوعية للمجتمع ، كلما ازداد مفعول كفاحهم ضد القوى الاجتماعيـة الرجعية التى تعوق تطبيق هذه القوانين ، لانها تضر بمصالحها الطبقية . فكيف يمكن اذن أن ننكر دور الوعى الذى يعرف هذه القوانين ؟ وكيف يمكن أن ننكر قوته مع ما له من نتائج ؟

الواقع أنه بقدر ما يعرف الناس أو يجهلون قوانين التطور الاجتماعى ، بقدر ما يصبحون قوى مساعدة لهذه القوانين أو يقعون فريسـة لها .

فالمعرفة العلمية لاسباب الحرب الامبريالية تتيح لنا أن نكافح ضدها كفاحا فعالا . ثم ان الفكرة ـ وعلى الخصوص فكـرة التعايش السلمى بين النظامين المختلفين ـ تلعب دور العـائق الحاسم أمام الحملات الصليبية التى تدبر ضد الاتحاد السوفييتى .

٢ ـ الموقف المادى الجدلى

ا) الأصل المادى للافكار هو الذى يقيم قوتها

قلنا ان المادية الجدلية فى تأكيدها للطابع الموضوعى لقوانين المجتمع (وفى المرتبـة الأولى القوانين الاقتصادية) ، تؤكد فى نفس الوقت الدور الموضوعى الذى تلعبه الافكار ، مما يتيـح للناس أن يؤخروا أو يقـدموا وأن يشجعوا أو يعرقلوا تأثير

قوانين المجتمع . أما هؤلاء الذين يسجنون فكرهم فى المادية المبتذلة ، فانهم يقولون :

« هذا تناقض ! فاما أن نعترف بالأمر الأول أو بالثانى ! واما أن نعترف بقوة « العامل الموضوعى » أو نعترف بقوة « العامل الذاتى » . فلنختار واحدا من الاثنين . »

وهذا هو الموقف الميتافيزيقى .

فالمادية الجدلية لا تجعل من المادة والفكر مبدأين منعزلين لا ارتباط بينهما ، بل تعتبرهما وجهين على نفس الدرجة من الواقعية « لنفس الطبيعة الواحدة أو لنفس المجتمع الواحد ؛ ولا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر . فهما مجتمعان معا وهما متطوران معا، ومن ثم لا يوجد مايبرر الاعتقاد بأنهما متنافيان. »

ثم يقول ستالين :

« ان الطبيعة واحدة ولا تتجزأ ، يعبر عنها شكلان مختلفان هما الشكل المادى والشكل المثالى ، والحياة الاجتماعية واحدة ولا تتجزأ، يعبر عنها شكلان مختلفان هما الشكل المادى والشكل المثالى : هذه هى الطريقة التى يجب أن ننظر بها الى تطور الطبيعة والحياة الاجتماعية . » (١)

ومن المفهوم طبعا أن الوجه المادى سابق على الوجه الفكرى .

ومعنى ذلك اذن أن المادية الجدلية لا تعترف بقوة فعل الافكار فى العالم فحسب ، بل انها تفسر هذه القوة تفسيرا عقليا . أما المثالية فهى على عكس ذلك تعزل الافكار عن مجموع

---

(١) ستالين : « فوضوية ام اشتراكية ؟ » .

الواقع فتحيلها الى أشياء غامضة ـ اذ لا بد أن يدفعنا هذا العزل الى أن نتساءل : كيف يمكن أن تؤثر الافكار على العالم (الطبيعة والمجتمع) مع أنه ليس ثمة ما هو مشترك بينهما ؟

فالفضل الذي حققته المادية الجدلية اذن . هو أنها كشفت الاصل المادي للافكار الاجتماعية ، فأتاحت لنا بذلك أن نفهم قوة فعلها في العالم الذي خرجت منه . وبهذا يتضح أن الاصل المادي للافكار والنظريات لا يقلل من خطورتها ولا من دورها ـ وليس هذا فحسب ، بل انه هو الذي يجعلها ذات فاعلية .

فليست المادية الجدلية هي التي تحتقر الافكار ، بل الاحرى أن يقال ذلك عن المثالية التي تحيلها الى كلمات جوفاء ، وتجعل منها أطيافا مجردة من قوة الفعل . فالمادية الجدلية تعترف بما في الافكار من قوة حية تكون في نتائجها مادية مثل قوى الطبيعة تماما .

ولكن هذه القوة ، رغم أنها لا تنعزل ولا تنفصل عن الاساس المادي ، يمكن أن تتطور الى حد ما في اطار حركتها الخاصة . فالخرافات البدائية يمكن أن تبقى في عقول الناس بعد اختفاء الظروف المادية التي نشأت عنها ، ويمكن أن يكون لها حياتها الخاصة المتطورة من جيل الى جيل . ولكن مجموع الواقع لا يلبث على المدى الطويل أن يؤثر على هذا الوجه من الواقع . فالفكرة لها تطورها المستقل نسبيا . ولكن عند ما تشتد حدة التناقض بين الفكرة والعالم الموضوعي ، ينحل هذا التناقض لصالح العالم الموضوعي . ومعنى ذلك اذن أن النظريات الصحيحة هي التي تشق طريقها حتما وتفرض نفسها على الجماهير ، ضد الافكار المضللة وضد الاكاذيب .

ب) الأفكار القديمة والأفكار الجديدة

رأينا عند دراسة أصل الأفكار فى الفصل السابق (١) ، أن التناقض فى الافكار والنظريات يعكس تناقضا موضوعيا فى المجتمع .

فلنتأمل مثلا الازمات الاقتصادية التى تنشأ عن الرأسمالية . ان سببها الموضوعى هو التناقض بين الطابع الخاص لملكية وسائل الانتاج والطابع الاجتماعى لعملية الانتاج . فكيف نحل هذا التناقض ؟

أما البروليتاريا الثورية فتجيب : بواسطة تأميم وسائل الانتاج ، أى بواسطة الاشتراكية . فاذ ذاك لن توجد أزمات، بل ستنطلق القوى المنتجة من أجل سعادة المجتمع . أما البرجوازية التى تقبض على وسائل الانتاج وتستخرج منها أقصى ربح فتجيب : فلنقيد القوى المنتجة ما دامت تهدد نظامنا بالخطر ، ولنوقف التقدم العلمى والتطور الفنى لأدوات الانتاج ، وبذلك نحمى العلاقات الرأسمالية التى تضمن لنا امتيازاتنا .

وهكذا نجد نفس الطبقة التى كانت فى الماضى تتغنى بمدح العلم، تلعنه فى الحاضر ، وتعتبره مسئولا عن « فائض الانتاج » . (٣٢) ولكن البروليتاريا على عكس ذلك تثنى على العلم ، وترى أن الأزمات لا ترجع الى التقدم العلمى ، بل ترجع الى الرأسمالية كنظام اجتماعى . فالعلم فى النظام الاشتراكى يحقق الرخاء .

---

(١) الفصل السابق ، ص ١٣٥ — ١٤٠ .

ومن ذلك كله نرى أن هـذا الصراع الفكرى يقـوم على أساس تناقض موضوعى ، هو تناقض الرأسمالية المتأزمة .

فمن ناحية ، نجد الفكرة المنتشرة جدا والتى يذيعها مفكرو البرجوازية وصـحفيوها ـ وهى أن العلم شر ، وأنه يجب أن نحذره لان تقدمه وبال على البشر ، ويجب أن نخضعه للايمان وللاعتبارات الروحية الخالصة . وليس عبثا أن نرى فى بعض الصحف والمجلات ، أخبار السحر والحظ والغيبيات جنبا الى جنب مع المقالات والأخبار التى تهاجم الشيوعية . وليس من قبيل المصادفة أن تسير الدعاية ضد العلم مع العودة الى متصوفة العصور الوسطى . فكل هذا هو التعبير الفكرى عن مصـالح الطبقة التى يجب أن يقضى عليها تطور المجتمعات ، والتى تريد لذلك أن تدير عجلة التاريخ الى الوراء .

وبديهى أن احتقار العلوم والسخط عليها يفيد البرجوازية : لان انطلاق هذه العلوم فى طريق السلام يهدد النظام الرأسمالى نفسـه . ولهذا تقصر البرجوازية استخدامها للعلم وللأساليب الفنيـة على مجال واحد فقط : هو مجال صـناعة الحروب ! ويساعدها النشاط فى هذا المجال على تدعيم الفكرة التى تقول ان العلم لا يؤدى الى خير البشرية .

وفى مقابل ذلك ، نجد أن الطبقة العاملة كطبقة ثورية تنشر فكرة وجوب تشجيع التقدم العلمى . ولما كانت هـذه الفكرة تتفق اتفاقا تاما مع تطور القوى المنتجة ، كان الكفاح الثورى للطبقة العاملة هو وحده القادر على ضمان انطلاق العلوم .

« فالافكار والنظريات الجديدة ، أى أفكار ونظريات الطليعة ، هى التى تخدم مصالح قوى الطليعة فى المجتمع. وتكمن أهميتها فى أنها تسهل تطور المجتمع وتقدمه . ثم انها فضلا عن ذلك تزداد أهمية بقدر ما تزداد أمانتها فى نقل حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع . » (١)

وهذا هو السبب فى أن الطبقة العاملة عندما تحصل على السلطة تخلق أصلح الظروف المادية لازدهار العلم، كما تستخدم كافة الوسائل لاقناع الناس بأن العلم ضرورى من أجل سعادتهم. ففى الاتحاد السوفييتى مثلا أصبح تطوير علم الحياة الميتشورينى هو قضية الفلاحين فى مزارع الدولة، لارتباطه بكفاحهم من أجل خلق أنواع نباتية جديدة .

ومعنى ذلك أن الأفكار عبارة عن « قوى » . فالأفكار القديمة قوى رجعية، ولهذا تعمل الطبقات الرجعية على تنميتها. وأفكار الطليعة قوى تساعد على تقديم المجتمع ، ولهذا تحبذها الطبقات الصاعدة أقصى تحبيذ .

ولكن هذا لا يعنى قط أن الطبقات المذكورة تخلق تكويناتها الفكرية خلقا تلقائيا وبوصفها طبقات . فالأفكار تنتج عن عملية المعرفة . ونحن نعرف أن المجتمع الذى يخضع لتقسيم العمل يتخصص فيه أفراد معينون فى استكمال الافكار فى صورة نظريات . وهؤلاء الافراد هم رجال الدين والفلاسفة والعلماء والفنيون والمربون والفنانون والكتاب وغيرهم . ولكن الطبقة فى مجموعها هى التى تستخدم هؤلاء .

---

(١) ستالين : « المادية الجدلية والمادية التاريخية » ، ص ١٦ .

ولعل من المناسب أن نشير هنا الى معنى «الافكار الجديدة». فنحن عندما نتحدث عن الافكار الجديدة لا نفهمها قط على طريقة الجداول . فقد يحدث أن تتخلى احدى الطبقات عن فكرة ما ، فتتلقفها طبقة أخرى بشكل آخر . من ذلك أن البرجوازية الثورية (يمثلها ديدرو وكوندورسيه) كانت تتبنى الفكرة التى تقول ان العلم يؤدي الى خير البشرية . وقد تلقفت البروليتاريا الثورية هذه الفكرة وجددتها ، واستطاعت أن تستخلص منها نتائج عملية فى بناء الاشتراكية . أما البرجوازية فلم تستطع أن تمضي بهذه الفكرة حتى النهاية . ومعنى ذلك اذن أن الطبقات يمكن أن تستخدم أفكارا سبق استخدامها . وليس هذا بغريب . فالناس يدركون بالخبرة قوة الافكار المختلفة ، ومن ثم تهتم الطبقة بالافكار التى تخدم حكمها أو صعودها من بين كافة الافكار التى كانت موجودة من قبل . وعلى عكس ذلك أيضا قد تستبعد الطبقة من تكوينها الفكري الفكرة التى لم تعد تلائمها . فالبرجوازية الفاشية مثلا تدوس اليوم على «راية الحريات الديمقراطية البرجوازية» التى رفعتها البرجوازية من قبل ضد الاقطاع لتكسب حولها الجماهير المقهورة .

ثم ان البرجوازية الفاشية تعمل على نشر أفكار معينة على أنها « جديدة » لتخدم بها مصالحها ، ولا تكون هذه الافكار فى حقيقتها سوى أفكار بالية صيغت فى شكل جديد . من ذلك مثلا أن هتلر كان يوهم الناس بأن أحدث ما قاله العلم هو النظرية اللاعلمية التى ترجع الى العصور الوسطى ، الا وهى نظرية « الدم » و « العنصر » . كذلك كان موسوليني يعلن على الناس

أن الاشتراكية البروليتارية « أسطورة بالية » ، أما الفاشية فهى « أسطورة جديدة » !

وهكذا نرى أن «الجدة» لا تقاس بالتاريخ ، ولكن بالقدرة على حل المشاكل التى تبرز فى لحظة معينة ، أى بالقدرة على حل المشاكل « الجديدة » . فكتاب ماركس « رأس المـال » أكثر جدة من أحدث ما تدرسه الكليات البرجوازية فى الاقتصـاد السـياسى .

ولننتقل الى ملاحظة أخرى .

ان الافكار تكون دائما فى خدمةهذه الطبقة أو ذلك المجتمع فى مرحلة تاريخية محددة . ولكن يجب ألا نستنتج من هذا أن كل الافكار متساوية فى قيمتها . فالفكرة التى تقول ان العلم يضر بالبشرية فكرة خاطئة ، بمعنى أنها منافية للواقع ، لأن تقدم المجتمعات البشرية لا يمكن أن يتحقق بدون علوم . أما الفكرة التى تقول ان العلم يؤدى الى خير البشرية فهى فكرة صحيحة ، بمعنى أنها مطابقة للواقع . ولهذا تتبناها الطبقة العاملة كطبقة صاعدة تحتاج الى الحقيقة بقدر احتياج البرجوازية المنهارة الى الكذب (١) . ولكن الافكار الخاطئة هى أيضا قوة فعالة ، لا تقل فى ذلك عن الافكار الصحيحة . ومن هنا لزم أن نحاربها بسلاح

---

(١) ان الطبقات الرجعية تعمل على « قتل الأفكار » عن طريق الكبت والاضطهاد . وهذا مايرويه لنا التاريخ . قال بول الوار :

« لقـد طاردوا الأبرياء
كالوحـوش
وبحثوا عن العيون
التى تبصر فى الظلام
كى يفقأوها . »

الافكار السليمة ، أى أفكار الطليعة . والنصر النهائى معقود لهذه الافكار ، لانها تعكس بأمانة كبيرة احتياجات التطور الاجتماعي . وهى تكسب كل يوم مزيدا من الاهمية ؛ كلما أدرك الناس حتميتها . وبهذا تتسع اشعاعاتها .

جـ) الأفكار الجديدة تملك القدرة على التنظيم والتحريك والتغيير

« الأفكار والنظريات الاجتماعية الجديدة لا تظهر الا عندما يبرز تطور الحياة المادية للمجتمع مهاما جديدة أمام المجتمع . ولكنها لا تكاد تظهر حتى تصبح قوة من أخطر القوى التى تسهل انجاز المهام الجديدة التى يبرزها تطور الحياة المادية للمجتمع ، أى تسهل تقدم المجتمع . وهنا بالذات تظهر كل خطورة دور التنظيم والتحريك والتغيير الذى تلعبه الافكار والنظريات الجديدة ، والآراء والنظم السياسية الجديدة . والحقيقة أن الافكار والنظريات الاجتماعية الجديدة لا تظهر الا عندما تكون ضرورية للمجتمع ، من حيث أنها اذا لم تباشر فعلها فى التنظيم والتحريك والتغيير ، يصبح من المستحيل حل المشاكل العاجلة التى يتضمنها تطور الحياة المادية للمجتمع . فتطور الحياة المادية للمجتمع يبرز مهاما جديدة، ويدفع الافكار والنظريات الجديدة ، فتشق هذه طريقها وتنزل الى الجماهير الشعبية ، فتحركها وتنظمها ضد القوى المنهارة فى المجتمع ، وتسهل بذلك التطويح بهذه القوى التى تعرقل تطور الحياة المادية للمجتمع . » (١)

---

(١) ستالين : « المادية الجدلية والمادية التاريخية » ، ص ١٦ .

وهذه الفقرة هامة جدا ، لانها تلقى الضوء على أشكال التأثير الذى تباشره الأفكار الجديدة .

فالأفكار الجديدة تحرك ، بمعنى أنها تدفع الطاقات وتثير الحماس وتخلق الحركة فى الجماهير (١) .

وهى تنظم ، بمعنى أنها تخلق فى هذه الحركة الوحدة والالتئام الدائم . ومثال ذلك أن فكرة الكفاح المتحد من أجل السلام خلقت لجان السلام التى نظمت حركة السلام

وهى تغير ، ليس فقط بمعنى أنها تؤثر فى وعى الناس فترفعه ، بل أيضا بمعنى أنها تجعل من الممكن حل المشاكل التى يبرزها المجتمع حلا فعالا .

قال ماركس :

« ان النظرية تصبح قوة مادية بمجرد أن تتغلغل فى الجماهير » (٢)

وان التاريخ ليوضح لنا بالصور الوافرة حقيقة هذا الدور الثلاثى الذى تلعبه الأفكار .

ففى عام ١٧٨٩ ، كانت فكرة الطليعة فى روسيا هى : من أجل القضاء على الحرب والحصول على الأرض وضمان تحرر القوميات المقهورة .. ألخ ، لابد من تصفية حكومة كيرنسكى البرجوازية واعطاء كل السلطة للسوفييتات . وقد أتاحت هذه الفكرة تنظيم وتحريك الجماهير ، وبالتالى أتاحت تغيير المجتمع الروسى .

---

(١) ليس هذا بالتأكيد قولا مثاليا . فالفكرة لا تستطيع ان تحرك الجماهير الا اذا كانت تعكس ظروفها « المادية » ، أى اذا كانت تأتى عن دراسة للموقف « الموضوعى » .

(٢) ماركس : « نقد فلسفة الحق عند هيجل » .

وما أكثر ما يمكن أن يقال من أمثلة . الا أن هناك مثلا واحدا يعرفه الكادحون الفرنسيون معرفة أكيدة ، لانه يرتبط بظروفهم الحاضرة أشد ارتباط .

قال موريس توريز فى تحليله لموقف اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الفرنسى (فى يونية ١٩٥٣) :

« ان الحدث الحاسم فى هذه الساعة هو تقدم فكرة الوحدة بين الجماهير الشعبية » .. الوحدة من أجل ماذا ؟ من أجل « أن تنتصر فى فرنسا سياسة السلام والاستقلال الوطنى ، وسياسة الحرية والتقدم الاجتماعى » . فكيف اشتد اتجاه الكادحين شيئا فشيئا نحو هذه الفكرة ؟ السبب هو انفجار « كل تناقضات السياسة التى نتجت عن مشروع مارشال وحلف الاطلنطى » ، سياسة الدمار والحرب والاستعباد ، وسياسة الفاشية والرجعية الاجتماعية . وهكذا فهم الكادحون أنه من أجل تغيير ذلك ، « ليس ثمة سبيل سوى الاتحاد والعمل المتحد » . ومن هنا سيطرت فكرة الوحدة على الجماهير ، وأخذت سيطرتها تشتد أكثر فأكثر . فهى تحركها وتنظمها فى لجان اضراب ولجان سلام ولجان دفاع عن الحريات وما الى ذلك . وكلما ازدادت الجماهير وعيا وازداد اتساع حركتها ، اقتربت التغيرات المادية التى يحتمها الموقف .

من هذا يتضح اذن أن المهام الجديدة التى يبرزها التاريخ تدفع الافكار الجديدة . ويصبح لهذه الافكار وزنها الحقيقى عندما تتغلغل فى الجماهير التى تصنع التاريخ . وازاء هذه الحقيقة يضطر أعداء التقدم الى التحايل على الافكار الجديدة، التى تتحول الى قوى رهيبة على أيدى الشجعان من الناس .

وهذا ما تفعله البرجوازية وعملاؤها ، الزعماء الاشتراكيين . فاتساع تيار الوحدة يرسل الرعب فى قلوب هؤلاء — كما لاحظ موريس توريز — الى درجة أنهم « يحاولون أن يتبنوا شعار الوحدة من أجل الكفاح ضد الوحدة » .. تحيات الشر الى الخير ! ولكن أعمال العنف البوليسية تعجز عن مقاومة القوى الهائلة للجماهير .. فأحرى بالتحايلات المضللة أن تلقى نفس المصير . فالجماهير اذا اكتسبت الوعى عرفت أين تسير وماذا تريد وماذا يجب أن تفعل . (١)

---

(١) فى المجلد الثانى ص ١٧٨ ، « المؤلفات المختارة » من لينين ، نجد مثالا يوضح بشكل تام دور التغيير والتنظيم الذى تلعبه الافكار الجديدة عندما تسيطر على الجماهير ، وذلك فى تعليق لينين فى اكتوبر عام ١٩١٧ على المرسوم الذى صدر بالغاء الملكية العقارية الكبيرة واعطاء الارض للفلاحين الكادحين . وكان المرسوم اعتمادا لمذكرة صاغها الاشتراكيون الثوريون فى الريف (وكان هؤلاء لايزالون يتمتعون بنفوذ كبير بين الفلاحين) . ولكن هذه المذكرة لم تكن تشبه فى تفاصيلها مذكرة البلاشفة . ولهذا صرح لينين باسم الحكومة الثورية التى يقودها البلاشفة قائلا :

« ارتفعت هنا اصوات تقول ان المرسوم نفسه والمذكرة قد وضعهما الاشتراكيون الثوريون . فليكن ! فلا يهمنا ان نحدد من الذى وضعهما . ولكننا كحكومة ديمقراطية لانستطيع أن نهمل قرار الجماهير الشعبية فى صميم الريف ، حتى لو اختلفنا معها . وفى غمرة الحياة سوف تطبق الجماهير هذا القرار عمليا وتستخدمه فى ميدانه الواقعى ، واذ ذاك ستفهم أين توجد الحقيقة . وحتى اذا استمر الفلاحون يجرون وراء الاشتراكيين الثوريين . وحتى اذا أعطوا الاغلبية لهذا الحزب فى الجمعية التأسيسية ، فسوف نظل نقول : ليكن . فالحياة خير معلم ، وهى التى تبين من منا على صواب . فليعمل الفلاحون على حل المشكلة من طرف ، وسنعمل نحن على حلها من الطرف الاخر . ولكن الحياة ستقرب ما بيننا فى خضم السيل المشترك ، سيل المبادرة الثورية ، وفى عملية تقويم =

٣ ــ الخلاصة

هكذا يتضح أن الافكار والنظريات الاجتماعية تلعب دورا كبـيرا .

ويمكن أن نستخلص من هذه الحقيقة النتائج التالية :

١ ــ الافكار قوى فعالة . ومعنى ذلك اذن أن الثورى الذى يتجاهل مكافحة وجهات النظر الخاطئة المنتشرة بين الكادحين ، يصيب « الحركة الثورية كلها بالخسـارة ، لانه يقف موقف المادية المبتذلة الخاطئة ، لا موقف المادية الجدلية المتينة ، التى هى الاساس النظرى للاشتراكية العلمية . ولنذكر مثـالا على ذلك الدور الذى تلعبه الصحافة . فاذا تركنا الصحافةالبرجوازية

ـ الاشكال الجديدة للدولة . فيجب ان نقتفى سير الحياة ، وجب ان نتيح أوسع الفرص لعبقرية الجمـاهير الشـعبية الخـلاقة . فالحكومة السـابقة (حكومة كيرنسكى) التى اطاحت بها الانتفاضـة المسلحة ، كانت تزمع حل المسالة الزراعيـة بواسـطة الموظفـين القيصريين القدامى الذين لم يعزلوا من وظائفهم . ولكن البيروقراطية بدلا من ان تحسم المسـالة ، اتجهت الى محاربة الفلاحين . وهكذا تعلم الفلاحون أشياء كثيرة فى هذه الشهور الثمانية من ثورتنـا ، فأصبحوا يريدون أن يحلوا بأنفسهم كافة المسائل المتعلقة بالأرض . ومن هنا وقفنا نحن ضد أى تعديل لمشروع القانون هذا . فنحن لاندخل فى التفاصيل ، لأننا نضع مرسوما ، لابرنامج عمل . وأن روسيا الكبيرة ، وان ظروفها المحلية لمتنوعة . ونحن لانشك فى ان الفلاحين أنفسهم سيعرفون أحسن منا كيف يحلون المسالة حلا صحيحا كما يجب . اما أن يتفق هذا الحل مع روح برنامجنا أم مع روح برنامج الاشتراكيين الثوريين ، فليس هـذا الأمر جوهريا . والمسالة الجوهرية هى ان يتيقن الفلاحون يقينا لايتزعزع بأنه لم يعد هناك فى الريف ملاك عقاريون ، وبأن على الفلاحين أنفسهم ان يحسموا كافة المسائل وأن ينظموا حياتهم . »

تنفث السموم فى صفوف الكادحين، تركنا هؤلاء فرائس فى براثن الافكار الاستسلامية القديمة التى تعوق التقدم الاجتماعى . لقد كانت هناك صحيفة فى عام ١٩٠٠ ، هى صحيفة اسكرا (الشرارة) التى كان يحررها لينين . وكانت هذه الصحيفة تبذر فى مشاعر الكادحين بذرة الافكار الجديدة . ونمت البذرة . وعندما تلقفت سواعد الثوريين أفكار اسكرا ، تكون فى عام ١٩٠٣ الحزب الذى كان عليه فيما بعد أن يقود الثورة الاشتراكية . فصراع الافكار وجه لازم لصراع الطبقات . والتخلى عن محاربة الافكار التى تخدم سيطرة البرجوازية ، يعنى شل حركة البروليتاريا .

٢ ــ ان الكيان الاجتماعى هو الذى يحدد الشعور أو الوعى الاجتماعى . الا أن الوعى الاجتماعى يعود فيؤثر فى المجتمع . ثم ان هذا الفعل الراجع ليس لازما لانجاز التغيرات المادية فحسب ، بل ان الفكرة فى لحظة معينة تلعب الدور الحاسم . ففى مثل هذه اللحظات يكون صواب الشعارات عنصرا يحدد الموقف . ولنذكر مثالا على ذلك :

ان مصالح العمال والفلاحين والموظفين وغيرهم ، يلحقها الضرر فى فرنسا على يد عدو واحد هو البرجوازية الكبيرة الرجعية . ومن هنا تصبح وحدة العمل بينهم ممكنة ماديا . ولكن يلزم أيضا أن يفهم الكادحون هذه الحقيقة .. وهنا يصبح العنصر الحاسم هو فكرة أن الوحدة ممكنة . ولما كانت هذه الفكرة هى العنصر الحاسم ، كان الزعماء الاشتراكيون الذين يريدون تفتيت الحركة العمالية يرددون فى آذان الكادحين الاشتراكيين : لاتذهبوا مع الشيوعيين ! ــ ومن ناحية أخرى كان

المناضلون الشيوعيون أبطال الوحدة يضاعفون جهودهم من أجل جذب الكادحين الاشتراكيين الى العمل المشترك ، وعندما ينجح العمل المشترك ، تتولد عند هؤلاء فكرة أن الوحدة ممكنة وتؤدي الى خيرهم . ثم ان هذه الفكرة تسهل الاتفاق على أعمال مشتركة جديدة ، وهكذا دواليك ، حتى يتحقق النصر المشترك .

والفكرة تكون أقوى بقدر ما تعكس الموقف الموضوعي في لحظة معينة ، وبقدر ما تتلاءم بدقة مع الامكانيات الموضوعية لهذه اللحظة . وبعبارة أخرى ، يلعب العنصر الذاتي دورا حاسما بقدر ما يعكس العنصر الموضوعي بطريقة صحيحة . وبهذا لا تلغي المادية الجدلية دور الشعور ، بل تعترف له بكل قيمته . فهي اذن على نقيض المادية الساذجة التي تتصور « الانعكاس الفكري » نتاجا ساكنا لا دور له ، ومن ثم تقول : « الظروف الموضوعية حسنة . جميل ! فلنترك أنفسنا لها . فكل شيء سيسير على ما يرام ! » أما المادي الصحيح فلا يترك نفسه للظروف أبدا .

وقد عبر ستالين عن هذه القوة الحاسمة التي تباشرها الفكرة عندما تجتمع لها أحسن الظروف الموضوعية ، فقال :

« يمكن صيانة السلام وتدعيمه اذا أخذت الشعوب على عاتقها قضية المحافظة على السلام ، واذا دافعت عنه حتى النهاية . ولكن الحرب يمكن أن تصبح أمرا محتوما اذا استطاع مجرمو الحرب أن يغرقوا الجماهير الشعبية في الأكاذيب وأن يضللوها ، وأن يجروها الى حرب عالمية جديدة . » (١)

---

(١) ستالين : « كتابات أخيرة » ، ص ٦٧ .

٣ ــ يحتم علينا الدور الفعال الذي تلعبه الأفكار والنظريات الاجتماعية أن تكون لنا نظرية تتلاءم بدقة مع الحاجات المادية للمجتمع ، وحاجات الجماهير الكادحة التى تصنع التاريخ، والتى تملك وحدها القــوة القادرة على تحطيم مقــاومة البرجوازية المستغلة . أما احتقار النظرية كما يفعل الانتهــازيون (من أول المناشفة الروس حتى ليون بلوم وجول موخ) ، فهــذا يعنى حرمان الطبقة العاملة من البوصلة التي توجه حركتها الثورية . قال لينين :

« بدون نظرية ثورية ، لا حركة ثورية . » (١)

فمن ميزات الاشتراكية العلمية اذن ، أنها تقدر خطورة دور الأفكار تقديرها الصحيح ، وهذا على أساس فلســفتها المادية الجدلية ، فهى تضع النظرية « فى المرتبة العالية التى تستحقها ، وتعتبر واجبا عليها أن تستخدم كل ما للنظرية من قوة فى التحريك والتنظيم والتغيــير . » (٢)

وسوف ندرس فى الفصل التالى ميزات الاشتراكية العلمية هذه.

---

(١) لينين : « ما العمل » ص ٢٦ .

(٢) ستالين : « المادية الجدلية والمادية التاريخية » ، ص ١٧ .

الفصل الثالث

الاشتراكية العلمية

تكونها . أهميتها . دورها .

ان المثالية عاجزة عن فهم أصل الأفكار والنظريات الاجتماعية، والدور الذى تلعبه. أما المادية الجدلية ففى مقدورها ان تفهم ذلك. الا أنها لا تفلت هى نفسها من القوانين التى تحكم ظهور الأفكار وفعلها. وهكذا نجد أن المثالية لا تفهم نفسها، اذ لو استطاعت أن تفعل ذلك لما أصبحت مثالية، بل لاصبحت مادية. وفى نفس الوقت نجد أن النظرية الماركسية تستطيع أن تدرس موضوعيا تاريخها هى، وأن تقدر موضوعيا خطورته.

وقد خصصنا هذا الفصل للجانب الاجتماعى والسياسى جدا فى النظرية الماركسية، ألا وهو الاشتراكية العلمية. وسوف ندرس تكونها ودورها.

١ ـ المصادر الثلاثة للماركسية

اذا نظرنا الى الماركسية فى مجموعها، أى المادية الجدلية والمادية التاريخية والاشتراكية العلمية (٣٣) وجدنا أنها ليست نتاجا تلقائيا للروح البشرية. فقد نشأت ـ من ناحية ـ على

اساس التناقضات الموضوعية للمجتمع الرأسمالى ، لتحل هذه التناقضات بطريقة مجددة . ثم انها من ناحية أخرى وفى نفس الوقت تنتجت عن حركة الأفكار التى تكونت فى ظروف موضوعية سابقة، وكانت تتجه الى حل المشاكل التى أبرزها تطور المجتمعات.

« فتاريخ الفلسفة وتاريخ العلم الاجتماعى يدلان بوضوح تام على أن الماركسية لا تمت بوجه من وجوه الشبه الى «الحلقية الفلسفية » ، بمعنى أنها ليست مذهبا منطويا على ذاته محنطا ، ظهر بعيدا عن الطريق الواسع الذى سار فيه تطور المدنية العالمية. بل ان نبوغ ماركس كان على عكس ذلك يكمن فى أنه استجاب للمشاكل التى أثارتها من قبله البشرية المتقـدمة . فقد ظهرت نظريته كاستمرار مباشر ولاحق للنظريات الأخرى التى وضعها أبرز ممثلى الفلسفة والاقتصاد السياسى والاشتراكية . » (١)

من هذا يتضح أن الماركسية ــ منظورا اليها فى مجموعها ــ ترجع الى ثلاثة مصادر نظرية . فلنحدد خصائص هذه المصادر بايجـاز .

ا) الفلسفة الألمانية

تعتبر الفلسفة الألمانية فى صدر القرن التاسع عشر مصـدرا من مصادر الماركسية . وهذا ما تناولناه من قبل (٢)

فنحن نعرف أن هيجـل كان معجبا بثـورة ١٧٨٩ (الثورة

---

(١) لينين : «المصادر الثلاثة والاجزاء الثلاثة المكونة للماركسية»، فى « كارل ماركس ونظريته » ، ص ٣٧ ، باريس ١٩٥٣ .

(٢) انظر المقـدمة والدرس الاول من الجـزء الاول للمبـادىء الأساسية للفلسـفة ، للمؤلفين .

الفرنسية) ، ومن ثم كان يريد أن يحقق فى مجال الأفكار ثورة مماثلة لهذه الثورة الفرنسية التى تحققت فى مجال الأحداث . ومن هنا جاء الجدل. فكما أن الثورةقضت على النظامالاقطاعى الذى حسبه الناس أبديا ، كذلك خلع الجدل الأفكار عن عروشها ، بعد أن حسبها الناس أبدية ، وهكذا نظر الجدل الى التاريخ كعملية يحركها صراع الأفكار المتضادة . وقد كان هذا هو التعبير الفكرى عن أمانى البرجوازية الألمانية فى نهاية القرن الثامن عشر وصدر القرن التاسع عشر ، اذ كانت ألمانيا الممزقة الأوصال لا تزالتخضع للنظام الاقطاعى، بينما كانت البرجوازية الألمانية الفتية تحلم بأن تحقق لحسابها ما حققته البرجوازية الفرنسية بشكل حاسم على الضفة الأخرى من نهر الرين . الا أن البرجوازية الألمانية كانت ضعيفة، ومن ثم لم تكن قادرة على انجاز هذه المهمة التاريخية : وهذا ما يفسر النقص الجذرى فى فلسفة هيجل، ألا وهو المثالية . فالمثالية هى على الدوام انعكاس لعجز موضوعى . ولهذا كانت فلسفة هيجل تعبيرا نظريا عن برجوازية تريد التطويح بالاقطاع، ولكنها فىنفس الوقت عاجزة عن أن تفعل ذلك ، مما جعل هذه الفلسفة بتعبير انجلز « اجهاضا لجنين ضخم الجثة . » (١)

ومن هنا ظل هذا التطور الجدلى مثاليا محضا ، بل هناك ماهو أكثر من ذلك ! فقد ارتبط هذا الجدل بالدولة الاقطاعية البروسية (٢) فانتهى الى النظر الى هذه الدولة كتعبير تاريخى

(١) انظر كتاب انجلز : « لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة التقليدية الألمانية » ، الجزء الأول .

(٢) يلاحظ أن فردريك جويوم الثانى فى عهد هيجل ، كان يعد الناس « بملكية نيابية » لا يمكن قط ان تلغى الطابعالاقطاعى للدولة.

ضرورى عن « الفكرة » . وبهذا كان الجدل يغرق فى التصوير المثالى للواقع .. اذ كانت حركته تقف عند عجز طبقة لا تستطيع أن تحقق الثورة ... الا فى عالم الفكر ! (٣٤)

غير أن كفاح الفلاسفة البرجوازيين فى الجيل التالى على هيجل ، ضد النظام الاقطاعى الكنسى ، جعلهم يبحثون عن أسلحة نظرية أخرى يحاربون بها عدوهم الطبقى . فوجدوا هذه الاسلحة فى المادية الملحدة التى انتشرت فى فرنسا فى القرن الثامن عشر . وتتمثل هذه الخطوة فى لودفيج فيورباخ ، الذى أعاد « المادية الى عرشها » فى كتابه « جوهر المسيحية » (١٨٤١) . وقد أثر فيورباخ تأثيرا كبيرا فى ماركس (الذى ولد عام ١٨١٨) وفى انجلز (الذى ولد عام ١٨٢٠) ، وكانا كلاهما من البرجوازية الليبرالية الألمانية . ولكن مادية فيورباخ كانت ميكانيكية (١) . صحيح ان فيورباخ أصاب فى نظرته الى الانسان كنتاج للطبيعة . الا أنه لم ير أن الانسان هو أيضا منتج ، أى أنه يغير الطبيعة ؛ وأن هذا هو اصل المجتمع . ثم ان فيورباخ كان ينقصه المفهوم العلمى للتاريخ ، ومن ثم استبدله بدين غامض سماه دين الحب ، وبهذا عاد الى المثالية . وكان فى هذا يترجم أيضا عجز البرجوازية الألمانية : فقد عجزت عام ١٨٤٨ عن أن تقود الى النصر ثورتها ضد الاقطاع .

وعند ما استكمل ماركس المادية الجدلية ، وضع بذلك فلسفة متكاملة علميا ، تتخطى الجدل المثالى الهيجلى فى نفس

---

(١) انظر الباب الأول ، الفصل الثانى .

الوقت الذى تتخطى فيه مادية فيورباخ الميكانيكية (١) . وقد وضع ماركس أول عرض للمادية الجدلية فيما كتبه فى ربيع عام ١٨٤٥ بعنوان « قضايا عن فيورباخ » . وفى القضية الحادية عشرة كتب ماركس معبرا عن انتقال الفلسفة التقليدية الألمانية الى الماركسية فقال :

« اقتصر الفلاسفة على تفسير العالم بشتى الطرق ، ولكن المهم هو تغييره . » (٢)

ب) الاقتصاد السياسى الانجليزى

كانت انجلترا فى صدر القرن التاسع عشر أرقى البلاد اقتصاديا ، اذ كانت البرجوازية الانجليزية فى نهاية القرن الثامن عشر أسبق البرجوازيات فى الانتقال من المصانع اليدوية manifatcure الى المصانع الميكانيكية fabrique ، أى الى استخدام الآلات . وبهذه الطريقة نشأ الانتاج الصناعى الواسع الذى هو الأساس الفنى للمجتمع الرأسمالى . وقد ساعدت هذه الظروف الموضوعية على ازدهار الاقتصاد السياسى ، بوصفه :

« علم القوانين التى تحكم انتاج وتبادل الوسائل المادية لبقاء المجتمع البشرى . » (٣)

وقد اكتشف الاقتصاديان الانجليزيان الكبيران آدم سميث ودافيد ريكاردو ، نظرية القيمة والعمل . الا أنهما لم يصلا الى

---

(١) انظر الجزء الاول من « المبادىء الاساسية للفلسفة » ، للمؤلفين ، الدرس الأول .

(٢) « لودفينج فيورباخ » ص ٥٣

(٣) انجلز : « الرد على دورنج » ، ص ١٧٩ .

ادراك ما وراء التبادل السلعى والعلاقات الموضوعية بين الناس، ومن ثم عجز الاثنان عن أن يبينا كيف تتحدد قيمة كل سلعة بواسطة زمن العمل اللازم اجتماعيا لانتاجها . وهنا كان لماركس الفضل فى تحديد الطبيعة الحقيقية للقيمة التبادلية ، بوصفها الشكل المجسم للعمل الاجتماعى . وفى هذا تخطى ماركس حدود الاقتصاد السياسى الانجليزى ، الذى كان عاجزا عن السير بتحليل الرأسمالية الى النهاية ، لان مصالح الطبقة الغالبة كانت تتعارض مع ذلك . وقد ظل الاقتصاديون يظنون الرأسمالية أبدية ، حتى حقق ماركس الطفرة الحاسمة فى الاقتصاد السياسى، باكتشافه فائض القيمة .

قال انجلز :

« لقد ثبت أن الاستيلاء على العمل غير المأجور هو الشكل الأساسى للانتاج الرأسمالى ولاستغلال العمال استغلالا لاينفصل عن هذا الانتاج الرأسمالى ، وثبت أن الرأسمالى عندما يدفع للعامل القيمة الحقيقية لقوة عمله كسلعة فى السوق ، يمتص منها فى نفس الوقت ورغم ذلك ، قيمة أكبر مما دفع من أجل الحصول عليها ، وثبت أن فائض القيمة هذا هو الذى يتكون منه فى نهاية المطاف مجموع القيم التى يأتى منها رأس المال المتزايد باستمرار والمتراكم فى أيدى الطبقات المتملكة . وبهذا اتضحت طريقة سير الانتاج الرأسمالى ، وكذلك انتاج رأس المال . » (١)

وقد عمل ماركس فى وضع كتاب رأس المال سنوات عديدة ، فبدأ فى كتابته عام ١٨٦٢ ، وانتهى من المجلد الأول عام

(١) انجلز : « الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية » ، ص ٥٧ .

١٨٦٧ ، ثم استمر فى بقية المجلدات حتى وفاته عام ١٨٨٣ ، وحدد كتاب رأس المال قمة الاقتصاد السياسى الماركسى .

ح) الاشتراكية الفرنسية

نجد فى مادية الفلاسفة الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، بذور الاشتراكية الحديثة التى ازدهرت فى الاشتراكية العلمية صحيح ان هلفتيوس ودولباخ وغيرهما لم يكونوا قط اشتراكيين الا انهم وضعوا قضايا اساسية ، مثل الخير الطبيعى فى الانسان ، وقدرة التجربة والعادة والتربية على تغيير كل شىء ، والتأثير الحاسم الذى يباشره الوسط الطبيعى والاجتماعى على الشخصية والعادات ، وما الى ذلك من القضايا التى جعلت ماديتهم :

« .. ترتبط بالضرورة بالشيوعية والاشتراكية .. (لأنه) اذا كانت الظروف هى التى تصنع الانسان ، كان من الواجب أن نصنع ظروفا انسانية . » (١)

وهكذا نجد ان « جراشوس بابيف » الذى قدم رقبته فى سبيل الاشتراكية (اذ أعدم على المقصلة عام ١٧٩٧ بواسطة البرجوازية التى أعدمت روبسبيير) كان تلميذا لفلاسفة القرن الثامن عشر(٢) أما أسلاف ماركس الطوباويون الثلاثة ــ سان سيمون وفورييه الفرنسيان وأوين الانجليزى ــ فقد كانوا من المتعمقين لمادية القرن الثامن عشر .

---

(١) ماركس : « اضافة الى تاريخ المادية الفرنسية » فى ماركس انجلز : « دراسات فلسفية » ، ص ١١٦ .

(٢) بابيف : « نصوص مختارة » ، قدمها ج ، ك ويلار . باريس ، ١٩٥٠ .

وفى هذا ، كان انجلز على صواب عند ما قال عن الاشتراكية الحديثة :

« كان يجب كأى نظرية جديدة أن ترتبط بالنظام الفكرى لأسلافها المباشرين ، رغم انها واقعيا كانت ترتكز على واقع الأحداث الاقتصادية .. » (١)

الا أن الاشتراكية السابقة على ماركس لم تكن قد أصبحت بعد علمية ، بل انها كانت اشتراكية طوباوية . وقد تكونت فى معظمها من الاشتراكية الفرنسية ، ولكنها ضمت كذلك بعض المفكرين الألمان ، والمنظر الانجليزى الكبير أوين .

٢ ــ الاشتراكية الطوباوية

تكونت الاشتراكية الطوباوية فى ظروف المجتمع الرأسمالى. وكانت البرجوازية قد حاربت النظام الاقطاعى باسم الحرية والأخاء ، ولكن حكمها لم يلبث ان جعل من المجتمع فى فرنسا وانجلترا غابة وحوش . لأنه لما كان التطور الصناعى فى اطار الرأسمالية يقوم على أساس استغلال العمال ، فقد تكونت اقطاعيات جديدة، هى اقطاعيات المال، تضمن للبرجوازية المتملكة الثروة والقوة ، وللجماهير الكادحة الفقر والبؤس .

---

(١) انجلز : « الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية » ، ص ٣٩ ، باريس ، ١٩٤٨ .

وتعتبر نقطة البدء فى الاشتراكية الطوباوية ، استنكار هذا الوضع بشكل عام. وفى هذا اختلف الطوباويون عن الاقتصاديين البرجوازيين ، فى أن هؤلاء كانوا يعتبرون وضع البرجوازية والعمال وضعا « طبيعيا » ، ما دام يضمن تطور الصناعة ، اما الطوباويون ، فقد أعملوا معاول النقد فى ذلك النظام الذى « ينتج فيه الفقر عن الزيادة فى وفرة الانتاج » ـ على حد تعبير فورييه .

وكان سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) أحد الطوباويين الذين وجهوا النقد الى الرأسمالية . وفى رأيه أن الانتاج يتطور فى ظل الرأسمالية تطورا فوضويا وفى صراع حاد بين رجال الصناعة وفوق الآلام الهائلة التى تقاسيها الجماهير . الا أن سان سيمون كان مقتنعا بأن تطور الصناعة أساس سعادة البشرية . ولهذا تحدث عن الفوائد التى يجنيها البشر من وجود « تنظيم عقلى» للانتاج ، يضع هذا الانتاج فى أيدى الناس مترابطين ، يستغلون الطبيعة استغلالا مشتركا . فهكذا يختفى استغلال الانسان للانسان ، وننتقل « من التحكم فى الناس الى التحكم فى الأشياء » (١) .

أما شارل فورييه (١٧٧٢ ـ ١٨٣٧) فقد درس أزمات الرأسمالية وأدان النتائج المؤسفة لأسلوب التناحر الرأسمالى ، واستنكر بصفة خاصة مفاسد المضاربات والتجارة . وكان فورييه يؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة ، ولهذا وجه نقدا

---

(١) سان سيمون : « نصوص مختارة » قدمها ج دوترى . باريس ، ١٩٥١ .

شديدا لاستغلال المرأة على يد البرجوازية . وكان يعتبر الدولة مدافعة عن مصالح الطبقة السائدة . ثم انه بين كيف ارتدت البرجوازية الى المسيحية بعد أن حاربتها فى مرحلة ثورتها، وكيف أخذت تنشر أفكار التواكل لأنها تخدم مصالحها . وفى رأيه أن «الجمعيات المتحدة» هى دواء كل داء. فلو وحد الملاك مصالحهم وعملهم وعبقرياتهم وانتظموا فى جماعات صغيرة للانتاج (يسميها فورييه وحدات المنتجين أو الفالنجات) ، لاستطاعوا بذلك أن يضمنوا للبشرية امكانيات لا نهائية للازدهار المنسجم . وهنا يلغى نظام الأجر ، وتتحول التربية الى تربية صناعية هندسية ويؤدى التنافس فى العمل الى خير المجموع ، ويرتفع صرح المصانع الضخمة التى تؤكد قيمة كوكبنا فى الكون . (١)

ولننتقل الى طوباوى آخر هو روبرت أوين (١٧٧١ـ١٨٣٨) .

وأوين صاحب عمل ، شاب ، كان تلميذا لماديى القرن الثامن عشر ، ولهذا كان يؤمن فى عمق بأن أخلاق الناس (من فضائل ورذائل) هى نتاج الظروف . وفى رأيه أن الثورة الصناعية التى تحققت فى انجلترا تخلق الظروف المؤدية الى سعادة الجميع . وقد بدأ أوين كصاحب عمل انسانى ، ومن ثم جعل من مصنع الغزل الذى كان يملكه فى نيولانارك :

« مستعمرة نموذجية لا يعرف الناس فيها العربدة ولا البوليس ولا السجون والقضايا ، ولا أوجه الاحسان والحاجة الى الصدقات الخاصة » (٢)

---

(١) فورييه : « نصوص مختارة » قدمها ف . لارمان ، باريس ، ١٩٥٣ .

(٢) انجلز : «الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية» ص ٤٧ .

ولكن فورييه لم يلبث أن وصل الى الشيوعية ، فأصبح يرى أن القوى المنتجة التى تتطور بواسطة الصناعة الكبيرة ، لا بد أن تكون ملكية جماعية يشترك فى الاستفادة منها كافة أعضاء المجتمع بالتساوى . وكان فورييه يظن أنه يستطيع أن يصل الى تنظيم المجتمع تنظيما شيوعيا عن طريق الجمعيات التعاونية للانتاج والاستهلاك. ولكن الجزيرة الصغيرة التى حاول فورييه أن يخلقها وسط المحيط الرأسمالى كان مقضيا عليها بالفناء .

ورغم ذلك كله ، كان لكبار الطوباويين أفضال عظيمة أشار اليها ماركس وانجلز . فقد لاحظوا قروح الرأسمالية وهى فى أوج انطلاقها ، ووصفوا هـذه القروح ونددوا بها ، ثم تنبأوا بزوال الرأسمالية فى زمن حسب الناس فيه انها أبدية . وكانوا يريدون الغاء استغلال الانسان للانسان، وكانوا ينادون فى بطولة بالتربية التقدمية، عن ثقة بالبشرية وعن اقتناع بأن سعادتها يمكن أن تتحقق على هذه الأرض . وبهذا احتلوا مركزا ذا خطر فى تاريخ الاشتراكية .

الا أنهم لم يصلوا الى تغيير المجتمع .. لماذا ؟

هذا ما نعرضه فى السطور التالية :

فقد ظهر الطوباويون الكبار فى أولى مراحل الرأسـمالية . وفى هذه المرحلة كانت تناقضاتها قد بدأت تتطور وتؤدى الى فوضى الانتاج وبؤس الجماهير. ولكن الرأسمالية كانت لا تزال أحدث من أن تكشف عن القوة الموجودة موضوعيا فى داخل نظامها ، والقادرة على أن تكافح ضدها وتهزمها لتقيم المجتمع الاشتراكى . وهذه القوة هى الطبقة العاملة التى يخلقها حتما

تطور البرجوازية الرأسمالية ، من حيث أن قوتها تكمن كلية في استغلال الطبقة العاملة .

فالبروليتاريا في صدر القرن التاسع عشر كانت لاتزال ضئيلة العدد ضعيفة يفتتها التنافس . صحيح أن كفاحها الطبقي ضد البرجوازية كان موجودا ، ولكنه كان كفاحا بدائيا غير منظم . ولم يكن يمكن في هذا المستوى أن تستهدف أكثر من المطالب المباشرة ، خصوصا خفض ساعات العمل . ولقد قاست الطبقة العاملة كثيرا كيما تتحدد لديها منظورات المستقبل . وكانت في ميدان السياسة لاتزال تحت اشراف البرجوازية (التي استخدمتها في فرنسا على الخصوص في كفاحها ضد رواسب الاقطاع) ، ولهذا ساعدت البروليتاريا البرجوازية عام ١٨٣٠ على طرد البوربون واستبدالهم بملك برجوازي هو لويس فيليب .

وكان الطوباويون الكبار ، وهم من أصل برجوازي ، يقطرون ألما على ما تقاسيه البروليتاريا المستغلة . الا أن هذا هو نفسه الذي حال بينهم وبين ملاحظة القوة الهائلة الكامنة في البروليتاريا بوصفها طبقة المستقبل . (١)

---

(١) نلاحظ هنا ان هذا المثال يساعد على فهم طبيعة «التناقض»! فقد ذكرنا في كتاب « المبادىء الأساسية للفلسفة » (الدرس السابع) ان كل تناقض له وجه أساسي ووجه ثانوي . وهنا يتضح ان وضع البروليتاريا كان يحوي منذ البدء تناقضا باطنا هو : بؤسها البالغ تحت نير البرجوازية من ناحية ، وقوتها التي يجب أن تحطم هذا النير في يوم ما من ناحية أخرى . وفي عصر الطوباويين كان الوجه الأول للتناقض هو الوجه الاساسي ، ومن ثم لم يلاحظوا الوجه الآخر . الا أن الوجه الثانوي للتناقض (اى القوة الثورية للبروليتاريا) بدأ بدوره يتحول الى وجه أساسي . وهذا ماتوصل ماركس الى فهمه .

وقد ترتب على ذلك أن الطوباويين لم يعثروا فى مجتمعهم على الوسائل الموضوعية لالغائه ، ومن ثم لم يعدلديهم من سبيل سوى رسم الخطط المثالية. وبهذا كانوا يستمدون من رؤوسهم وصفا تاما للمجتمع الكامل ، يضعونه فى مقابل الواقع المؤسف. ولما كانوا يجهلون قانون تطور المجتمع الرأسمالى ، فقد عجزوا عن اكتشاف الارتباط الموضوعى بين المجتمع الذى ينقدونه والمجتمع الذى يحلمون به . ومن هنا أطلق على اشتراكيتهم اسم « الطوباوية » . كما أنهم كانوا يسلكون كمثاليين، يتبعون فلاسفة « العقل » الذين قالوا فى القرن الثامن عشر بقدرة العقل على خلق المجتمع العادل . فقد كان الطوباويون يستمدون مذاهبهم من مبادىء العدالة والأخلاق .

ولكن ماهى الوسائل التى اقترحوها لتحقيق المجتمع الجديد؟

لقد كانت القوة الخلاقة للصراع الطبقى أبعد من أن ترد الى خواطرهم ، اذ كانوا يشككون فى أى عمل سياسى جماهيرى ويعتبرونه فوضنوية لا أكثر . فلم يبق لديهم اذن سوى طريق واحد ، هو التبشير . ولهذا حاولوا بكتاباتهم وجمعياتهم أن « يقنعوا » الناس بالنظام الممتاز الذى يبشرون به .

ومما يذكر أن سان سيمون كان يؤكد أن حزب العاملين «سيتكون بعد نشر بيانه بثمانية وأربعين ساعة» (١) ، كما كان يرى أن « الاشتراكية دين من الأديان » !

---

(١) لم يكن سان سيمون يعنى بذلك تكوين حزب ثورى ، بل مجرد اتحاد اقتصادى اجتماعى يضم الرأسماليين والعمال فى نفس الوقت

وكان الطوباويون يعمـلون على « اقنـاع » البرجـوازية بأفكارهم ، على أساس أنها أقدر على تحقيقها ، لأنها الطبقـة التى تملك السلطة . وهذه أحلام طوباوية .. اذ أن مصـالح البرجوازية تتناقض تناقضا مطلقا مع النظام الاشتراكى .

لهذه الأسباب كلها ، لم ينجح سان سيمون وفورييه وأوين. وفى ذلك اختلف الطوباويون الكبار جذريا عن ماركس ، الذى أقام الاشتراكية على أساس علمى ، بدلا من أن يستخرج من خياله فكرة مجتمع مثالى . فرغم أن الطوباويين الكبار وجهوا الى الرأسمالية نقدا قاسيا ، الا انهم لم يكونوا اذ ذاك يملكون المادية التاريخية ، أى علم المجتمعات . ولهذا كانوا يقررون نتائج الاستغلال الرأسمالى ، دون أن يصلوا الى ادراك ترابط عملية الاستغلال هذه . وترتيبا على ذلك لم يصلوا أيضا الى اكتشاف الدور الذى ستلعبه الطبقة العاملة حتما فى تحطيم الرأسمالية ثم كان عجزهم فى التطبيق ترجمة لعجزهم فى النظرية . (٢)

أما ماركس ، فقد استطاع أن يقيم « العلم » مقام الأحلام الطوباوية . وبفضل ماركس ، أصبحت الاشتراكية واقعا ، بعد أن كانت حلما يداعب خيال الطوباويين .

---

(٢) استطاع الثورى الفرنسي العظيم اوجست بلانكى (١٨٠٥ ــ ١٨٨١) ان يفهم خطورة العمل السياسى ، بعكس الطوباويين . الا انه مثلهـم لم يستطع أن يدرس المجتمـع الرأسـمالى دراسـة =

٣ ـ الاشتراكية العلمية

ا) تكونها :

كان ماركس وانجلز أحدث سنا من الطوباويين الكبار ، ولهذا استفاد الاثنان من الظروف الموضوعية أكثر مما استفاد هؤلاء : ذلك لأنه لم يكد فكرهما ينضج حتى كانت تناقضات الرأسمالية قد ازدادت وضوحا وبلغ الكفاح الثورى للعمال ذروة انطلاقه . فلقد انفجرت فى عام ١٨٢٥ أولى الأزمات الاقتصادية الرأسمالية ، ثم أخذت الأزمات منذ اذذاك تنكشف بطريقة دورية .

وكانت البروليتاريا فى هذه الفترة قد ازدادت عددا واشتد تركزها بنمو الصناعة الكبيرة ، فبدأت تباشر كفاحا أشد وأحسن تنظيما . ففى عام ١٨٣١ وقعت الانتفاضة العمالية الأولى فى ليون.

= علمية . صحيح انه استنكر تماما استغلال البرجوازية البروليتاريا، ولكنه لم يصل الى المصدر الحقيقى لهذا الاستغلال . ولهذا كان يعتبر الشكل الأساسى للاستغلال ، الضريبة والاقراض بالربا . أما ماركس فقد أوضح ان قوام الاستغلال الراسمالى هو العمل غير المأجور أو فائض القيمة . ومن هنا نفهم كيف حالت النقائص النظرية الخطيرة بين بلانكى وبين تكوين مفهوم صحيح عن الكفاح الثورى . ذلك لانه بدلا من أن يتبنى مفهوم الكفاح الجماهيرى ، أى كفاح الطبقة العاملة فى مجموعها ، تمسك بالموقف الذى اتخذه بابيف من قبل ، الا وهو الاعتماد على « أقلية نشيطة » . فهذا هو الموقف الحبيب الى البرجوازيين الصغار الفوضويين ، وهو الموقف الذى لايمكن أن يتفق مع الاشتراكية العلمية .

وفى أعوام ١٨٣٨ حتى ١٨٤٢ ، بلغت « حركة العهد » فى انجلترا قمة ارتفاعها كأول حركة وطنية عمالية .

قال انجلز :

« لقد اندلعت الحرب الطبقية بين البروليتاريا والبرجوازية ، فاحتلت مرتبة الصدارة فى تاريخ الشعوب التى تقرر مصير البشرية . » (١)

ثم لم تلبث فرنسا أن شهدت الطبقة العاملة تقيم المتاريس عام ١٨٤٨ لتحمى بالسلاح حقها فى الحياة .

ولم يقف ماركس وانجلز موقف المتفرجين من هذا الكفاح ؛ بل شاركا فيه شخصيا كمناضلين ثوريين (شاركا فى الكفاح فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا) . ثم عملا على تنظيم الحركة العمالية ، فأسسا عام ١٨٦٤ الرابطة الدولية الأولى للعاملين .

وفى هذا الكفاح السياسى ، اختلف ماركس وانجلز عن الطوباويين .

ب) خصائصها :

يدأب مزيفو الماركسية على تقديمها فى صورة أسطورة رسمها خيال نبى محموم . وهم يعتقدون فى نفس الوقت أنهم قادرون على أن يضعوا الماركسية فى الثوب الذى يريدون ، بحيث تحصل البرجوازية على أقصى ربح منها .

---

(١) انجلز : « الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية » ، ص ٥٦ .

وهنـا يجب أن نبرز ونؤكد بلا مهادنة طبيعة الاشـتراكية العلمية . فالاشتراكية العلمية لا هى بأسطورة ولا هى بعقيدة ، ولا هى « بمذهب » من بين مذاهب أخرى شأنه شأنها . انمـا الاشتراكية العلمية علم . والعلم هو المعرفة الموضوعية بالواقع وتقديم وسائل تغييره . وهذا هو طابع الاشتراكية العلمية .

وتقوم الاشتراكية العلمية على اكتشافين عظيمين .قال انجلز :

« نحن ندين لـكارل ماركس بهذين الاكتشافين العظيمين ، ألا وهما المفهوم المادى للتاريخ وكشف سر الانتاج الرأسمالى بكشف فائض القيمة . فهذان الاكتشافان جعلا من الاشتراكية علما .. » (١)

وقد عرفنا من قبل أن ماركس توصل بدراسة الفلسفة وعلوم الطبيعة الى مفهوم جديد للعالم ، هو المادية الجدلية ، ثم توصل بتطبيق هذا المفهوم على المجتمعات الى المادية التاريخية .

« وكما أن داورين اكتشف قانون تطور الطبيعة العضوية ، فان ماركس اكتشف قانون تطور المجتمع البشرى . » (٢)

وقانون تطور المجتمع البشرى قانون موضوعى موجود فى الخارج وسابق على شعور الناس وارادتهم .

فالانتاج ، أى نشاط الناس من أجل وسـائل الحياة ، هو الواقع الأساسى للمجتمعات وهو الذى يكيف تاريخها . أمـا العلاقات الاجتماعية والنظم السياسية والتكوينات الفكـرية ، فيحددها فى نهاية المطاف انتاج الوسائل المادية .

---

(١) انجلز : نفس المرجع ، ص ٥٧ .

(٢) انجلز : « من خطبتـه على قبر ماركس » ، فى « ماركس والماركسيـة » ، ص ٥٢ ، باريس ، ١٩٥٣

ولقد استطاع ماركس بفضل هذا المفهوم العلمى أن يتناول بالدراسة المجتمع القائم فى عصره ، ألا هو المجتمع الرأسمالى . كتب يقول فى تصديره لكتاب رأس المال :

« ... هدفنا الأخير هو اماطة اللثام عن القانون الاقتصادى لحركة المجتمع الحديث . »

ومعنى ذلك اذن أن التحليل الموضوعى هو الذى أدى به الى اكتشاف التناقض الذى يكمن وينمو فى الرأسمالية وينفجر فى صورة أزمات تجر حتما الى انقضائها . وهذا التناقض هو التناقض بين الطابع الاجتماعى للقوة المنتجة (الصناعة الكبيرة) والطابع الخاص للتملك (الربح الرأسمالى) .

ولكن التحليل الموضوعى لم يؤد الى اكتشاف هذا التناقض الا لأنه واقع موضوعى ، لا تفرضه مشاعر الناس ، أرادوه أو لم يريدوه . فلم يكن تحيز ماركس للبروليتاريا أو « تعاطفه » معها هو الذى أدى به الى اعتبارها الطبقة التى يجب أن تخلف البرجوازية ، بل انه اكتشف ذلك عن طريق التحليل الموضوعى للرأسمالية : اذا اكتشف أنه لا بقاء للرأسمالية بدون فائض قيمة ، أى بدون استغلال البروليتاريا ، ولهذا كان التناقض بين مصالح البرجوازية ومصالح البروليتاريا تناقضا ملازما للرأسمالية ، وكان الصراع بينهما نتاجا حتميا للرأسمالية . فما أسخف هؤلاء الذين يعيرون ماركس بأنه « اخترع » الصراع الطبقى ! وما أسخف هؤلاء الذين يعيرون الماركسية بأنها « تختار أسلوب الصراع الطبقى » ... وكأنما الانسان هو الذى يختار للتاريخ قوانين الحركة ! فماركس يقرر ببساطة ماهو موجود ، وما كان

موجودا على الدوام منذ تفكك المجتمع المشــاعى البدائى . (١) فالصراع الطبقى هو محرك التاريخ، لأنه هو الذى يحل التناقض بين القوى المنتجة وعلاقــات الانتاج . وهذا ما ســيحدث فى الرأسمالية : فصراع البروليتاريا كطبقة مستغلة ضد البرجوازية كطبقة مستغلة ، هو الذى سيحل التناقض بين القوى المنتجــة والعلاقات الرأسمالية فى الانتاج . وكيف يتم ذلك ؟ يتم بواسطة تغيير علاقات الانتاج لتتفق مع القوى المنتجة ، أى بواسطة تأميم وسائل الانتاج . وهــذه هى الاشتراكية ، المرحلة المحتومة فى التطور التاريخى ، شأنها فى ذلك تماما شأن الرأسمالية بالنسبة للاقطاع .

قال لينين :

« لقد استخلص ماركس ختمية تغير المجتمع الرأسمالى الى مجتمع اشتراكى ، واستلهم ذلك كليــة وفقــط من القــوانين الاقتصادية لحركة المجتمع الحديث . » (٢)

---

(١) لم يكن ماركس أول من قرر وجود الصراع الطبقى . وهذا ما اعترف به فى احدى رسائله الى فيديمير عام ١٨٥٢ ، فقال :
« اما فيما يخصنى ، فلا يرجع الى اى فضل فى اكتشاف وجود الطبقات فى المجتمع الحديث ، ولا حتى فى اكتشاف الصراع القائم بينها . فقد وصــف المؤرخــون البرجوازيون قبلى بزمن طــويل ، التطور التاريخى لهذا الصراع الطبقى ، بينما وصف الاقتصاديون البرجوازيون تشريح الطبقات . ولكن الشىء الجــديد الذى اتيت انا به ، هو اثبات : (١) ان وجود الطبقات يرتبط بالوجوه التاريخية لتطــور الانتـــاج ، (٢) أن الصراع الطبقى يؤدى بالضرورة الى ديكتاتورية البروليتاريا ، (٣) أن هذه الديكتاتورية نفسهــا لاتكون الا انتقالا نحو الغاء كل الطبقات ونحو مجتمع لاطبقى . »

(٢) لينين : » ماركس وانجلز والماركسية » ، ص ٣٤ ، طبعــة اللغات الأجنبية ، موسكو ١٩٤٧ .

فما أسخف هؤلاء الذين يظنون أن ماركس ، البرجــوازى الأصل ، كان « يحقــد » على البرجوازية ، وأن هذا الحقــد « سبب كل شيء » ! فلقــد درس ماركس تاريــخ البرجوازية الرأسمالية ، وقرر بناء على ذلك أنها قادت ضد الاقطاع صراعا ثوريا فعلا ، وأنها هى التى أتاحت انطلاق الانتاج الكبير بوصفه شرط تقدم المجتمعات . الا أن مهمة تطوير المجتمع وقعت بعد ذلك على عاتق البروليتاريا الثــورية ، لأن البرجوازية تعرقــل التطور الاجتمــاعى . فاذا كان ماركس قــد أدان البرجوازية الرأسمالية ، فذلك من حيث أنها تضع مصالحها الطبقية فوق كل شيء ، ومن ثم تقدم على أسوأ الأمور من أجل حمايتها .

أما البروليتاريا فقد أصبحت الطبقة الثورية الوحيدة . ولم يكن ذلك لأن ماركس رأى عاطفيا أنها أحق بهذا الدور !، بل لانها اصبحت كذلك موضوعيا ، نتيجة وضعهــا التاريخى فى قلب الرأسمالية . (١)

ولكن ما السبب فى ثورية البروليتاريا ؟

ان البروليتاريا ثورية لأنها لا تستطيع أن تضمن حياتها الا فى عراك مع البرجوازية الرأسمالية السائدة، وذلك لأن البروليتاريا نتاج نوعى للمجتمع البرجوازى ، أى يرتبط وجودها بطبيعــة هذا المجتمع (بخلاف الطبقات الأخرى من الحرفيين والفلاحين والبرجوازية الصغيرة) . والبروليتاريا ثورية لأن ازدياد تركز الرأسمالية يؤدى حتما الى تدعيم قوتها واتساع عددها . وهى

(١) ليس معنى ذلك ان «وعى» البروليتاريا ينتج بنفس الطريقة أيضا . فلا بد من العلم الماركسى لكى تعى البروليتاريا بدورهــا التاريخى .

ثورية لأنها لا تملك شـيئا ، ومن ثم ليس لها ما تفقد سـوى القيود . وهي ثورية لأنها فى ارتباطها بأشد القوى المنتجة تطورا ، لا تملك من سبيل للتحرر سوى الغاء علاقات الانتاج الرأسمالية التى توجه هذه القوى المنتجة ضد البروليتاريا . ومعنى ذلك أن مصلحتها تتحقق بنزع الوسائل الكبيرة للانتاج والتبـادل من البرجوازية ، وتحويلها الى ملكية للجميع ، أى فى مجتمع يختفى فيه كل استغلال . فليس أمام البروليتاريا اذن سـوى منظور واحد تسـتهدفه — واحد فقط — هو الثورة الاشـتراكية . وهذا القول لا يعبر عن وجهة نظر خاصة ، بل يعبر عن حقيقـة موضوعية .

هذا هو الوضع الواقعى الذى درسـه ماركس واستخلص نتائجه . فاذا كان يدعو البروليتاريا الى الكفـاح من أجـل الاشتراكية ، فذلك على أساس قوانين التاريخ ، وليس قط على أساس أفكار مفترضة كالعدالة أو الحرية — وان كانت الاشتراكية موضوعيا تحقق تحرر الناس وتقيم لهم العدالة الاجتماعيـة . فماركس « لا يصنع الأخلاق » للناس ، رغم أن كفاحهم من أجل الاشتراكية يستثير فيهم أخلاقا جديدة . وكل ما يفعله ماركس كعـالم هو أن يستخلص من دراسـة المجتمعات نتائج علميـة لا دخل لمزاجه فيها .

هذه هي ميزة الاشتراكية العلمية التى لا تبارى . فلقد أنزلت الاشتراكية من السماء الى الأرض ، وقضت بذلك على الأحلام الطوباوية .

٤ ـــ دور الاشتراكية العلمية

ا) وحدة الاشتراكية والحركة العمالية :

ان ماركس لم يخلق الحركة العمالية . فالحركة العمالية واقع موضوعي مستقل عنه ، أدى اليه وجود الرأســمالية . ولكن ماركس عنــدما أسس الاشتراكية العلمية ، قــدم لهذه الحركة البوصلة التى أضاءت طريقها وجعلت منها قوة لا تقهر .

وهكذا تحققت على يد ماركس وحدة الاشتراكية والحركة العمالية . فالبروليتاريا كطبقة مقهورة غارقة فى الكفاح العاجل من أجل الخبز ، لم تكن تملك الوقت ولا القدرة على أن تضع بنفسها العلم الاجتماعي ، أي الاقتصاد السياسى .ولذلك أتاها هذا العلم « من خارجها » ، عن طريق ماركس . ولقد استوعب ماركس خير تحصيلات الفكر البشرى ، ثم توج هذه التحصيلات بالاشتراكية العلمية . ومن هنا كانت الاشتراكية العلمية عمــل مثقفين برجوازيين متقدمين .

الا أن هذين المثقفين البرجوازيين لم يكونا لينجحا فى مهمتهما ما لم يخرجا عن طبقتهما . لماذا ؟ لأنه اذا كانت البرجوازية قد دفعت انطلاق علوم الطبيعة لضرورتها فى تجديد الآلات الفنيــة التى تجنى منها الربح ، فلم تكن تستطيع بعد هزيمة الاقطاع أن تشجع علم المجتمعات دون أن يضر ذلك بمصالحها كطبقة مستغلة. اذ من الواضح أن هذا العلم يدلل على الانقضاء المحتوم للرأسمالية. ومن هنا أعلنت البرجوازية حربا لا هوادة فيها على علم المجتمعات، فقدمت الماركسيين الى المحاكم ، تماما كما قدم الاقطاع الكنسى

جاليليو الى المحكمة ، لأنه أثبت أن الأرض تدور حول الشمس.

قال ماركس :

« لم تعد المسألة منذ ذلك اليوم أن نعرف ما اذا كانت هذه النظرية أو تلك صحيحة أم لا ، بل أن نعرف ما اذا كانت ذات رنين حسن أم سيء ، أى مقبولة فى نظر البوليس أم غير مقبولة، ونافعة لرأس المال أم ضارة به . وهكذا حل الهجوم المأجور محل البحث الذى لا ينحرف ، وحل فساد الضمير والتحايلات الهزيلة فى الدفاع (عن الرأسمالية) ، محل البحث الذى يستلهم الضمير . » (١)

أما ماركس وانجلز فقد خرجا عن طبقتهما واتخذا وجهة نظر البروليتاريا . فالبروليتاريا على عكس البرجوازية لا تعادى العلم الاجتماعى قط ، وليس هذا فحسب ، بل ان مصلحتها الطبقية تتفق موضوعيا مع الاشتراكية العلمية . فالبروليتاريا كطبقة مقهورة تجد فى الاشتراكية العلمية تفسير آلامها، وسبيل القضاء على هذه الآلام أيضا .

وكل نظرية لا بد أن تدعمها الخبرة . ولقد أثبتت الخبرة أن للماركسية ميزات لا تبارى . فمنذ قرن والنظرية الماركسية تزداد رسوخا بوصفها التعبير العلمى الوحيد عن مصالح الطبقة العاملة.

ب) نقد التلقائية :

قلنا ان الاشتراكية العلمية حققت الوحدة بين الاشتراكية والحركة العمالية . ولكن ، كيف تتحقق هذه الوحدة ؟

---

(١) ماركس : تذييل الطبعة الألمانية الثانية لرأس المال .

انها تتحقق بواسطة تكوين الحزب الذى يجمع وينظم طليعة الشعب ، والذى يتسلح بالاشتراكية العلمية ، ويوجه الكفاح الثورى لمجموع الطبقة العاملة وحلفائها .

ويلاحظ أن ضرورة وجود مثل هذا الحزب مبدأ أساسى فى الاشتراكية العلمية ... فموقف التلقائية يتنافى مع الماركسية ، لأن النظرية الثورية علم ، وليس ثمة علم تلقائى .

فالاشتراكية لا يمكن أن تكون نتاجا تلقائيا للبروليتاريا . لماذا ؟ لأن التكوين الفكرى الذى يبرز تلقائيا أمام البروليتاريا فى المجتمع الرأسمالى ، هو التكوين الفكرى البرجوازى . نعم . فالتكوين الفكرى الذى يبرز تلقائيا أمام الناس هو العقائد التى يفرضها المجتمع ، والأخلاق التى تلقن التلاميذ فى المدارس أن « الصبر مفتاح الفرج » وأنه « لا يضيع أجر المحسنين » . وهذا التكوين الفكرى البرجوازى هو الذى يملك بجانب قوة التوارث والتقليد ، أشد الوسائل المادية التى تستخدمها البرجوازية فى الحكم .

ومعنى ذلك اذن أن نظرية التلقائية تعنى وقف الكفاح الفكرى ضد الايديولوجية البرجوازية ، ومن ثم تضع رقبة البروليتاريا فى قبضة البرجوازية . ولهذا قال ستالين :

« ان نظرية التلقائية .. هى .. أساس كل انتهازية . »

فالكفاح العنيد ضد التكوين الفكرى البرجوازى المنتشر فى كل مكان ، مهمة ضرورية . ثم انها مستحيلة الانجاز بطريقة فردية وبدون الحزب الذى يملك العلم الثورى ويرتبط بالجماهير الكادحة . ذلك لأنه اذا كان من السخف أن يزعم أحد أنه يصنع

وحده « علم فيزياء » صغير خاص به .. فهـذا هو أيضا شأن علم المجتمعات .

ومن هنا كانت « القيادة الجماعية » ضرورة علميـة فى كل مستويات الحزب الثورى . فلا يمكن أن يكون القرار أو الشعار انعكاسا صحيحا لاحتياجات الحركة الا اذا رسمته مناقشة جماعية يشارك فيها كافة المناضلين، كل بخبرته من الاحتكاك بالجماهير.

« فالنظرية هى خبرة الحركة العمالية فى كل البلاد ، منظورا اليها فى شكلها العام . »

٥ ـ الخلاصة

استطاعت الطبقة العاملة طوال مائة عام أن تحكم على مقدرة الاشتراكية العلمية فى الاستباق والتنبؤ .ثم ان استيعاب الكادحين لهذا العلم استيعابا عميقا ، كان يؤدى الى ازدياد ثروته وخبراته. وهذا التبادل المستمر بين النظرية والتطبيق هو الـذى يحمى الاشتراكية العلمية من التقادم . وفى هذا أيضا نلاحظ طابعها العلمى : فالعلم الحقيقى يتقدم دائما .

والواقع أن من يتأمل لوحة التقدم الذى أحرزته الاشتراكية العلمية فى النظرية والتطبيق بعد قرن من « البيان » الذى اصدره مؤسساها ، يجد أنها لوحة مذهلة حقا، وبهذا تحقق قول ماركس:

« تصبح النظرية قـوة مادية ، حالما تتغلغل فى صـفوف الجماهير . »

ولقد استطاع هؤلاء الذين تابعوا كفاح ماركس وانجلز أن يسلحوا الاشتراكية العلمية بقواعد عامة جديدة ، كما استطاعوا

أن يستبعدوا منها الآراء التى لم تعد تتفق مع الوضع التاريخى .
ولنذكر مثالا على ذلك :

فعندما دخلت الرأسمالية فى صدر القرن العشرين فى مرحلتها الأمبريالية ، اعتمد لينين على مبادىء الاشتراكية فى تحليل الظروف الموضوعية الجديدة التى خلقتها الامبريالية فى الحركة العمالية . وهنا اكتشف قانون التطور المتفاوت للبلاد الامبريالية. وبناء على هذا القانون استخلص نتيجة جديدة ، هى ان الثورة تستطيع أن تهزم الجبهة الرأسمالية العالمية فى أضعف نقاطها ، وبهذا تنتصر الاشتراكية أولا فى بلد واحد أو فى عدة بلاد فقط. أما قبل ان يكتشف لينين ذلك ، فقد كان الماركسيون يظنون أن الاشتراكية ستنتصر فى كل البلاد الرأسمالية مرة واحدة . وفى عام ١٩١٧ ، وقعت الثورة فعلا فى بلد واحد هو روسيا ، ثم وقعت بعد ذلك بزمن طويل فى بلاد أخرى .

وفى مواجهة هذا الحساب الختامى لمعارك الاشتراكية وانتصاراتها ، نجد حسابا ختاميا آخر لهؤلاء الذين حاربوها فى قلب الحركة العمالية .

ولقد رأينا فى هذا الفصل أن ماركس استبعد النفايات الطوباوية من الاشتراكية الطوباوية ، واستبقى منها النزوع الاشتراكى . كيف بأن وضع الصراع الطبقى فى مرتبة الصدارة ، كمحرك للانتقال الى الاشتراكية .

ولكن أعداء الماركسية ، من برودون الى بلوم ، فعلوا عكس ذلك تماما . فقد عمل هؤلاء أذنابا للبرجوازية، ومن ثم تراجعوا عن دعوة البروليتاريا الى التكاتف الطبقى ، واتجهوا بدلا من ذلك الى تخديرها بالمعسولات الطوباوية . وهذا ما فعله

الاشتراكيون فى صدر المرحلة الامبريالية ، عندما حثوا العمال على وقف الصراع الطبقى ، زاعمين ان الرأسمالية تتجه الى التطور من تلقاء نفسها الى اشتراكية! واليوم يعلن الاشتراكيون خضوعهم للامبريالية الأمريكية بوصفها أولى مراحل الاشتراكية !

والحقيقة أنه منذ ظهور الاشتراكية العلمية ، أصبحت كل نظرية طوباوية بهذا الواقع نفسه رجعية . اذ لم يعد لمثل هذه التكوينات الفكرية من دور تلعبه سوى « حرف » الناس ، وصرف البروليتاريا عن الصراع الطبقى . فالطريق الثورى الوحيد هو طريق الاشتراكية العلمية . أما الأحلام الطوباوية فليست سوى سموم معادية للحركة الثورية .

وهنا تتضح حقيقة عظمى ، هى أن الانتصارات الكبيرة التى أحرزها العمال بواسطة الاشتراكية العلمية كانت فى نفس الوقت انتصارات على أعداء الاشتراكية العلمية فى الحركة العمالية . فالكفاح الذى لا يهدأ ضد التكوينات الفكرية المعادية للماركسية ليس وجها ثانويا مؤقتا من وجوه الكفاح العمالى العالمى ، بل هو وجه حتمى . وان عدم الكفاح من أجل تخليص الكادحين من تأثير الاتجاهات الطوباوية والفوضوية وما شابهها ، لا يعنى سوى خنق المستقبل . ولقد أبرز ماركس وانجلز هذه الحقيقة من قبل: فخاضا طوال حياتهما حربا لا هوادة فيها ضد الاشتراكيين المزيفين الذين كانوا أخلص حلفاء الرأسمالية .

ملاحظات المترجم

(١) ان مالاقته الأبيقورية على يد رجال الكنيسة وأعداء المادية يعتبر مثالا حيا لما تلاقيه الفلسفات المادية من تشويه .

وأبيقور فيلسوف يونانى قديم (٣٤١ — ٢٧٠ ق . م) ، كانت فلسفته المادية المتقدمة تعبر عن مصالح فئة التجار الأثينيين ، بوصفها أكثر الفئات تقدما فى المجتمع العبودى اليونانى . وكان العصر الذى ظهرت فيه فلسفة أبيقور عصرا ذهبيا لتجار اليونان القديمة (واسمهم بالاغريقية امبوروى) . وكان المجتمع الاثينى يضم اذذاك آلاف الحرفيين العبيد الذين يشتغلون بالتعدين وصناعة السفن التجارية ، اذ كان الاسكندر الأكبر قد فتح امبراطوريته (٣٢٣ ق م) وخلف بعده دولة اغريقية موحدة ، ووضع أيدى الاغريق على عدد كبير من مناجم الفضة والذهب. وفى هذه الظروف الاقتصادية الجديدة ، كانت الطبقة الحاكمة الاغريقية تحتاج الى العلم لتزيد من انتاجها ولتوسع من تجارتها . واحتياجها الى العلم يعنى فى نفس الوقت احتياجها الى فلسفة مادية تثق فى الواقع وتؤمن بقدرة الانسان ، لا فلسفة مثالية تهرب من الواقع . ولهذا تلقف المجتمع الاغريقى فلسفة أبيقور المادية ، بعد أن كان من قبله بمائة عام فقط يتلقف فلسفة أفلاطون المثالية . ذلك لأن أفلاطون بمثاليته واحتقاره للواقع المادى كان يعبر قبل أبيقور بمائة عام عن وضع المجتمع الاثينى الذى أنهكته اذ ذاك المجاعة والبؤس والطاعون بعد هزيمته فى الحرب البلوبونيزية (٤٣١ — ٤٠٤) ، كما كان يعبر عن اتجاه الطبقة الحاكمة الاسبرطية التى انتصرت على أثينا والتى كانت

تملك العبيد لزراعة الأرض فحسب .

وقد نادى أبيقور بأنه لا علم من أجل العلم ولا منطق بالمعنى التقليدى الصورى ، بل العلم والمنطق والفلسفة كلها أنواع من النشاط البشرى لابد أن ترتبط بالتطبيق والعمل ، ومن ثم لابد أن تستهدف سعادة الانسان . (وهذا ما ادعى رجال الكنيسة فيمابعد أنه انكار للعلم والفلسفة !) .وكانأبيقورينكر تدخل الآلهة فى شئون العالم ، ويرى ان على فلسفته مهمة تخليص الناس من الخوف : الخوف من الآلهة ، والخوف من المجهول (الموت) . وفى رأيه أن الفيزيقا (علم الطبيعة) هي وحدها القادرة على أن تحرر الانسانمن الخوف وعلى انتضعه فىمرتبة الآلهة . ولهذا كانت فلسفته فلسفة فيزيقية ،لافلسفة اخلاقيةكما يقول البعض .

وينكر أبيقور أن الآلهة هم الذين علموا الانسان الحضارة ، ويرى ان الانسان تعلم ذلك بواسطة « الخبرة والعمل » . ونظريته فى المعرفة حسية ترى الاحساسات مصدر المعرفة . ونظريته فى الطبيعة ذرية ترى أن العالم يتكون من ذرات صغيرة تتحرك فى الفضاء حركة تلقائية .

وبالرغم من أن أبيقور أنكر بشدة اعتبار اللذة الحسية هدفا للسلوك البشرى ، بل جعل سعادة الانسان فى اللذة السكونية (آتاراكسيا) ، الا أن الكثيرين الصقوا به تهمة القول باللذة الحسية كهدف ، تماما كما قالت الرجعية عن الماركسية انها شيوعية الجنس !

ومما يذكر أن الرسالة التى حصل بها ماركس على درجة الدكتوراه فى الفلسفة كانت تتناول فلسفة أبيقور الطبيعية .

(٢) هؤلاء هم أبرز شهداء الحزب الشيوعى الفرنسى فى حرب المقاومة السرية التى خاضها على رأس الشعب الفرنسى ضد جيوش الاحتلال النازى . وجورج بوليتزير هو الفيلسوف الماركسى الشهيد الذى يحمل هذا الكتاب اسمه ، رغم انه من تأليف الفيلسوفين الماركسيين جى بيس وموريس كافينج . وجبرييل بيرى النائب فى الجمعية الوطنية والمحرر بجريدة الأومانيتية هو الذى رفض أن يسقط عنه النازى حكم الاعدام مقابل تخليه عن مبادئه ، وكتب ليلة اعدامه يقول :

« فليعلم أصدقائى أننى بقيت متمسكا بمثلى العليا ... اننى أومن تماما وفى هذه الليلة بأن عزيزى بول فايان كوتيرييه على حق فى قوله : ان الشيوعية شباب العالم ... تخلق للمستقبل أيام الأغانى . فأنا الآن أخلق للمستقبل أيام الأغانى . »

(٣) المجال المثالى ideal هو مجال الأفكار . وكلمة مثالى مشتقة من «مثال» ، وهو عند أفلاطون وأشباهه الصورة الفكرية التى توجد على نمطها الأشياء المادية . ولهذا تترجم الكلمة اللاتينية ideas ومشتقاتها فى اللغات الأوروبية ، اما بالأفكار أو بالمثل .

(٤) الشعور conscience وتترجم أحيانا الوعى ، معناها الروح أو الفكر أو عالم الأفكار .

(٥) الواقع أن بعض الفلاسفة يجمعون فى فلسفاتهم أفكارا مادية وأفكارا مثالية . ولكن هذه الفلسفات لا بد أن تكون متناقضة غير متسقة ، لأن الفيلسوف الذى يبدأ بأساس مادى لا يمكن أن يخرج منه الى نتائج مثالية ، والعكس بالعكس . ومثال ذلك ديكارت الذى تبدو فلسفته الالهية (فى التأملات مثلا) مختلفة تماما عن نظرياته الميكانيكية فى تفسير الطبيعة والانسان .

(٦) بول رينو هو رئيس الوزارة الفرنسية التى تألفت فى مارس ١٩٤٠ بعد هزيمة الحلفاء فى النرويج . وكان الشيوعيون الفرنسيون يطالبون اذذاك بتوجيه الجيوش الفرنسية ضد النازى فورا ، فزج بهم رينو فى السجون ، واكتفى بحشد الناس فى الكنائس لاستنزال رحمة الله علي فرنسا ! وعندما توغل النازى فى البلاد ، حل المارشال الخائن بيتان محل رينو ، وسلم فرنسا الى هتلر .

(٧) الفيتشيه Fetichisme تعنى النظر الى الاشياء كقوى خارقة غامضة تتحكم فى الانسان ، مثل النظر الى المطر والزلازل والشمس ، كما لو كانت مجموعة كائنات ذات ارادة وقدرة .

والفيتشيه مشتقة من لفظ fetiche باللغة البرتغالية على ما يرجح البعض . والفيتش فى علم دراسة الجماعات البدائية هو « الكائن الوثنى » الذى تقدسه الجماعة البدائية على اساس اعتقادها بأنه يحميها ويرتبط بها . و « الفيتش » يختلف عن

« الطوطم » totem فى ان الفيتش يكون شيئا جزئيا ومعينا مثل هذه الصخرة أو الشجرة بالذات أو هذا الحيوان بالذات ، أما الطوطم فيكون نوعا برمتـه من النبات أو الحيوان ، مثـل شجر البلوط أو التماسيح •

(٨) المثالية الموضوعية هى الفلسفة التى تعتبر الفكر أو الروح أصل الوجود وصانعة المادة ، ولكنها لا تنكر وجود هذه المادة ، أى انها ترجع « الموضوع » الى « الذات» دون ان تنكروجوده على ما يفعل ديكارت مثلا .

أما المثالية الذاتية ، فلا تكتفى بارجاع المادة الى الروح ، أى لاتكتفى بارجاع الموضوع الى الذات ، بل تقرر ان وجود المادة ليس سوى خداع كاذب • فالمثالية الذاتية ،ومنها مثالية بيركلى، لا تعترف الا بوجود الروح أو الذات •

(٩) فرويد (١٨٥٦ ــ ١٩٣٩) طبيب نفسانى نمساوى أسس مدرسة التحليل النفسى المعروفة . وخلاصة آراء هذه المدرسة ان السلوك البشرى فى أدق أجزائه ينتج عن دوافع تتكون خلال الحياة الجنسية المكبوتة فى الطفولة . فكل نشاط مدفوع . ولكن الدافع يكمن فى الحياة النفسية الماضية التى يحويها اللاشعور ، وبالذات فى الكبت الجنسى . فاللاشعور بوصـفه القوة التى تجمع كافة خبرات الكبت الماضية (وهى فقط خبرات جنسية) هو الذى يحدد سلوك الانسان ! ولهذا يبدأ اللاشعور منذ بدء الطفولة ، بل منذ بدء تكون الجنين •• واكثر من ذلك ، يرى

يونج Jung أنه يبدأ منذ بدء تطور السلالة أو العنصر البشرى (لاشعور الجنس الآرى ولا شعور الجنس السامى وهكذا !!)(١)، ويرى نتيجة ذلك أن اللاشعور لا يمكن أن يكون مجرد جزء من أجزاء الذهن البشرى ، فلا بد أن يكون «قوة» خارج الانسان، أى لا بد أن يكون « شيئا دينيا » !! (٢)

ولكن العلم يثبت أن الحياة الجنسية لا تبدأ منذ بدء الطفولة، بل تبدأ فى مرحلة معينة من مراحلها ــ والعلم هنا هو علم الفسيولوجيا لا فن العلاج النفسى الخاص الذى مارسه فرويد . وفسيولوجيا المخ (بافلوف) تكشف أيضا قوانين محددة للجهاز العصبى تستبعد تماما وجود قوة خفية تتحكم فيه ، وتستبعد أصلا أن يوجد « عامل واحد » يحدد حياة الانسان ، سواء كان هذا العامل جنسيا أم غير جنسى . فالظروف الاجتماعية هى التى تنظم الحياة العضوية والنفسية للانسان ، كلاهما معا .

(١٠) لاشك أن مسألة الضرورة فى الطبيعة تشغل ذهن العالم والمفكر العادى. ولكن هذا الكتاب لم يتوسع فى بحثها، باعتبارها أعم المبادىء التى يثبتها العلم والانتاج البشرى والخبرة الاجتماعية، ثم باعتبارها من الأسس الأولية جدا لأى فلسفة مادية . وهذا هو موقف الكتب الماركسية المتداولة ، بل كان هذا هو موقف

---

(١) كريشنون ميلر : « التحليل النفسى » ، الطبعة الثانية ، ص ٣٥ . Home University Library

(٢) اريك فروم: «التحليل النفسى والدين» ص٢٥، لندن١٩٥١ .

انجلز نفسه ، على ما أشار لينـين فى كتاب « المادية والمذهب النقدى التجربى . » (١)

والسبب فى ذلك ببساطة أن « مسألة » الضرورة فى ضـوء العلم والمادية تختلف عن « مسألة » الضرورة فى الفلسفة المثالية. فالضرورة الطبيعية بمفهومها العلمى المادى ، توضـع فى مقابل المصادفة ، بمعنى أنك اذا سألت عالما من العلمـاء : لماذا يكون ضروريا أن يتبخر الماء بالحرارة؟ أجابك عن ذلك بوصف «طبيعة» الماء ووصف « طبيعة » الحرارة ، وكيف يرتبط التبخر بطبيعة الماء والحرارة . ومن ثم تستطيع أنت أن تميز بين التبخر كظاهرة « ضرورية » ، وبين ما قد يحدث أثناء التبخر من مصادفات ؛ كانفجار الموقد الذى يغلى عليه الماء مثلا ـ مصادفات تنتج عن أسباب ضرورية أيضا ، ولكنها لا تدخل فى أساس الموقف ، أى كان من الممكن ألا تحدث .

أما الفلسـفة المثالية ، فتضع الضرورة كمشـكلة فى مقابل اللاضرورة أو الامكان المطلق contingence absolute بمعنى انك اذا سألت المثالى : لماذا يكون ضروريا أن يتبخر الماء بالحرارة ؟ يفهم من ذلك أنك تسأله عن وجه الضرورة ـ أصلا ـ فى أن تكون « طبيعة » الأشياء كذلك ، أى وجه الضرورة فى أن يتبخر الماء بالحرارة ولا يتبخر بالبرودة مثلا !

هذا هو الفرق اذن بين المفهوم المادى والمفهوم المثالى «لمسألة» الضرورة . وعلى أساس هذا المفهوم للمسألة ، يتحدد الموقف من

---

(١) ص ١٥٦ ، الطبعة الانجليزية ، موسكو ١٩٥٢ .

الضرورة . ولذلك درجت الكتب الماركسية المتداولة كما قلت، على تجاهل المفهوم الثانى : يستوى فى هذا ، الكتاب الذى بين يدى القارىء وكتاب روچيه جارودى « الحرية » والقاموس الفلسفى السوفييتى ، وغيرها . وتكتفى هذه الكتب بأن تحدد موقف الماركسية من الضرورة ، بوصفها واقعا « موضوعيا » ، دون أن تشير الى مصدر الخطأ فى النظرة المثالية الى مسألة الضرورة ، على ما فعل لينين فى أحد ردوده البارعة على ماخ. (١).

فلنبدأ اذن بالموقف المثالى ، لأن المثالية هى التى تصطنع المشكلة فى هذه الصورة

ومحور الموقف المثالى ببساطة هو البحث عن « تبرير » للضرورة ، أى بعبارة أخرى ، البحث عن « دليل » خارج الواقع لاثبات ضرورة الواقع ! فالمثالى لا يفهم أن العقل يعكس القوانين الموضوعية ، أى القوانين التى توجد خارج هذا العقل ومستقلة عنه . ولهذا يرى العالم المتصوف آرثر ادنجتون أن العقل البشرى هو الذى « يصنع » القوانين . ويرى مؤسس البرجماتية كارل بيرسون أن « الضرورة توجد فى عالم التصورات » . ويرى الوضعى صاحب الرمزية التجريبية هنرى بوانكاريه أن قوانين الطبيعة مجرد رموز « يتواضع » عليها الناس . ويقول أينشتين فى احدى نوبات المثالية : « .. الطبيعة هى تحقق أبسط الأفكار الرياضية التى يدركها العقل ». وهكذا وهكذا . فالمثالى يقلب الواقع رأسا على عقب ، فيعتبر القانون الموضوعى ثمرة من ثمار العقل البشرى. والواقع المقلوب هو الذى يجعله يتساءل عن وجه

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

الضرورة فى قوانين الطبيعة ، لأنه ما دام العقل فى نظر المثالى هو الذى « يصنع » القوانين وليس هو الجهاز الذى يعكسها ، أفلا يكون من أبسط حقوقه أن « يبرر » ضرورتها ؟.

ولكن القوانين الطبيعية ليست من اختراع العقل ؛ بل أن العقل هو الذى يعكس الواقع الموضوعى المستقل عن ادراك الانسان وارادته . وهذا ما يثبته العلم الطبيعى والخبرة الاجتماعية الطويلة وعملية تأثير الانسان فى الطبيعة ، وهو ما يثبته وجود الأرض بقوانينها الموضوعية قبل ظهور الانسان بآلاف الملايين من السنين . فمادية العالم ، أى وجود العالم وقوانينه الضرورية خارج ادراك الانسان ، ليست اذن فرضا فلسفيا ، بل هى الواقع الذى لا يقبل الشك . ولقد أصبح ممكنا على يدى بافلوف أبى علم الفسيولوچيا أن ندرس المخ البشرى فى المعمل ، بوصفه « الجهاز الخاص بالعلاقات بين الكائن العضوى كله وبين الوسط المحيط ... تماما كما ندرس جهاز الهضم والدورة الدموية وغيرها » (١) ، أى أصبح من الممكن أن ندرس فى المعمل طبيعة الجهاز الذى تتم فيه عملية انعكاس العالم الخارجى .. ومعنى ذلك أن العالم الخارجى وقوانينه الموضوعية هو الأساس ونقطة البدء . فاذا أردنا أن نبرر الضرورة ، فلنستنطق عنها الواقع الخارجى لا أكثر ولا أقل .. بل الحقيقة أننا لا نبرر الضرورة قط . فالمادية العلمية تثبت ضرورة قوانين الواقع الخارجى بمجرد أن تثبت أنها قوانين هذا الواقع الخارجى .. لأن ابسط مايلقنه الواقع للانسان ، هو ان قوانينه لا تخالف نفسها

---

(١) بافلوف : « مؤلفات مختارة » ، ص ٤٥٤ . الترجمة الانجليزية ، موسكو ١٩٥٥ .

ولنلاحظ أن المثاليين يعترفون معنا بهذه الحقيقة ، وان كانوا يسمونها مجرد « اطراد » فى الظواهر ، لا يمكن ان يتحول فى نظرهم الى « ضرورة » الا بعد أن يستمده العقل المحض، أى بعد أن يتمكن العقل من أن يبرر لنفسه لماذا لا تتمدد المعادن بالبرودة، ولماذا يغلى الماء عند درجة ١٠٠ بالذات . فالمثاليون يعترفون اذن بأن ما يحدث فى الواقع هو أن قوانينه لا تخالف نفسها • ولكنهم يعودون فيتساءلون لماذا يحدث هذا فى الواقع ، وما الذى يمنع من ان يحدث غيره ! وهنا نضع اصبعنا على أصل القلق المثالى : فالمثالية تفترض ، ولو ضمنا ، ان ضمان الضرورة يجب أن يكمن فى شىء آخر فوق الواقع •• هو اما العقل واما الله • (والموقف الأول هو موقف العقليين الذين يبررون الضرورة بالبديهيات الأولية ، والموقف الثانى موقف المؤلهين الذين يبررون الضرورة بالضمان الالهى •) ولهذا السبب ، كانت المثالية تنكر على الدوام أن يكون « الاطراد » فى الواقع هو نفس ضرورة هذا الواقع •• ومن ثم كانت تتجه الى البحث عما يضمن « اطراد هذا الاطراد » ! الا أنه ليس وراء اطراد الواقع شىء ، بل ليس العقل نفسه سوى ثمرة من ثمار اطراد الواقع . فالواقع بقوانينه الموضوعية المطردة، هو الذى صنع الانسان ، وهو الذى صنع عقل الانسان •

هذا هو اذن موقف المادية العلمية : فالمادية العلمية لا تثبت « ضرورة » القوانين الموضوعية ، بل تثبت أن الضرورة « قانون موضوعى » ، أى توجد مستقلة عن وجود الانسان وادراكه •

قال انجلز :

« صورة الشمول فى الطبيعة قانون . » (١)

وقال لينين :

« نحن لا نعرف ضروزة الطبيعة فى ظواهر الطقس ، وفى حدود هذا نظل حتما عبيدا للطقس . الا أننا وان كنا لا نعرف هذه الضرورة ، فنحن نعرف أنها موجودة . من أين نعرف ذلك ؟ من نفس المصدر الذى نعرف منه أن الأشياء توجد خارج ذهننا ومستقلة عنه ، أى بالتحديد ، من تطور المعرفة التى تقدم ملايين الأمثلة .. » الخ . (٢)

ولكن فلاسفة الوضعية المنطقية المؤمنين جدا بالعلم والحواس يتجاهلون هذا الواقع المحسوس ، ويرددون ما يقال عن« الدليل» و« المبرر العقلى » ! وهكذا يتناول الدكتور زكى نجيب المشكلة من زاوية سؤال قديم أثاره برتراند رسل وهـو : « على فرض أن القوانين الطبيعية كانت قائمة فى الماضى باطراد تام ، فهل لدينا ما يبرر الفرض بأن هذه القوانين ستظل كذلك قائمة فى المستقبل؟» (أى على فرض وجود الاطراد ، فهل هناك ما يبرر اطراد هـذا الاطراد ؟!) ويستلهم زكى نجيب سؤال برتراند رسل هـذا ، فيتدرج من فكرة الى اخرى بحثا عن « مبرر عقلى » للضرورة ، حتى ينتهى الى الاكتشـاف الوضعى العجيب الذى يسـمى الترجيح ، فيقول :

---

(١) «جدل الطبيعة» ، ص ٣١٠ . الترجمة الانجليزية، موسكو سنة ١٩٥٤ .

(٢) « المادية والمذهب النقدى التجريبى » ، ص ١٩٢ .

« لو قيل لى فى الحياة الجارية أن ا سيلاعب ب ، وأنا لا أعرف عن أ ، ب الا أنهما لعبا ست مرات فيما سبق ، فكسب أ فى أربع منها ... فان هناك مبررا من هذه الخبرة الماضية يبرر لى أن أقول بأن أ سيكسب اللعب هذه المرة باحتمال أرجح من احتمال أن يكسب ب .

« وعلى هذا الأساس نفسه يكون المبرر غاية فى القوة حين أحكم بأن الرجل الساقط من النافذة سينتجه فى سقوطه نحو الأرض ، وأن الشمس ستشرق غدا ، وهكذا ... لأن ... القضايا التركيبية التى تنبىء بجديد تكون دائما معرضة لشىء من الخطأ ، ولذا فصدقها احتمالى ... » (١)

ومن هذا يتضح أن موقف الوضعية المنطقية يعبر عن خيبتها فى الوصول الى ماتسميه « المبرر العقلى » . والسبب فى ذلك هو أنها تجرى وراء سراب ... سراب لأن العقل كما قلنا لا يمكن أن « يبرر » القوانين التى لادخل له قط فى وجودها ، والتى كانت موجودة حتى قبل تطور الخلية الحية الى انسان ذى عقل. فاذا كانت الفلسفات الدينية تبرر الضرورة الطبيعية « بالضمان الالهى » ، على حد تعبير ديكارت ، فالوضعية المنطقية تستأنف بالقصور الذاتى عملية التبرير هذه ــ وان كانت تصل الى نتيجة مختلفة .

أما المادية العلمية فلا تبرر «ضرورة» اتجاه الرجل الى الأرض اذا سقط من النافذة ، بل تثبت أن « طبيعة » الأشياء كذلك ، فيكون فى هذا أثبات ضرورتها ، لأن الضرورة قانون الطبيعة .

---

(١) « المنطق الوضعى » ، ص ٤٩٣ . القاهرة ١٩٥١ .

ثم ان اثبات طبيعة الأشياء (فى السقوط من أعلى الى أسفل) لايتم بالتدليل الفلسفى ، بل يتم عن طريق ملايين الخبرات التى مارسها الناس ، وملايين الأعمال والمشاريع والاكتشافات العلمية التى حققها الانسان على أساس أن « طبيعة » الأشياء فى الخارج كذلك . ويتعمق فهمنا لطبيعة الأشياء ، أى للضرورة الطبيعية ، بقدر مانربط هذا النوع من الأشياء بأنواع أخرى لنستجلى الطبيعة المشتركة بينها ، ولنثبت بالتطبيق صحة النتائج الأولى . فقد استطاع نيوتن مثلا أن يحدد فى الجاذبية الأرضية السرعة التى يسقط بها الجسم من أعلى الى أسفل (١٦ قدما فى الثانية) . وعندما ربط بين هذه السرعة وحركة القمر ، اكتشف طبيعة عامة للجاذبية الأرضية وغير الأرضية ، يعبر عنها قانون تناسب سرعة السقوط عكسيا مع مربع المسافة ، وهو القانون الذى ينطبق انطباقا صحيحا على حركة كواكب المجموعة الشمسية وعلى الشمس نفسها .

وفى كل هذا كان اثبات الضرورة يعنى كشف طبيعة الأشياء . صحيح أن نيوتن قرر بعض القوانين (مثل عدم انحراف الضوء بالجاذبية) ثم حدث عكسها . ولكن هذه الحقيقة تثبت أن ماقرره نيوتن كان منافيا لطبيعة الأشياء . فانعدام الضرورة هنا لايمت الى الطبيعة بصلة ، بل هو نتيجة أخطاء نيوتن الرجل ، هذه الأخطاء التى دحضتها الطبيعة ، وكان محتوما أن تدحضها ، خلال التطبيق العلمى والتجربة البشرية . فالطبيعة تفرض نفسها وتصحح للبشرية أخطاءها، أى تفرض عليها قانون الضرورة. وهنا تبدو مغالطة زكى نجيب محمود والوضعيين، فى ربطهم بين « احتمال الخطأ فى القضايا العلمية » وبين « انعدام

الضرورة فى الطبيعة » ، اذ بهـذا تصبح ضرورة قوانين الطبيعة وقفا على صحة قضايا نيوتن وأينشتين !

ولنتعقب الوضعية المنطقية فى مثال آخر يذكره الدكتور زكى نجيب أيضا ، فيقول :

« وجدنا مثلا أن المعادن تتمدد بالحرارة وتنكمش بالبرودة ، فكان ذلك قانونا من قوانين الطبيعة ، لكن كان يمكن منطقيا أن نجدها على عكس ذلك ... » (١)

والنصف الأول من الجملة صحيح ، لأنه يقرر أن الطبيعـة نقطة البدء .. ولكن الرجل الوضـعى لا يلبث أن ينفى هذه الحقيقة عندما يتكلم عما يسميه « الامكان المنطقى » ــ وهو هنا شىء لا يفهمه الانسان العادى . فالانســان يعرف بالتطبيق العلمى الطويل أن الحرارة « قوة طردية » تزيد من حركة جزيئات المادة ، فتتمدد ، ثم تنصهر اذا كانت صلبة ، وتتحول الى غاز اذا كانت سائلة ، ويستمر هذا الغاز فى التمدد بازدياد القوة الطردية التى هى الحرارة ، وهكذا . هذا هو الواقع الذى يعكسه العلم البشرى ، والذى لا بد أن يعكسه « المنطق » البشرى أيضا . أما أن يكون هناك منطق مناف للواقع أو وراء الواقع أو فوق الواقع ، فهذا ما لا يعرفه أصحاب التفكير العلمى على الأقل .

والحقيقة أن فكرة الامكان المنطقى الذى تزعمه الوضعية ، تفترض سؤالا خبيثا قديما وغير علمى هو : لماذا بالذات كانت طبيعة الأشياء كذلك ؟ وهـذا يعنى أن تبحث عن « شىء ما » خارج هذه الطبيعة . فالترجمة الصحيحة لهذا السؤال هى :

---

(١) « خرافة الميتافيزيقا » ، القاهرة ١٩٥٣ .

من الذى جعل طبيعة الأشياء كذلك ؟

وكلنا يعرف أن فى هذا قفزة من العلم الى اللاهوت .. أى الى « المطلق » الذى تهاجمه الوضعية المنطقية !

ولكن .. ما هى النتيجة العملية لانكار الضرورة فى العالم ؟

ان العلماء المثاليين يتصرفون فى ميدان الطبيعة كما لو كانوا يؤمنون تماما بضرورة القوانين الطبيعية . فلم نسمع أن عالما من العلماء وضع فى تقديراته « احتمال » سقوط الشيء من أسفل الى أعلى أو « احتمال » انكماش المعادن بالحرارة — بل ان الاحتمالات التىيضعها العلماء تكون دائما خاصة بتقديراتهم هم، أى باخطائهم التى ينتظرون من الطبيعة أن تصلحها لهم . وهنا يقفز أمام أعيننا الجواب . فانكار الضرورة يستهدف تجميدها ، أى الحيلولة دون تعميمها ودفع الناس الى الايمان بها كمبدأ عام شامل ، سواء فى فروع العلم الجديدة (الميكانيكا الموجية ومبدأ عدم التحدد عند هايزنبرج) (١) أو فى العلوم الجديدة (علم المجتمع) .

فالضرورة كمبدأ عام شامل تلد علما اجتماعيا مخيفا جداويهدد مصالح الرأسمالية العالمية ، يسمىالمادية التاريخية أو علمانتصار الاشتراكية .

(١١) معنى عبارة بيركلى أن الوجود هو اما وجود الادراك أو وجود الشيء فى الادراك .

---

(١) انظر مقدمة المترجم لكتاب « المبادىء الاساسية للفلسفة »، الجزء الأول .

(١٢) تيير مؤرخ فرنسي وأحد رجال الدولة الفرنسية الرجعيين فى القرن التاسع عشر . تولى رئاسة الجمهورية عام ١٨٧١ بعد سحق كوميون باريس . والنص الذى نذكـره عنه فيما يلى ، يصور اتجاهه الفكرى ، بل ويصور الاتجاه الفكرى للرأسمالية الحاكمة بوجه عام ــ قال تيير :

« آه لو كانت الأمور تسير كما كانت تسير فى الماضى . فلو أن المدارس ظلت فى أيدى القساوسة وخدم الكنيسة ، لكان من الصعب أن أعارض فى ترقية المدارس لأبناء الشعب .. فأنا أريد أن يسترد تأثير الكنيسة كامل سلطانه ، وأطالب بأن يكون أثر القسيس قويا ، أقوى بكثير مما هو عليه الآن ، لأننى أعتمـد عليه اعتمادا كبيرا فى نشر هذه الفلسفة الطيبة التى تعلم الانسان أنه هنا فى الدنيا ليشقى ، لا تلك الفلسفة التى تقول له على عكس ذلك : تمتع لأنك تعيش فى الحياة الدنيا لتصنع سعادتك الصغيرة ، فاذا لم تجدها فى حالتك الراهنة فاضرب الغنى بلا خوف ، لأن أنانيته هى التى تحرمك من هذا القسط من السعادة . » (١)

(١٣) لا شـيليه وهاميلان ودوهيم وبرونشـفيك من أبرز أساتذة الفلسفة فى فرنسا فى السنوات الماضية . وقد كتب كل منهم عديدا من الكتب فى تاريخ الفلسفة ، كان لها تأثير واسع

---

(١) نظر « المبادىء الاساسية للفلسفة » ، ص ١٧ ــ ١٨ . (ترجمة اسماعيل المهدوى)

على كافة أقسام الفلسفة فى الجامعات البرجوازية ، ومنها الجامعات المصرية .

(١٤) «هوسيرل» هو صاحب فلسفة الظواهر phenomeno-logie وملهم الوجودية الألمانية الحديثة .

وفلسفة الظواهر هذه تقوم على انكار كل ما لا يثبت بالبرهان الضرورى — فى رأى هوسيرل طبعا . ومن الأشياء التى لا تثبت بهذا البرهان الضرورى المزعوم وجود العالم الخارجى . ولهذا يقترح هوسيرل مبدأ ثانيا فى المعرفة ، هو أن « نضع بين قوسين » هذه الأشياء غير الثابتة ، بمعنى أن نؤجل البحث فيها .. (الى متى ؟!) .

ولكن الترجمة الصحيحة لعملية وضع الوجود بين قوسين ، هى بالبداهة انكار الوجود كوجود خارجى مستقل عن الانسان . ولهذا ينادى هوسيرل بأن الوسيلة الوحيدة لمعرفة «الأشياء نفسها» هى ادراكها حدسيا ، أى ادراكها كمحتويات شعورية . فالظواهر عند هوسيرل هى المحتويات الشعورية ، أى الأشياء فى الشعور لا فى الخارج (لأن الخارج موضوع بين قوسين !)

(١٥) الوجودية أحدث شكل من أشكال المثالية الذاتية ، وان كانت أشدها رجعية بسبب اغراقها فيما تسميه «باللامعقول» . ويعتبر المؤسس الحقيقى لهذا الاتجاه ، فيلسوف دانيماركى يدعى كيير كجورد (١٨١٣ — ١٨٥٥) كان من ألد أعداء الديمقراطية والطبقة العاملة . وزعيم الوجودية المعاصرة هو

الفيلسوف النازى هايدجر الذى عينه هتلر عميدا لجامعة فريبورج ، والذى كان مسئولا عن الدعاية النازية فى صفوف الطلبة الألمان . وأبرز تلامذة هايدجر الفرنسيين ، جان بول سارتر وآلبير كامو .

والوجودية تدور حول « وجود » لا عقلى تعتبره الوجود الحقيقى . وهذا « الوجود » عبارة عن « جو » شعورى غريب تغيب فيه الذات ولكنها لا تفهمه — بل انها تتجرد فيه من كل ما هو مفهوم . وقد حاول سارتر أن يشرح معنى « الوجود » فى كتيبه المسمى « الوجودية فلسفة انسانية » (ا) ، فضرب مثلا برجل يجلس فى حديقة ما ، ثم يتعلق بصره بوردة من ورودها بحيث ينصرف عن بقية الحديقة ، ثم لا يلبث أن « يحس » تأثير هذه الوردة فى نفسه وهو منصرف عن رؤيتها ، وشيئا فشيئا يغيب عن كل شىء ويغرق فى دوامة اللامعقول ، فيتساءل : من أنا ؟ ولماذا وجدت ؟.. وهنا يكون الرجل قد وصل الى « وجوده » الحقيقى ! وشبيه بهذا ، الدعاء الذى كان يردده كيير كجورد دائما : اللهم ساعدنى على أن أكون لغزا لا يمكن فهمه .

وعلى أساس هذا الوجود « اللامعقول » تضع الوجودية شعارها المعروف : « الوجود سابق على الماهية . » والماهية هنا هى التحديد العقلى للأشياء أو الأفعال . فالوجودية تعنى بهذا أن الفرد يجب ألا يتصرف بناء على تحديدات عقلية أو مبادىء ! لماذا ؟ لأنه ما دام الوجود الحقيقى هو وجود الشعور الذاتى ، فلا بد أن نرد اليه الأشياء والأفعال . وبعبارة أخرى ، يجب أن

يسلك الفرد بناء على « الدفع الغريزى » فى نفسه هو ، وبدون استلهام أى فكرة عقلية ... وبعد أن يسلك الفرد ، تتحدد القيم من واقع سلوكه ، سواء كانت هذه القيم أنانيــة أم ايثارية ، وسواء كانت قيم البرجوازية أم قيم الطبقة العاملة ! فالفعــل يسبق الفكرة • ومعنى ذلك أنه يمكنك أن تكون لصا أو جاسوسا أو حتى قديسا متدينا (١) ــ على شرط ألا تقوم تصرفاتك هذه على أقتناع منطقى ، بل على مجــرد « الانطلاق الذاتى » !! فاللامعقول هو المنطق الأكبر ، كما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى ! (٢)

وترى الوجودية فى هذا اللامعقول المعنى الحقيقى للحرية . لماذا ؟ لأنك لا « تتقيد » فيه بأفكار أو مبادىء ، بل ببســاطة « تختار » و « تنطلق » ، أى بعبارة صريحة ، تستطيع فيه أن تخدع نفسك عن واقعك ! وقد ترتب على هــذا المعنى الغريب للحرية ، أى الانطلاق وعدم الارتباط ، أن نادى الوجــودى الألمانى « ياسبرز » بأن « العلم يقتل الوجود » ... لأن العلم يرســل النور الى « سرداب الشعور الذى يخيم عليــه ظلام اللامعقول » ، فيكشف دوافع النفس ، ومن ثم يبدد ما تعيش عليه من أوهام التحرر من الواقع ومن العقل ، ومن الاستغراق فى مشاعر لاعقلية مثل « اليأس » و « القلق » و « الغثيان »

---

(١) يرى الوجوديون المســيحيون (مثل كيركجورد وجبرييل مارسيل) أن المسيح كان أول وجودى !

(٢) فى تصديره للاشارات الالهية لأبى حيان التوحيدى ، ص د

و « الندم » وما الى ذلك !

وأظن أن القارىء يستطيع بهذا أن يلمس بيديه اتجاه الهروب في الوجودية ، وهو الاتجاه الذى بلغ قمته فى فكرة الانتحار عند ألبير كامو ! فالوجودية تصور انحدار المجتمع البرجوازى الى قبره — على ما يقول روجيه جارودى. وفى دوامة التناقضات الحادة التى يحتويها المجتمع البرجوازى المحتضر (خصوصا فى فرنسا) يبدو عسيرا على كثيرين أن يفهموا الواقع، وأن يرتبطوا فى نفس الوقت بالاتجاه العلمى الذى يستهدف تغيير هذا الواقع ، ويقدم فى سبيل ذلك أغلى التضحيات . واذن فليهرب هؤلاء من الواقع ! وليغيبوا فى « استبطان » تناقضات الواقع ، بدلا من أن يحلوها علميا ! ليهربوا اذن الى اللامعقول والى اللامبالاة — على حد تعبير ألبير كامو ! ليؤمنوا باليأس والقلق والحزن (الذى تعشقه فرنسواز ساجان وانيس منصور) ، بدلا من أن يبحثوا عن جذورها فى النظام الاجتماعى القائم ! وفى كلمة واحدة : ليبتلع الشباب همومهم ومشاكلهم فى كأس الحرية الوجودية المزعومة ، بدلا من أن ينتزعوا حريتهم الحقيقية من أيدى غاصبيها .

(١٦) صحيح أنك لا تستطيع أن « تتصور » العالم بدون « تصورك » هذا ، أى بدون افتراض « الشعور » . الا أنه اذا كان « تصور » العالم يفترض وجود الشعور ، « فوجود » العالم قبل ظهور الانسان أصلا ، لا يمت بصلة الى وجود هذا الشعور . وهذا يشبه قولنا مثلا : لكى تلتقط « صورة »

فوتوغرافية لهذا المنزل ، لا بد من وجود « آلة تصوير » .
ولكن « وجود » المنزل لا يرتبط قط بوجود آلة التصوير !
(ويلاحظ الفارق فى التشبيه بين آلة التصوير السلبيةوالشعور البشرى الفعال .)

(١٧) الأنية هى الأنا أو شعور الفرد .

(١٨) الفعل المنعكس الشرطى هو بتعبير بافلوف ، « الظاهرة النفسية الأولية التى يمكن تماما اعتبارها ظاهرة فسيولوجية محضة فى نفس الوقت . » (١)

وقد اكتشف بافلوف هذه الظاهرة عن طريق احداث رد فعل لمؤثر ما بوسطة مؤثر آخر يرتبط بالمؤثر الأول : كأن نقدم طعاما لكلب ما مثلا ونقرنه بصوت معين أو بضوء معين ، فتكون النتيجة أن رد فعل الطعام وهو تحلب اللعاب ، يحدث بعد ذلك نتيجة لمؤثر الصوت أو الضوء وبدون وجود الطعام . وتحلب اللعاب نتيجة لتناول الطعام ، يكون استجابة طبيعية يسميها بافلوف الفعل المنعكس غير الشرطى . أما تحلب اللعاب نتيجة سماع الصوت أو رؤية الضوء ، فيحدث بناء على ارتباط الطعام (الذى هو المؤثر الأصلى) بهذا الصوت أو الضوء . ومن هنا يسميه بافلوف الفعل المنعكس الشرطى . ومركز الفعل المنعكس

---

(١) بافلوف «مؤلفات مختارة» ، ص ٢٤٧ . الترجمة الانجليزية موسكو ١٩٥٥

الشرطى فى المخ هو النصفان الكرويان ، بينما مركز الفعل المنعكس غير الشرطى هو النخاع المستطيل . ونتيجة للأفعال المنعكسة الشرطية وغير الشرطية التى لا تتدخل فيها الألفاظ ، يتكون لدى الكائن العضوى « نظام » من الاشارات الموجهة ، يسميه بافلوف النظام الاشارى الأول first signalling system أما الألفاظ ، أى اللغة ، التى تتكون عند الانسان كاشارات لاشارات النظام الأول ، فيطلق عليها بافلوف اسم النظام الاشارى الثانى .

ومما يذكر أن كافة الكتب البرجوازية درجت على اعتبار بافلوف « سلوكيا » ، أى من نفس مدرسة السلوكى الأمريكى واطسن . وهذا فى الحقيقة تشويه خطير لبافلوف . ذلك لأن بافلوف كماركسى يختلف كلية عن واطسن ذى الاتجاه الميكانيكى المتطرف ــ وان كان كلاهما يعتمد على الحيوانات وعلى المعمل فى اجراء التجارب . فبافلوف يعترف بالشعور كظاهرة نوعية ، بينما واطسن ينكره تماما . وبافلوف يكشف الأسس الفسيولوجية للظواهر النفسية ، أما واطسن فيذيب الظواهر النفسية فى حركات الأعضاء الباطنة . وبافلوف وصل الى نتائج علمية خطيرة وأنشأ علم فسيولوجيا المخ ، بينما أغرق واطسن نفسه فى عدد لا حصر له من تجارب «المحاولة والخطأ».

(١٩) مراجعة الماركسية أو الأعادية revisionnisme

هى انعكاس الاتجاه الاصلاحى السياسى على الفلسفة الماركسية. وتحاول المراجعة دائما أن «تثبت» أن الاشتراكية العلمية يمكن

ملاءمتها مع الفلسفات المثالية ، وبهذا تعزلها عن المادية الجدلية التى هى أساسها الثورى ، والتى هى السلاح الروحى للطبقة العاملة ازاء التكوينات الفكرية البرجوازية • وزعيم مراجعى الماركسية على فلسفة كانط هوبرنشتين . أما زعيم مراجعى الماركسية على فلسفة ماخ الوضعية فهو بوجدانوف .

(٢٠) وجود الشيء لذاتنا pour nous يعنى وجوده منعكسا فى ذاتنا (اللام فى الفلسفة التقليدية تعنى الانعكاس) . ووجود الشيء فى ذاته en soi يعنى وجوده بدون انعكاس .

(٢١) الشكية scepticisme هى الفلسفة التى تشك فى امكان الوصول الى الحقيقة الموضوعية .

وكان مؤسس المدرسة الشكية الاغريقية بيرون يقول بعجز الانسان عن اعطاء أى حكم على الأشياء ، ومن ثم كان ينادى باتخاذ موقف السلبية واللامبالاة من كل شىء . وعلى عكس ذلك كانت شكية عصر النهضة (فى القرن الخامس عشر والسادس عشر) تلعب دورا ايجابيا فى الصراع الفكرى اذذاك وتمهد الطريق لمادية القرن السابع عشر ، لأنها كانت شكية موجهة ضد التكوين الفكرى الاقطاعى وتقاليد الكنيسة .

وفى العصر الحديث ، اتخذت الشكية شكل اللاأدرية. ولهذا يعتبر كانط شكيا ، لأنه كان يقول بعجز المعرفة البشرية عن الوصول الى ما سماه « الشيء فى ذاته » ، أو باطن الشيء : يستوى فى هذه النظرة الى كانط الماركسيون وغير

الماركسيين . (١) أما هيوم فهو بلا نزاع أبو الشكية الحديثة ، لأنه أنكر موضوعية المادة (الجوهر) وموضوعية العلية ، وادعى مثلا أن التعود هو الذى يجعلنا نتخيل النار علة الاحتراق مع أنه ليس ثمة دليل « عقلى » على ذلك !

وقد يدهش البعض اذا قلنا ان « برتراند رسل » هو زعيم الشكية الحديثة . فليستمع هؤلاء الى قول رسل :

« ان الشيء الحقيقى وهو المنضدة (مثلا) لا يمكن معرفته اطلاقا ، بالمعنى الدقيق للكلمة . » (٢) لماذا ؟ لأننا نعرف الاشعاعات أو الموجات الضوئية من خلال آثارها فى المخ. ولكن «هذه الآثار ليست هى نفسها الموجات الضوئية .» (٣) ، واذن لا يمكن أن نعرف « الطابع الباطن » للأشياء (٤) ، بل يمكن فقط أن نعرف آثارها !

وهكذا يردد الفيلسوف البرجوازى المعاصر نفس رأى كانط فى « الظاهرة » و « الشيء فى ذاته » .

ولكن ، هل صحيح أننا « لا نعرف » المنضدة نفسها ، أى لا نعرف الجزيئات والذرات والالكترونات التى تتكون منها المنضدة ؟ واضح أن هذه مغالطة بارغة لا أكثر ولا أقل . والمغالطة هنا تقوم على الخلط بين « نعرف » و « نرى » أو « نحس » ! فنحن بالتأكيد لا نرى الالكترونات، ولكننا نعرفها علميا معرفة دقيقة . ونحن لا نرى الالكترونات لا لأن الانسان يدرك « آثار » الشيء فقط ولا يدرك « باطنه » ، بل ببساطة

(١) أنظر رأى لاشيليه فى معجم لالاند .
(٢) « مسائل الفلسفة » ، ص ٧٥ Home universiry Library
(٣) « موجز الفلسفة » ، ص ١٦١ ، الطبعة الخامسة ١٩٤٩
(٤) نفس المرجع ، ص ١١٤ .

لأن العين كجهاز يعكس الواقع الخارجي أقل دقة من أن تعكس الالكترونات . أما الميكروسكوب الالكتروني فيستطيع أن يعكسها ــ تماما كما تظهر الشعرة ملساء أمام العين المجردة ثم تظهر سلاسل من التعريجات تحت الميكروسكوب العادي . فالمشكلة هنا هي مشكلة « درجة الدقة » في الانعكاس ، ولا شيء غير ذلك .

(٢٢) اكتشف كوبرنيكس (١٤٧٣ ــ ١٥٤٣) النظام الشمسي، أي دوران الكواكب حول الشمس لا حول الأرض ، كما كان يقول بطليموس الروماني في القرن الثاني ثم رجال الكنيسة من بعده . وكان هذا الاكتشاف رغم بدائيته اذ ذاك صفعة للكنيسة التي كانت تدعى أن الأرض مركز العالم وأن كل الكواكب الأخرى خلقت لتدور حولها .

وعندما اكتشف كوبرنيكس النظام الشمسي كانت التقديرات الفلكية القائمة على نظريته تتفق تماما مع تقديرات بطليموس القائمة على مركزية الأرض ، وهذا فيما يخص الحركة الظاهرة للأجرام السماوية ومراكز النجوم في السماء . ذلك لأن ميدان التقدير عند كوبرنيكس كان محدودا ولا يسمح بكشف النتائج الخاصة المترتبة على نظريته هو ، أي لا يسمح بتمييز الحقيقة من الخطأ.(١) والى هذا الاتفاق القديم بين تقديرات كوبرنيكس

(١) شبيه بهذا الموقف أن يزعم راكب قطار أن اعمدة التلغراف هي التي تتحرك بينما القطار ثابت ، ولو أراد راكب القطار هذا أن يقدر السرعة التي يبتعد بها القطار عن نقطة معينة لوصل الى نفس التقدير الذى يصل اليه الواقف على الارض . وفي حدود هذا الاتفاق فقط ، لا يمكن طبعا تمييز الخطأ من الصواب !

وبطليموس يشير كل الفلاسفة المثاليين الذين ينكرون موضوعية الواقع الخارجي : يستوى فى ذلك بوانكاريه وبرتراند رسل والوضعيون المناطقة . وفى هذا تبدو عدم أمانتهم أو تخلفهم العلمى . فالحقيقة أن تطور علم الفلك سمح للعالم الألمانى « جالى » فى القرن التاسع عشر بأن يكتشف الكوكب «نبتون» بناء على تقديرات لا يمكن أن تخرج قط الا من نظرية كوبرنيكس . وهذه حقيقة معروفة فى تاريخ العلم ! وقبل ذلك كشف نيوتن قوانين الجاذبية التى توصلت الى تقدير حركة الكواكب حول الشمس تقديرا دقيقا . ثم ازدادت دقة هذه التقديرات بعد ذلك على يد أينشتين .. ثم أطلق الاتحاد السوفييتى أقماره الصناعية لتدور فى الفضاء حول الأرض !

وبعد هذا التاريخ العلمى الظافر يردد اللاأدريون نفس التبرير الذى كانت تسوقه الكنيسة ضد كوبرنيكس فى القرن السادس عشر ، ألا وهو اتفاق تقديراته الفلكية مع تقديرات بطليموس !

(٢٣) ذلك لأن البرجوازية الحاكمة تخشى النظام الاقطاعى البائد بقدر ما تخشى النظام الاشتراكى الصاعد ، أى تخشى رجوع الماضى بقدر ما تخشى ثورة المستقبل .

(٢٤) ان اللاأدرية تعتبر الحقيقة العلمية حقيقة ذاتية ، لأنها لا تحكم بمطابقتها للواقع الموضوعى فى الخارج ، ولأنها تجعل للعلم قيمة نسبية ومرتبطة بالعقل البشرى الناقص . وهذا

التدليل اللاأدرى هو الذى يردده فلاسفة الايمان لاثبات ضرورة المعرفة الخارقة او الصوفية (اللاعقلية) .

(٢٥) ان موقف البرجماتية من مشكلة الدين ، يلقى ضوءا على طبيعة هذه الفلسفة المنافقة ، التى تضع نفسها صراحة فى خدمة الطبقات الحاكمة الأمريكية. ولنستمع فى ذلك الى مايقول أبو البرجماتيه وليم چيمس :

« أخشى أن تكون محاضراتى السابقة التى اقتصرت على نواحى بشرية وانسانية قد أوحت الى أكثركم أن البرجماتية تعنى فى منهجها الابتعاد عما هو فوق البشر..فالمبادىء البرجماتية ترى أنه اذا كان فرض وجود الله يلعب دورا مرضيا بأوسع معانى الكلمة ، فهو فرض صحيح . » (١)

بهذه الطريقة المكياڤيلية يستمر البرجماتى وليم چيمس فى حديثه عن الأديان باعتبارها « ذرائع نافعة » ! ثم يبحث بعد ذلك عن تحديد الصحيح منها ، فيقول :

« يجب على البرجماتية أن تؤجل اعطاء اجابة جامدة ، لأننا لا نعلم بعد بشكل يقينى أى أنواع الدين سوف يلعب أحسن دور فى المدى الطويل » ! (٢)

بل الأغرب من ذلك أن يتحدث وليم چيمس عن النتائج « الصحيحة » التى تصل اليها الأحوال الصوفية .. ما دامت تلعب دورا ! (٣)

---

(١) «البرجماتية» ، ص ١٩٢ ، طبعة ميريديان، نيويورك ١٩٥٥ .
(٢) نفس الكتاب ، ص ١٩٣
(٣) نفس الكتاب ، ص ١٠٢ .

ثم لنستمع الى ما يقول أستاذ البرجماتيـــة المعاصرة چون ديوى فى كتابه « اعادة بناء الفلسفة » :

« سوف نبعث الحياة فى الروح الدينية ، لأننا (سنجعلها) تنسجم مع المعتقدات العلمية التى لا يشك فيها الناس ، وتنسجم مع النشاط الاجتماعى العادى فى الحياة اليومية .. وتتعمق بصفة خاصة وتشتد عندما تغتذى تلقائيا بالانفعال وتترجم الى الرؤى التخيلية والفن الرفيـــع . أما الآن ، فهى قائمـــة على نوع من المجهـــود الواعى وعلى النظر والروية ، أى على اقناع الفكـــر (وهذا سبب موتها) . » (١)

ويتحدث عن الضرورة والامكان فى الطبيعة فيقول :

« ان العلم الحديث يقدم (؟!) تصورات الامكان .. والتحرك الحر (أى اللاضرورة) .. ولكن ما لم تصل هذه التصـــورات الى تفريغ الخيال من ميراث (الحتمية) فسوف تظل فكرة المادة وفكرة ترابط العمليات (أى الجدل) كالكابوس الثقيل الذى يكتم الانفعالات ويشل الدين ويفسد الفن . » (٢)

وبهذا يكشف ديوى اكذوبة الطـــابع العلمى للبرجماتيـــة ، ويفسر لنا لماذا تحتضنها الوضعية المنطقية ـ الفلسفةالعلمية جدا!

(٢٦) لعل قصة اكتشاف دارون للتطور اوضح مثال يصـــور هذه الحقيقة . فقد ظل دارون يستكمل اكتشـــافه العلمى عدة سنوات ، ثم صاغه فى مخطوطه غير صالحة للنشر ، وأرسل بها الى صديقه هوكر لاستطلاع رأيه . وفى هذه الفترة بالـــذات

(١) ص ١٦٣ . طبعة منتور ، نيويورك ١٩٥١
(٢) نفس الكتاب ، نفس الصفحة .

تلقى دارون مخطوطة من أحد العلماء الانجليز فى الملايو ويدعى « ألفرد رسل والاس » .. وكانت المخطوطة تعالج موضــوع أصل الأنواع ، وبنفس طريقــة داروين ، بل الأكثر من ذلك أن المخطوطة كانت تحوى عبارات تكاد تطابق عبــارات دارون ، مثل « التناحر على الوجود » بدلا من « التناحر على الحياة » !

وبالرغم من أن دارون هو العالم الذى استكمل تفاصيل هذه النظــرية وقدم بياناتها الموضــوعية الشيئية ، الا أنه أصر على وضع اســم والاس بجانب اسمه فى أول بحث تقــدم به الى أكاديمية لينوس العلمية بلندن .

(٣٧) مسألة الحقيقة النسبية والحقيقــة المطلقة من المســائل الأساسية فى المادية الجدلية . ولهذا تحتاج مزيدا من النقاش .

وأصل المشكلة أن الفلسفات التقليدية كانت تفهم « الحقيقة المطلقة » بمعنى المعرفة التامة الكاملة ، والمحددة فعلا فى نفس الوقت . وبعبارة أخرى ، كانت الفلسفة التقليدية تعتبر المعرفة البشرية وصولا الى حقيقة محددة نهائيا ومطلقة (لا ندرى أين) فى انتظار العبقرى الذى يكشف ستارها . واستغلت الفلسفات اللاأدرية هذا التصور التقليدى الساذج ، فأنكرت الحقيقــة المطلقة واعتبرتها لفظا « ميتافيزيقيا »، واقتصرت على « الحقائق النســبية » التى تقدمها « الحياة اليومية » ــ على حــد تعبير البرجماتى الأمريكى جون ديوى .

ولكن النظرة العلمية الى « المعرفة » البشرية تبين أنها عملية تاريخية تنتقل تدريجيا من الجهل الى العلم ، وليست قط وصولا الى « خطف » حقائق محددة نهائيا . الا أنه اذا لم تكن ثمــة

حقائق محددة نهائيا ، فهذا لا ينفي وجود حقيقة مطلقة تتخلل الحقائق النسبية وتتكون من المجموع اللانهائى لها على مدى التاريخ .

ولكن ماذا نعنى أولا بالمطلق ؟

لا شك أن المطلق كما نفهمه يختلف تماما عن « الكلب المطلق من السلسلة » الذي يتحدث عنه الدكتور زكى نجيب !! (١) وقد حدد لينين ببساطة ما تعنيه مثل هذه الكلمة ، فقال فى رده على بوجدانوف :

« اذا كنت لا تستطيع أن تقرر أن القضية : « نابليون مات فى ٥ مايو عام ١٨٢١ » قضية كاذبة أو غير دقيقة ، فأنت تعترف بأنها صادقة . واذا كنت لا تقرر أنه يمكن دحضها فى المستقبل ، فأنت تعترف بأن هذا الصدق (مطلق) . » (٢)

وبهذا يتضح المعنى الواقعى البسيط للمعرفة المطلقة، بوصفها المعرفة الصحيحة التى لا يمكن دحضها فى المستقبل. وهنا يرتبط مفهوم المعرفة المطلقة بمفهوم الواقع الموضوعى الموجود فى الخارج ، والمستقل فى وجوده وقوانينه الضرورية عن وجود الانسان ومعرفته . ومن ثم تنحل المسألة الى مسألتين هما :

أولا : هل هناك حقيقة موضوعية لا يتوقف وجودها على وجود الانسان ؟

ثانيا : هل يمكن للمعرفة البشرية أن تعبر عن هذه الحقيقة ككل وبطريقة مطلقة ، أم تدريجيا وبطريقة نسبية ؟ (٣)

---

(١) « خرافة الميتافيزيقا » ، ص ١٤ ، القاهرة ١٩٥٣ .

(٢) « المادية والمذهب النقدي التجريبى » ، ص ١٣٠ ، الترجمة الانجليزية ، موسكو ١٩٥٢ .

(٣) لينين ، نفس المرجع ، ص ١١٩ .

أما وجود الحقيقة الموضوعية المستقلة عن الانســان ، فقد سبق أن عرضنا له فيما قلناه عن الضرورة فى الطبيعة ، اذ قلنا ان العلم البشرى وتفاعل الانسان مع الطبيعة يثبتان موضوعية الحقيقة أى مادية العالم ، وقلنا كذلك ان وجود الأرض قبــل ظهور الانسان بآلاف الملايين من السنين يحسم هذه المشكلة ، بقدر ما تحسمها الدراسة التجريبية للمخ البشرى كجهاز خاص بالعلاقات بين الكائن الحى والواقع الخارجى .

« والاعتراف بالحقيقة الموضوعية أى الحقيقة المســتقلة عن الانسان وعن النوع البشرى ، هو بطريقة أو بأخرى ، اعتراف بالحقيقة المطلقة . » ولكن .. « بطريقة أو بأخرى هذه » ، هى التى تفــرق بين الميتافيزيقى والمادى . (١) فالميتافيزيقى يرى أن العقل البشرى يستطيع أن يصل الى هذه الحقيقــة كاملة . أما المادى فيرى أن الفكــر البشرى ، الــذى هو فكر الآلاف من الناس فى الماضى والحاضر والمســتقبل ، يملك « الاســتعداد والامكانيات » التى تجعله قادرا على تحصيل الحقيقة المطلقة(٢) كمجموع لا نهائى « للبذور » التى تحويها الحقائق النسبية . فكل خطوة يخطوها العلم تحصيل لحقيقة نسبية ، تتســع أو تضيق عندما تصححها الأجيال القادمة . ولكنها رغم ذلك لا بد ألا تشتمل على « بذرة » (٣) تضاف الى « البــذور » الأخرى التى تتكون منها الحقيقة المطلقة ، ابتداء من التحصيلات العلمية الماضية ، وصعودا الى التحصــيلات العلميــة القادمة ، خــلال

---

(١) لينين ، نفس المرجع ، ص ١٣٠ .

(٢) انجلز : « الرد على دورنج » ، ص ١١٩ ، ١٣١ . الترجمــة الفرنسية ، الطبعة الثانية .

(٣) لينين ، نفس المرجع ، ص ١٣٣ .

التسلسل اللا نهائي للأجيال البشرية . ذلك لأنه اذا كان الانسان الحديث قد تمكن من تصحيح آلاف الأخطاء السابقة ، رغم أن العلم البشرى لا زال فى عشرات السنين الأولى من حياته ؛ فلا شك أن الأجيال العلمية القادمة تملك فى المدى غير المحدود امكانيات لا نهائية لاستبعاد الخطأ تماما .

ففى القرن الحاضر مثلا ، كشف نيوتن عدة قوانين طبيعية . ولم تلبث هذه القوانين أن مرت خلال الستين سنة الماضية بسلسلة من التطورات . ولكن ... هل تحطمت نظريات نيوتن كما يقول البعض ؟ كلا . فنظرية النسبية وسعت القضايا العلمية التى وضعها نيوتن . وخلال توسيع هذه القضايا ، صححت بعض الأخطاء الجزئية . ولهذا كان أينشتين يحدد تقدمه العلمى على نيوتن بقوله :

« ان أقل هذه المعادلات ، مع المعادلة رقم ٩٠أ ، تحتوى نظرية نيوتن فى الجاذبية . » (١)

وهذا التوسيع يعنى أن البشرية أضافت « ذرات » جديدة الى حصيلة الحقيقة المطلقة التى تتقدم فى تجميع كافة ذراتها .. بل ان نسبية أينشتين جاءت نتيجة ذرات سابقة ـ ذرات أضافها ما يكلصن ومورلى عندما أثبتا بالتجربة عدم وجود «بحر الأثير» الذى افترضه نيوتن ليفسر به انتقال الضوء فى الفضاء ، وأضافها ماكس بلانك عندما أثبت الطابع الجسيمى للضوء فى ظاهرة الفوتونات ، وهكذا وهكذا . ثم ان بعض جوانب فى نسبية أينشتين لا تزال فى حاجة الى توسيع أو تضييق . وخلال هذا

---

(١) أينشتين : «معنى النسبية» ، ص ٨٥ ، الطبعة الرابعة ، لندن ١٩٥٠ .

التوسيع أو التضييق يكشف العلم أخطاء جزئية وقع فيها أينشتين .

ولنأخذ مثالا آخر ذكره انجلز ، هو قانون بويل . فقد كشف بويل أن حجم الغاز يتناسب تناسبا عكسيا مع الضغط الواقع عليه اذا لم تتغير درجة الحرارة . ولكن رينول Regnault لم يلبث أن ضيق القضية العلمية التى كشفها بويل ، اذ أثبت أن بعض الغازات تتحول عند ضغط معين الى سوائل ، ومن ثم لا ينطبق عليها قانون بويل . ثم جاء مندلييف بعد ذلك فأثبت بالأجهزة الدقيقة التى لم تتوفر لبويل أن أرقام التناسب العكسى التى أعطاها بويل غير دقيقة . وبذلك ازدادت دقة الصورة التى نقل بها بويل « تقريبيا » أحد قوانين الطبيعة .

فالحقيقة المطلقة لا توجد كاملة تماما ، بل هى تتقدم تقدما تاريخيا يتخلل عددا لا نهاية له من الأخطاء الجزئية . ثم ان الحقيقة النسبية ليست كما يتصور اللا أدريون نسبية تماما ، بمعنى أن النظرية العلمية التى تكون صحيحة فى هذا الجيل ، لا يمكن أن تصبح فى الجيل القادم محض خطأ . كل ما فى الأمر أن الناس الذين « يعكسون » الواقع الخارجى ، يعيشون فى ظروف نسبية ، من حيث مدى التقدم العلمى والفنى فى عصرهم ، ومن حيث التكوينات الفكرية التى تؤثر فيهم ، وهكذا . وهذه الظروف النسبية المحدودة هى التى تجعل معارفهم العلمية نسبية ومحدودة ، أى هى التى تدخل فيها بعض الأخطاء الجزئية أو تجعلها فى حاجة الى توسيع أو تضييق . ولكن اذا نظرنا الى البشرية فى أجيالها اللانهائية ، استطعنا أن نكتشف الامكانيات غير المحدودة وغير النسبية التى يمتلكها الفكر البشرى . وفى هذا تكمن الحقيقة المطلقة . فالمعنى البسيط لفكرة الحقيقة

المطلقة فى الماركسية ، هى أن تاريخ العلم البشرى عبارة عن تقدم الى الامام فى معرفة الواقع ، وليس مجرد محاولات نسبية .

وقد يقال ان التمييز بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية تمييز غير محدد ، أى ليس هناك حد فاصل بين الاثنتين. ويجيب لينين على ذلك قائلا : نعم ، انه « غير محدد » الى الدرجة التى تجنب العلم الوقوع فى الجمود بدعوى الوصول الى حقائق مطلقة ، ولكنه « محدد » الى الدرجة التى تهب الفكر البشرى الثقة فى تحصيلاته ، ومن ثم تجنبه الوقوع فى نسبية اللاأدريين. (١) ولهذا كان انجلز ولينين يسخران من هؤلاء الذين يستعملون كلمة حقيقة مطلقة أو حقيقة أبدية ــ حتى لو كانوا يستعملونها فى السياق الصحيح . وفى رأيهما أن «٢+٢=٤» أو « نابليون مات فى ٥ مايو عام ١٨٢١ » ، هى بالفعل حقيقة مطلقة أو أبدية .. الا أنها لا تستحق هذا الصياح ، لأنه « ليس من الحكمة أن نستعمل ألفاظا رنانة فى الحديث عن أشياء بسيطة . » (٢)

أما هؤلاء الذين يتمسكون باستعمال كلمة مطلق وأبدى وما اليها ، فهم المضللون الذين يريدون أن يبرروا بهذه الكلمات مزاعمهم عن « الأخلاق الأبدية والعدالة الأبدية » . (٣)

(٢٨) انظر ملاحظة المترجم عن التجربية فى كتاب « المبادىء الأساسية للفلسفة ، ص ١٢٢ ــ ١٢٣

(١) لينين ، نفس المرجع ، ص ١٣٤ .
(٢) لينين ، نفس المرجع ، ص ١٣١ .
(٣) انجلز ، نفس المرجع ، ص ١٢٣ .

ومن المؤسف ان الكثيرين لازالوا يخلطون بين التجريبية والتجريبية !

(٢٩) آثرنا أن نترجم La vie spirituelle بالحياة الفكرية بدلا من الحياة الروحية ، لأن اسم الحياة الروحية يعنى فى اللغة العربية حياة الأفكار الدينية والصوفية على وجه التخصيص . (انظر مثلا كتاب « الحياة الروحية فى الاسلام » للدكتور محمد مصطفى حلمى ، ص ٣ ، ٧ .)

(٣٠) كان الانتاج الحرفى انتاجا فرديا لا يرتبط فيه عمل الفرد بالعمل الجماعى للآخرين . ولكن ظهور الانتاج الرأسمالى ، ثم تركز هذا الانتاج أكثر فأكثر ، قضى على الانتاج الفردى المستقل ، فأصبح كل نوع من أنواع الانتاج متوقفا على النوع الآخر ، ليس فقط داخل المصنع الواحد بمختلف أقسامه ، وليس فقط بين أقسام الصناعة الواحدة (مثل اعتماد صناعة النسيج على صناعة الغزل) ، بل وأيضا بين كافة فروع الانتاج . من ذلك مثلا أن توقف عمال البترول أو عمال الشحن عن العمل يشل الصناعات الأخرى . وهذا ما يسمى بالطابع الاجتماعى للانتاج .

(٣١) يرى المفهوم الميتافيزيقى للعلة والمعلول أن المعلول لا بد أن يكون سلبيا بالنسبة للعلة . ولا تتصور الميتافيزيقا أن المعلول يمكن أن يكون علة والعلة معلولا فى نفس الوقت ، كما هو الحال فى الدم الذى يحرك الرئتين بينما يعمل بواسطة الرئتين (لأنهما يستقبلان الأكسجين) ، أو ماء النهر الذى يولد المطر بالتبخر والتكثف ثم يعود فيستقبل هذا المطر . فاذا كان البناء

الفوقى معلولا للأساس الاقتصادى ، فهذا لا يعنى قط أن الأول لا يؤثر فى الثانى .

(٣٢) من ذلك مثلا أن استخدام الطاقة الذرية فى أغراض سلمية واسعة يضر بمصلحة الاحتكارات العالمية ، لأنه يحقق فيضا هائلا فى انتاج السلع ، فتهبط أسعارها وتتلاشى أرباحها .
ومن ذلك أيضا أن تطبيق العلم الميتشوريني على الزراعة يضر بمصلحة الاحتكارات الرأسمالية، لأنه يزيد من الانتاج الى الحد الذى يخفض الأسعار . ونحن نعرف أن اتلاف فائض الانتاج من القطن والذرة والبن ظاهرة مألوفة فى أمريكا على الخصوص .

(٣٣) تتفرع الماركسية الى ثلاثة فروع ، هى المادية الجدلية والمادية التاريخية والاشتراكية العلمية .
والمادية الجدلية هى المفهوم الماركسى للعالم ، أى الأساس الفلسفى للماركسية (الجدل والمادية) .
والمادية التاريخية هى تطبيق مبادىء المادية الجدلية على الظواهر الاجتماعية ، ومن ثم استخراج قوانين تطور المجتمع البشرى على أساس تطور وسائل الانتاج وبقوة الصراع الطبقى، وانتقاله من المشاعية إلى العبودية الى الاقطاع الى الرأسمالية الى الاشتراكية ثم الى لشيوعية .
أما الاشتراكية العلمية فهى نظرية الاشتراكية القائمة على تحليل الانتاج الرأسمالى واكتشاف قانون فائض القيمة كتفسير لاستغلال البرجوازية للطبقة العاملة . وبهذا تتحدد المهمة التاريخية الملقاة على عاتق الطبقة العاملة فى تحقيق الاشتراكية

(٣٤) هيجل (١٧٧٠ـ١٧٣١) هو فيلسوف الجدل المثالى الذى تطور واتخذ مضمونه المادى على يد ماركس وانجلز . وتسمى فلسفة هيجل « بالمثالية المطلقة » ، لأنها تذيب الوجود كله فيما تطلق عليه «الفكرة المطلقة» أو « الروح المطلقة » أو «المطلق» ، وهو مبدأ صوفى يشبه وجود الله فى الأديان .

ولكن عرض هيجل لتطور الفكرة المطلقة اشتمل على بذرة جديدة وهامة هى الجدل . فقد استطاع هيجل أن يقرر لأول مرة فى الفلسفة الحديثة أنه ليس ثمة وجود لا يتغير تغيرا مستمرا تاريخيا ، كما استطاع أن ينظر الى التناقض بوصفه محرك التطور ، ورأى أنه ينحل عن طريق تركيب النقيضين معا .

والفكرة المطلقة متطورة بفعل تناقضاتها الباطنة . ويحدد تطورها هذا تاريخ الوجود كله . وهى تمر بثلاث مراحل . فالمرحلة الأولى هى درجة الفكر المحض، أى السابقة على الوجود المادى . والمرحلة الثانية هى تطور الفكرة المطلقة الى نقيضها الذى تحتويه ، ألا وهو الطبيعة ، ويسميها « الفكرة المطلقة فى حالة تجسد » . ولكن الفكرة لا تلبث أن تنفى هذا النقيض وتعود الى نفسها فى المرحلة الثالثة ، فينشأ تركيب يجمع بين الفكرة ونقيضها ، هو الفكر البشرى ، الذى يجمع بين الفكر المحض والتجسد .

ويرسم هيجل تطور الفكرة فى كل مرحلة من هذه المراحل الثلاثة أيضا ، ويستوعب فى ذلك كافة علوم عصره . ففى المرحلة الأولى تتطور الفكرة المطلقة تطورا مجردا فى عالم التصورات والمقولات التى يعرضها علم المنطق . وفى المرحلة الثانية تتطور الطبيعة من القوى الفيزيائية والكيميائية الى

الكائنات الحية . وفى المرحلة الثالثة تتطور الفكرة من روح الفرد الى روح المجتمع ثم الى اتحاد روح الفرد بالمجتمع عن طريق الفن والدين والفلسفة . وفى الفلسفة تصل الفكرة المطلقة الى الشعور بنفسها ، ويتحقق ذلك بتطور الفلسفة الى فلسفة هيجل بالذات ! وفى المجتمع تتطور الروح حتى تتحقق فى الدولة ، ثم فى الدولة البروسية بالذات !

وبذلك يختنق الجدل الهيجلى ، اذ تتوقف حركته ويتحول الى أداة لتبرير الملكية البروسية . وليس هذا بغريب . فالجدل الصحيح هو الجدل الواقعي . والجدل الواقعى هو الجدل المادى العلمى لا المثالى .

(٣٥) من ذلك ما قاله بعض الفلاسفة والعلماء المثاليين ، مثل برتراند رسل وادنجتون ، عن حلول «الطاقة» محل «المادة» ! وهم فى هذا يخلطون بين «خواص المادة» كما يكشفها العلم ، وبين «المادة» كمقولة فلسفية لا تعنى أكثر من وجود واقع موضوعى خارج العقل . وقد أشار لينين الى ذلك فى كتابه «المادية ومذهب النقد التجربى» ، فقال :

«لكى نضع السؤال وضعه الصحيح ، أى من زاوية المادية الجدلية ، يجب أن يتخذ هذه الصورة : هل الالكترونات والاثير وما الى ذلك توجد كحقائق موضوعية خارج العقل البشرى ، أم لا ؟» (١)

فهذا هو اساس الخلاف .

نوفمبر سنة ١٩٥٧

---

(١) ص ٢٧٠ ، الطبعة الانجليزية ، موسكو ١٩٥٢ .

فهرس الكتاب

صفحة

مقدمة المترجم ... ١

الباب الأول

دراسة المادية الفلسفية الماركسية

الفصل الأول : ما هو المفهوم المادي للعالم ؟

١ — معنيان لكلمة « مادية » ١٤

٢ — المادة والروح ١٦

٣ — المسألة الأساسية في الفلسفة ١٩

٤ — معنيان لكلمة « مثالية » ٢١

٥ — المادية والمثالية يتعارضان في التطبيق
تعارضهما في النظرية ٢٣

٦ — المادية الفلسفية الماركسية تتميز بثلاث
سمات أساسية ٢٨

صفحة

الفصل الثانى : السمة الأولى للمادية الماركسية

العالم مادى

١ — الاتجاه المثالى ٣١
٢ — المفهوم المـاركسى ٣٦
٣ — المـادة والحركة ٣٧
٤ — الضرورة الطبيعية ٤٤
٥ — المـاركسية والغيبية ٥٠
٦ — الخلاصـة ٥٢

الفصل الثالث : السمة الثانية للمادية الماركسية

المادة سابقة على الشعور

١ — تحليل المثالية ٥٤
٢ — المفهوم المـاركسى ٦٥
ا) موضوعية الوجود ٦٦
ب) الشعور انعكاس للوجود ٧٠
٣ — الفكر والمخ ٧٤
٤ — خطوتان للمعرفة ٧٩
٥ — الخلاصة ٨٣

صفحة

الفصل الرابع : السمة الثالثة المادية الماركسية :

العالم يمكن معرفته

١ — آخر مهرب للمثالية ٨٦
٢ — المفهوم الماركسى ٩٦
ا) دور التطبيق ٩٧
ب) تزييف المعنى الماركسى للتطبيق ... ١٠٤
٣ — الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة ١٠٨
٤ — وحدة النظرية والتطبيق ١١٣

الباب الثانى

المادية الجدلية والحياة الفكرية فى المجتمع

الفصل الأول : الحياة الفكرية فى المجتمع

انعكاس لحياته المادية

١ — التفسيرات المثالية ١٢٤
٢ — الموقف المادى الجدلى ١٣٠
ا) الحياة المادية للمجتمع واقع موضوعى
يوجد مستقلا عن شعور الأفراد
ومستقلا عن شعور الإنسان العام
وإرادته ١٣٠

صفحة

ب) الحياة الفكرية للمجتمع تعكس الواقع
الموضوعى للمجتمع ١٣٥

حـ) كيف تنبثق الأفكار والنظريات
الاجتماعية والسياسية الجديدة ؟ ... ١٤٠

د) مسألة الرواسب ١٤٢

٣ — الخلاصة ١٤٣

الفصل الثانى : دور الأفكار وأهميتها

فى الحياة الاجتماعية

١ — خطأ المادية المبتذلة ١٤٨

٢ — الموقف المادى الجدلى ١٥٢

ا) الأصل المادى للأفكار هو الذى
يقيم قوتها ١٥٢

ب) الأفكار القديمة والأفكار الجديدة ١٥٥

حـ) الأفكار الجديدة تملك القدرة على التنظيم
والتحريك والتغيير ١٦٠

٣ — الخلاصة ١٦٤

صفحة

الفصل الثالث : الاشتراكية العلمية

تكونها وأهميتها ودورها

١ — المصادر الثلاثة للماركسية ١٦٨
ا) الفلسفة الألمانية ١٦٩
ب) الاقتصاد السياسي الإنجليزي ... ١٧٢
ح) الاشتراكية الفرنسية ١٧٤
٢ — الاشتراكية الطوباوية ١٧٥
٣ — الاشتراكية العلميـة ١٨٢
ا) تكونها ١٨٢
ب) خصائصها ١٨٣
٤ — دور الاشتراكية ١٨٩
ا) وحدة الاشتراكية والحركة العمالية ١٨٩
ب) نقد اتجاه التلقائية ١٩٠
٥ — الخلاصـة ١٩٢

ملاحظات المترجم

من هذه الملاحظات ما يلي :

أبيقور ١٩٧
بوليتزر وجبريل بيرى ١٩٩
بول رينو ٢٠٠

صفحة

الفيتشيه ٢٠٠
فرويد واللاشعور ٢٠١
مسألة الضرورة فى الطبيعة ٢٠٢
تيير ٢١٢
هوسيرل ٢١٣
الوجودية ٢١٣
وجود العالم وتصور العالم ٢١٦
الفعل المنعكس الشرطى وبافلوف وواطسن .. ٢١٧
مراجعة الماركسية ٢١٨
الشكية وبرترند رسل ٢١٩
بين كوبرنيكس وبطليموس ٢٢١
موقف البرجماتية من الدين ٢٢٣
داروين وألفريد والاس ٢٢٤
مسألة الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة ٢٢٥
الطابع الاجتماعى للإنتاج ٢٣١
العلة والمعلول فى الميتافيزيقا ٢٣٢
المادية الجدلية والتاريخية والاشتراكية العلمية ... ٢٣٢
هيجل ٢٣٣
هل حلت الطاقة محل المادة ؟ ٢٣٤